الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر باتنة-1-

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم الفلسفة

رقم التسجيل.....

الرقم التسلسلي.....

الرؤية التعقيدية ومنطقها الإبستيمولوجي لدى إدغار موران

أطروحة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في شعبة الفلسفة

تخصص: فلسفة معاصرة- مذاهب ومناهج-

إعداد الطالبة

سارة جديد

إشراف الأستاذ الدكتور

حاج دواق

لجنة المناقشة

إسم ولقب الأستاذ	الرتبة	مؤسسة الإنتداب	الصفة
أ. د. عبد المجيد عمراني	أستاذ. ت. ع	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. حاج دواق	أستاذ. ت. ع	جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
أ.د. نعيمة إدريس	أستاذة. ت. ع	جامعة قسنطينة	عضوا مناقشا
د. عبد الغني بوالسكك	أستاذ. م. أ	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. خالد عبد الوهاب	أستاذ. م. أ	جامعة أم البواقي	عضوا مناقشا

إهداء

إلى الوالدين الكريمين، أمي ذيب الزهرة وأبي جديد الحسين.

إلى صديقي ورفيق دربي وسندي في الحياة، إلى زوجي الغالي فارس.

شكر وعرفان

الحمد لله والشكر لله على عظيم فضله وكرمه.

ثم أشكر أستاذي الفاضل البروفيسور الحاج دواق الذي أشرف على هذا العمل.

كما أشكر لجنة المناقشة التي أخذت على عاتقها مهمة قراءة هذا البحث وتقييمه.

قال الله تعالى :

يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

(المجادلة :11)

AlBetaqa.com

مقدمة

مقدمة

إن الفلسفة حركة دؤوبة من السعي والكفاح نحو الصواب والحقيقة، إنها على هذا الحال في كل الأزمنة والعصور، وبموجب هذا الوضع اشتغل الفلاسفة والمفكرون على البحث والتحري والتنقيب عن الخيوط الموصلة إلى هذه الغاية أي ملامسة الحقيقة .

وإدغار موران الفيلسوف وعالم الإجتماع الفرنسي ذو الطابع الموسوعي واحد من هؤلاء المشتغلين بهذا الحقل جاعلا حياته كلها للبحث عن رؤية مفيدة وهادفة يخدم بها البشرية والعالم، يأتي هذا المجهود في إطار البحوث المتعلقة بالفلسفة المعاصرة - الراهنة- وهي فلسفة فرنسية الجنسية - باعتبار الفيلسوف فرنسيا- عالمية الهوية والحمولة، باعتبار الطابع الكوني لهذه الرؤية.

إذن فالموضوع هنا موضوع فلسفي إبستيمولوجي، يتحدث عن ظهور وتفعيل نظرية معينة يطلق عليها نظرية الفكر المركب أو إبستيمولوجيا التعقيد، وهي رؤية تفسر النمط الذي يحكم العالم الحالي وتبين كيفية تحسينه بطرائق مدروسة من ناحية الوسطية والحوارية والفاعلية والإنفتاحية، وحتى مآلاته المستقبلية.

لقد قال إدغار موران بأننا والعالم نعيش حالة تعقيد شديد لا ندرك حجمها ولا وزنها الفعليين، وإن حالة عدم الإدراك والإنتباه هذه قد ولدت لدينا مشاكل ثقيلة على المستوى المعرفي للبشرية، وهو الوضع الذي تسلل إلى كافة الأصعدة الأخرى أهمها الحياة الواقعية اليومية للبشرية، حيث أصبحنا نبسط المعارف والرؤى بطريقة كبيرة بهدف توضيحها والوصول إلى معناها الحقيقي، فيحصل الفهم، ومنه أمسى الموضوع منهجا فعليا إتخذته الفلسفات التقليدية عندما جعلت معيار البساطة والوضوح أحد الركائز الأساسية للمنهج الحديث، وهو وضع خلق عقلا أعمى مشوها وعاجزا عن تمثل التعقيد الذي يحيط بالعالم، كما أنه عول بعد هذه الركيزة على ثقافة الفصل والإختزال في المعارف - نحن باقون دائما في الحقل المعرفي، على أساس أن المشكلة الفعلية هي مشكلة معرفة من حيث المبدأ والتنظيم والمنهج والقاعدة والبعد وحتى المآل- هذا الفصل بين المعارف المترابطة، بدراسة كل منها لوحدها على حدى بعد تجزيئها إلى جزيئات صغيرة

للوصول إلى كنهها كما ذكرنا سابقا، وهذا الإختزال المتجسد في عدم الإعتراف بالكثرة والتعدد، وعدم تقبل فكرة التفاصيل المتفاعلة المولدة للبديع والرائع والخلاق، وجعلها كلا واحدا يمثل شيئا واحدا أو نزعة واحدة، أدى كما ذكرنا إلى ظهور أعطاب على مستوى السيرورة التاريخية للمعرفة نفسها.

حيث أنها لم تتوقف عن التقدم نحو الأمام، بل إنها متقدمة وبصورة سريعة لكن بهيئة مشوهة ومخيفة، وهو أمر لا يخدم الإنسان والمعرفة معا، ولا يوحي بأن العالم بخير مطلقا.

والإشكالية التي سوف تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها بعد سبرها وهي:

- هل الوضع البشري بمعارفه الكثيرة يعيش حالة أزمة إلى الحد الذي نسلم معه بأن التغيير واجب وضروري؟ ما طبيعة هذه الأزمة؟ من أين تشكلت؟ ماهي أهم إنعكاساتها؟
- هل يحق لنا القول بأن الفكر الإنساني والفلسفي قد غاب عنه الطرح المتوازن الذي يضفي عليه المعقولية، وينجيه من المطارحات التجزيئية التذريرية القائمة على المنطق والمسعى الأحادي؟ ماهو المشروع التعقيدي المطروح في هذه الدراسة؟ على أية قواعد قام وماهي خلفياته وآليات اشتغاله؟ كيف يمكن تصنيف جملة هذه الأفكار، وما هو الإطار الأنسب لها حتى تعيش فيه وتتقوى؟

- هل ستكون فعلا الرؤية التعقيدية قادرة على تمثل الملمح الجديد للعالم، ومواجهة القصور الفكري الذي تعانيه الذهنيات والمعرفة؟

- هل الرؤية التعقيدية بمنطقها الإبستيمولوجي تدعي أنها المسلكية الوحيدة، والأمل النهائي للخروج بالبشرية إلى عالم الحلول والإنفراجات؟

- أيمكن لهذا المشروع أن يكون كفيلا بالجمع بين مختلف الآراء، وإرضاء جميع المختلفات على كل الأصعدة والمستويات دون أن نرى وجهة واحدة ثائرة ضده، غير قانعة ولا راضية بعرضه؟

وبعد التطرق إلى الإشكالية، تدعونا الضرورة المنهجية إلى التوازي والتجاوب مع طبيعتها وذكر منهج الدراسة، حيث عمدت إلى التعويل على المنهج التحليلي المتعدد الأجنحة، أو بإجرائيات متعددة، الذي سعى في البحث إلى تحليل جملة أفكار الفيلسوف، والكشف عن بناها الداخلية التي فرضت ظهورها وحضورها، والمترجمة في حزمة المفاهيم والتراكيب والمقولات الخاصة بهذه الرؤية، يأتي هذا العمل بعد القيام بنقد شامل من طرف هذا المنهج لمجموعة الأفكار السائدة والمعترف بمصداقيتها وصلاحيتها وشرعيتها من طرف العام والخاص، وهي لا تشكل في الحقيقة إلا مجموعة من الأوهام والضلالات والزيف التي مارسته المعرفة التقليدية التبسيطية على الإنسان والعالم، وللأمانة فقد إستعنت بالمنهج المقارن في بعض الأحيان لكي أقارن أفكار الفيلسوف بأخرى ماضية سابقة لها، أو معاصرة وراهنة .

لقد أفضى بي البحث بهذا الخصوص إلى الإستواء على خطة / مسار من أربعة فصول متوزعة مضامينه وفق عرض وتحليل وقراءة وهي:

الفصل الأول عرضت فيه المنطلقات والروافد الأساسية لفكر إدغار موران، وهي أربعة تحمل في ثناياها ممهدات لأبعاد أخرى، بالإضافة للوجود الفعلي لأبعاد سابقة حبلى بها، وهي على التوالي المنطلق التاريخي ثم المنطلق السياسي، فاالتقنوعلمي، وأخيرا الإبستيمولوجي، وعند عرضها فيما بعد سأبين كيف أن مجموعها سيشكل ملمحا واضحا لمشروعه التعقيدي.

أما الفصل الثاني أبرزت فيه الأسس الفكرية التي يعول عليها في إنشاء رؤياه ونضوجها، وهو الآخر يحوي أربع محطات / عناصر قاعدية هي على التوالي الأساس ، العقلي فالآيديولوجي ثم الأخلاقي فالثقافي وما ينطبق من إحتواءات على ما قلناه في الفصل الأول، ينطبق كذلك على هذا الفصل، إذ أن مجموعة الأسس الأربعة هذه يدمج تحتها / ضمنها أسسا أخرى ثاوية ومتخفية، فهي متضمنة لها، ومحتواة فيها، وقد أتيت على ذكرها علنا، أو أشرت إليها ضمنا عند تعرضي لكل عنصر على حدى حتى أبين

فاعلية الوعي الجمعي وحضوره الكثيف في هذه الدراسة، وحتى أثناء تقسيمات وتفريعات المسار.

والفصل الثالث المعنون بالمشروع الفكري لإدغار موران، فتجد أننا ركزنا على أهم وأبرز أربعة رواسي فيه،أراها لازمة الذكر/الشرح والتحليل، والتوقف عندها وهي بالتسلسل، مواجهة العقل الأعمى ونقده، أي كيف وقف العقل التركيبي ضد عثرات العقل التبسيطي، وكيف كان ملمح المواجهة وحالها ومآلها، ثم إرساء النموذج التعقيدي باعتبار أنه بعد الهدم تأتي مرحلة التشييد والبناء، وهو ماحدث بهذه النقطة ، حيث تعرضت فيها للتأصيل الدلالي والمعرفي لنموذج التعقيد، والصفة التي خاطب بها المعرفة والعالم، مرورا بعنصر هندسة الإنسان والعالم، وماورد فيه من معلومات تعبر عن عملية تكثيفية لها فقط، أي أن المعنى المجيب عن هذا العنصر يمكن إستشفافه في البحث كاملا، فهو منذ بدايته سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يدعو إلى هندسة الإنسان والطرائق الموصلة لذلك، وأنه المسعى الأخير للفكر التعقيدي بل هو غاية مناه بالتوازي مع إصلاح المعرفة، ثم ختمت بموضوع كوكبة الإنسانية والعالم، وهو مثلما أراه صورة للمآل الاخير الذي سيكون عليه وضع البشرية إذا ما ساد التعقيد/ الإبستيمولوجيا المركبة وإنتصرت بكل تفصيلاتها.

أما عن الفصل الرابع والأخير الموسوم بالمنطق الإبستمولوجي لبراديغم التعقيد ومآلاته، فقد حاولنا فيه الحديث عن محددات الفكر التركيبي والمسيرة له، وذلك بالتعرض لها ذكرا وشرحا، وهي الجهاز الإصطلاحي للرؤية التعقيدية، وكشفت فيه عن جدة الترسانة المفاهيمية التي أتى بها الفيلسوف لبناء منظومته الفكرية، وهي تدل في شكلها على قوة طرحه وثراء ثقافته، وفي مضمونها على أصالة الفكرة، وفرادة الخيار، ثم إنتقلت إلى موضوع المنهج، ولا تخلو أية دراسة من ذكر للمنهج سواء من ناحية الضبط والتعريف أم النوع والماهية، أم الخصائص و المميزات أم على صعيد التسمية...إلخ، وقد أعطيت هنا صورة بانورامية حول عدة نقاط تعرف به، وتبين ملامحه، وآليات إشتغاله، والسياق الذي أدى إلى ظهوره وغيرها من التفاصيل.

تليه مسألة جدل الحداثة والتعقيد، والعلاقة التي ربطتهما تارة وفرقتها طورا أخرى، وفي هذا الشأن عمدت إلى طرح مساءلات نقدية في البناء ثم رسمت سبل مناهضة السائد، والدعوة إلى الإنفتاح وتقبل البراديغم الجديد – المركب - ثم ختمت الفصل بسؤال المآلات والمصير، وهو سؤال معرفي إستشرافي مستقبلي أكثر منه تلقيني حاضر وجاهز.

ثم خاتمة للبحث أجملت فيها مجموعة من الإستنتاجات التي توصلت إليها من خلال التعرض لأولى نقاط البحث إلى غاية آخرها، لتكون قائمة المصادر والمراجع هي آخر ما يكتب ويرد في الرسالة.

وعلى هذا الأساس يكتسي الموضوع المراد تناوله بالتقصي والدراسة أهمية بالغة من حيث طرحه كضرورة ملحة وليس كترف فكري اعتباطي الحضور، هذه الضرورة هي في تقديري مصحوبة على جناح السرعة من أجل النظر في الوضع الخطير والمتأزم الذي آل إليه حال المعارف الإنسانية.

حيث سيتم بموجب هذا المشروع تشريح الوضع بصورة جادة، ثم الوقوف على مكامن الخطأ والأوهام في هذه المعارف، ومحاولة نقدها بصورة موضوعية، وبالتالي طردها خارج منظومتها- أي إزالتها إطلاقا من مختلف الحقول المعرفية، مع الإحتفاظ بالباقي المفيد منها، الذي لا يزال يساهم في البناء والعطاء، ومن ثمة إستحضار الفكر الجديد، وطرح مجموعة أفكاره ليس لهيمنتها ومركزتها لوحدها على الساحة المعرفية، بل جعلها أفكارا مكملة لنقائص تلك السائدة المفيدة، الأمر الذي يجعلنا نفهم أن موران لا يدعي مطلقا إمتلاكه لنظرية كاملة تجيب عن جميع الأسئلة التي عجزت عن حلها الرؤى والمناهج العلمية والمعرفية السالفة، بقدر ما صرح بأنه قد جاء بفكر جديد قادر على تمثل

ملامح التعقيد التي تعاني منها البشرية والعالم، فهي وصفة للعلاج، وليس دواءا فعالا، يوصف للشفاء التام إذا ما تناول لوحده.

هناك عدة أسباب دفعتني لإختيار موضوع الأطروحة منها ماهو ذاتي ومنها ماهو موضوعي، فأما الأولى فتكمن في أن الفلسفة المعاصرة قد عرفت مشاريع كثيرة، ولكن

قليلا ما نجد رؤية حقيقية جادة، وتحس فعلا بمجهود صاحبها، ويمكن بكل جدارة أن تطلق عليها هذه التسمية لعلمك بأهمية الطرح ومساسه لجانب في غاية الخطورة، وكذا لإرتباطه الوثيق بسؤال المصير - مصير البشرية في ظل التحولات والأزمات- وبالتالي أصالة هذا المشروع وقوته في طرح أفكاره بأسلوب شيق ومتعدد الملامح علمي/ فلسفي/ إبستيمولوجي/ ثقافي/ فني...، دون أن يقوم بإقصاء للرؤى والنظريات المتراكمة على الساحة الفلسفية المعرفية، فهو غير منغلق البتة على النتائج العلمية، والإستشرافات الفلسفية حتى يحقق معناه، ويبلغ مقصده، وهو الأمر الذي جعله فكرا متحررا ومنفتحا ومتحاورا ومتواضعا في الآن معا، أما الثاني فلعلاقتي التاريخية مع الفيلسوف حيث رافقني وفكره منذ مذكرة الماستر أين إلتقيت بفكره بطرح من مشرفي فأعجبت به وتبنيته مرافقا لي حتى هذا اليوم.

ليكون من خلال هذا المنطلق أهداف مسطرة عملت عليها وهي محاولة الكشف عن الطابع العام الذي يحكم براديغم التعقيد، كمقولة جوهرية لمجموع أطروحاته الفكرية، ثم مقاربة هذه الأطروحات مع نظيراتها السائدة حاليا، والتي سادت قبلا خاصة ما تعلق منها بالماضي القريب، ثم الرغبة الملحة في مواصلة التعريف بهذا المفكر/الفيلسوف/ العالم/ الذي لم يأخذ نصيبه الكافي من الدراسة في عالمنا العربي والإسلامي، ثم إنه لا يوجد في إعتقادي في الكون كائن عاقل يقول لا قد إكتفيت من المعرفة بهذا الخصوص، وأنا على هذا الحال، أحاول التعلم والكشف أكثر عن هذا الفكر، والأخذ منه بما ينفعني ومجتمعي وأمتي من علم طرحه في متونه المختلفة.

أما بالنسبة لجملة المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث، فلم أركز على مصدر واحد بعينه وإشتققت منه كافة المعلومات والتفاصيل، بل عملت جاهدة قدر الإمكان على توفير الثراء المعرفي المتواجد أصلا وحصرا في متونه، وعلى سبيل الذكر، فإن المصدر الفكر والمستقبل - مدخل إلى الفكر المركب - يعد الناطق الرسمي بإسم نظرية الفكر المركب في اللحظات المعرفية الفكرية المختلفة، ثم لدينا كتاب تربية المستقبل الذي يعد هو الآخر المؤسس لرؤاه التغييرية في العالم من منظور تربوي بحت، كما لا ننسى النهج

بأجزائه الستة، وبهذا أعتقد أني لن أدخل في إطار التحيز لمؤلف خاص على حساب آخر حتى أتحرى أكبر قدر ممكن من الموضوعية، وسأكتفي بالقول بأهميتها في هذا البحث، دون أن أنسى أن قائمة المراجع المعينة في بناء هذه الرسالة، فلم أتبنى توجه مرجعي خاص يصبغ بحثي ويعود بالمرجعية إليه ولكن تنبغي الإشارة الى أطروحة ابستمولوجيا التعقيد والفكر المركب لمؤلفها داود خليفة كدراسة أكاديمية إشتغلت حول أفكار إدغار موران، والفرق بين هذه الأطروحة وتلك هو تركيزي على الرؤية التعقيدية كطرح يعالج سؤال المصير وتطبيقاتها النقدية على مختلف المجالات.

ولأن كل بحث فكري ومعرفي لا يخلو من الصعوبات، فأنا أقر في هذا المقام أن أكبر عائق واجهته هو قلة المراجع التي تتحدث عن الموضوع، وأخص بالذكر المراجع العربية، أي أن مكتبتنا العربية فقيرة جدا إلى هكذا نوع من الأبحاث والدراسات في هذا المجال، ولهذا الفيلسوف بالضبط - إدغار موران - فتكون بهذا الدراسات السابقة قليلة وشحيحة بالمقارنة مع ما يتطلبه الأمر من وفرة وحضور وغنى ما جعل العون ناقصا وقليلا، إضافة إلى أن الفيلسوف لا يزال حيا ويزاول نشاطاته الفكرية في كل يوم، أي أن له جديدا دائما وفي موضوعات عديدة باعتبار طابعه الموسوعي، الأمر الذي زاد الوضع صعوبة من حيث ديمومة مواكبة جديده وحضور لقاءاته وبرامجه، وحواراته فالأمر إذن ليس فكرة حاضرة لفيلسوف ماض بقدر ماهو فكرة حاضرة لفيلسوف حاضر حي.

والله نسأل التوفيق والسداد.

الفصل الأول

في المنطلقات الأساسية لفكر إدغار موران

أولا: في الأفق التاريخي وممشاه.

ثانيا: الوجهة السياسية ومرماها.

ثالثا: تأثيرات البعد التقنو-علمي.

رابعا: المنطلق الإبستيمولوجي وتفريعاته.

استهلال:

إن الولوج إلى أعماق أي فكر، وأية نظرية يتطلب بادئ ذي بدء التحصيـــــــن بجملة أسلحة منيعة وصحيحة، أولها فهم منطلقاته/ منطلقاتـــــها الرئيسية، التي من خلالـــــــها كان وإنطلق لتفهم فيما بعد مقاصد الوصول

كذلك كان الحال عند تخطيطي لتشريح المشروع الفكري للفيلسوف الفرنسي إدغار موران Edgar Morin (1921) وهو كذلك عالم إجتماع وعالم إقتصاد، وبيولوجي وناقد سينيمائي...إلخ .

أي أنه موسوعي الطابع، شغل منصب رئيس بحوث، وخبير في المركز الوطني للبحوث العلمية cnrc (1950- 1989) وهو حاليا يترأس الوكالة الأوروبية للثقافة في منظمة اليونيسكو، ومنح الدكتوراه الفخرية في العديد من الجامعات، في كل من العلوم والسياسة وعلم النفس وعلم الإجتماع وغيرها.

كرس حياته لأكثر من ثلاثين عاما في البحث عن منهجية قادرة على تحدي ملامح التعقيد الذي فرض نفسه في الواقع في جل المناحي العلمية والإقتصادية والإجتماعية والسياسية وغيرها، كما ترأس جمعية الفكر المعقد الهادفة إلى الإجابة على هذا التحدي التعقيدي وكيفية التجاوب معه بصورة تضمن الشفافية والحوارية والحضارية.

إذن لمحتنا التعريفية المقتضبة عن هذه الشخصية الموسوعية تجعلنا نعود إلى نقطة المنطلق، وهي أهمية توظيف المنطلقات كمفتتح يعول عليه في فهم ذهنية الفيلسوف المؤطر والمنظر للفكرة التعقيدية، وهذا في تقديري لازم ومشروع .

وتحت ضغط هذه الضرورة يلح للطرح إشكال إستعجالي هو: ما المعنى الواضح والأخير الذي سيقدمه لنا سؤال المنطلقات كإنطلاقة تحليلية إستفهامية للفصل الأول؟

ما المقصد من إختيار الفجوات التاريخية وإطلالاتها في الطرح الأول من سؤال المنطلق، وما تأويلها داخل متون إدغار موران؟ ما العلة من توظيف السياسة وتشعباتها فيه؟ وهل حقا ستكون إضافة لازمة وما إجابة موران عن هذا؟ ثم هل بمقدور التقنية في منحى آخر الإعتراف بمشروعه الفكري بعدما أقر هو بتأسيسها له وإحتضانه لها؟ لما

المنطلق الإبستيمولوجي المعرفي؟ بمعنى مالذي يريد قوله وصياغته من ورائه، وكيف يمكن أن يؤثث للصرح التعقيدي؟ ماهي العناصر التي إذا ما حضرت فيه سوف تشكل ممكنات وجوده وتعزيزه؟.

كل هذا وأكثر سوف نحاول الإجابة عنه في عناصر هذا الفصل الأربعة .

أولا: الأفق التاريخي وممشاه

إن الحديث عن موضوع التاريخ(*) بالنسبة لفكر أي فيلسوف هو في تقديري في غاية الأهمية بما كان، وذلك لكون التاريخ يعبر عن أحد أبرز المنطلقات الفكرية الأساسية له- الفيلسوف -، كما أنه يوضح وبجلاء الكيفية التي بها يفكر، والعوامل الكثيفة التي جعلته يفكر ويتصرف بتلك الطريقة .يقول موران: << التاريخ عبارة عن مغامرة مدهشة وقاتمة ودنيئة ورائعة، ولا يمكن لنا أن نتكهن إلى أين ستقودنا، ربما تكون نهاية التاريخ بعودة مساره رجعيا إلى بداياته الأولى بمثابة عبرة لنا >>(1).

ولفهم هذا المبحث بنوع من التفصيل والتحليل ، كان لابد من طرح الإشكال التالي: كيف يكون التاريخ أحد المنطلقات ذات الأبعاد الصانعة للفكر الفلسفي لدى أي فيلسوف وبالأخص لأفكار إدغار موران؟ ماهي الدعامة التي يعول عليها التاريخ حتى يعطي للمشتغل ضمن حقله المادة الدسمة والكثيفة البانية لفكره ومشروعه؟

(*) التاريخ: لم يكن للتاريخ ككلمة معنا واحدا ففي الماضي<< كانت تدل عند سقراط على المعرفة، وعند أرسطو على مجرد جمع الوثائق، والتاريخ عند بيكون هو العلم بالأمور الجزئية،لا بالأمور الكلية، أو هو في نظره منقسم إلى تاريخ طبيعي وتاريخ مدني، وتطلق كلمة تاريخ في أيامنا هذه على العلم بما تعاقب على الشيء في الماضي من الأحوال المختلفة، سواء أكان ذلك الشيء ماديا أم معنويا، كتاريخ الشعب، وتاريخ الأسرة، وتاريخ القضاء... وتاريخ الفلسفة وتاريخ الأدب...>>.
أنظر إلى: جميل صليبا: المعجم الفلسفي، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص ص228-227.
(1) إدغار موران: النهج: إنسانية البشرية، الهوية البشرية: ترجمة هناء صبحي، أبوظبي، هيأة أبوظبي للثقافة والتراث، ط 1، 2009، ص263.

1- اللحظة التاريخية بين إحداثيتي الميلاد والتأويل

واضح أن التاريخ قد بدأ منذ اللحظة الأولى، التي قرر فيها أول إنسان أن يكتب/يرسم/ينقش...معلومات أو معارف تحمل رسالة توصيف أو إخبار عن الحالة التي كان يعيشها هو، أو مجتمعه أو دولته، كيفما كانت الوسيلة التي إستعملها بسيطة أو معقدة، فهي أول وضع للتاريخ في تقديري، وقد حدثت في الحضارات القديمة المختلفة منها الحضارة الآشورية والفرعونية قبل 2000 سنة قبل الميلاد، وأكثر منها قدما ما وجد منقوشا على جدران المغارات والكهوف، الذي يبرز رغبة صاحبه في تدوين الحياة المعاشة أنذاك، كما لا ننسى ما كتبه المفكر الصيني كونفوشيوس(551 ق م-479 ق م) في القرن السادس قبل الميلاد عن أحوال شعبه، ويمكننا أن نكتفي بمثالين من الحضارات الموجودة في الشرق القديم، وهما: الصينية والفرعونية، واللتان تؤكدان بوضوح كيف أن

الإنسان القديم مهتم أيما إهتمام بعملية توثيق وتدوين لما يعايشه من حوادث يومية، رغبة منه بحفظها في ذاكرة الشعوب الحالية والقادمة، وخوفا عليها من الإندثار والنسيان.

أما إذا توجهنا إلى حضارة بلاد اليونان:<< فيعتبر هوميروس في إعتقادي أول من وعى بأهمية التاريخ في الفكر اليوناني، فقد رصد في ملحمته الشهيرة الإلياذة، الأحداث الأخيرة للحرب الطروادية>>[1].

ما يعني أنه قد جعل هو الآخر من الكتابة التوثيقية لأحداث هذه الملحمة الشاهد الوحيد عليها والذي بقي إلى اليوم، الأمر الذي قال به المؤرخ اليوناني هيرودوت* وثيوكيديدس، وإحتضنوه حسبهم، وهما المؤسسان الأولان لما يصطلح على تسميته علم التاريخ.

وبالإنتقال إلى العلاقة القائمة بين الأسطورة والتاريخ، نجد أنها علاقة متلازمة منذ البدء، فقد شجعت الأسطورة المعروفة تارة بالحقيقة، وطورا أخرى بالخرافة على ظهور

(1) مصطفى النشار: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ص31.
* ولقد حدد هيرودوت(426.484) هدفه من التاريخ فقال في مقدمة كتابه<< إنه يأمل أن يحقق من تاريخه هدفين، أولهما حفظ ذاكرة الماضي، بتسجيل الإنجازات المدهشة سواء التي قام بها اليونان، أو التي قامت بها الأمم الآسيوية الشرقية، وثانيها أن نرى على وجه الخصوص كيف تم الصدام بين هاتين السلالتين>> المرجع السابق ص37.

أفكار وآلهة وقوى يعايشها الإنسان ويتفاعل معها، فالكائن البشري لا يمكنه أن يحيا دون أسطورة يعتقد بصلابتها ويؤمن بشرعيتها، وتساهم في راحته وطمأنينته من كل خطر وشر.

إن النتائج أو المصير التاريخي، لم يلازم البشرية إلا منذ عشرة آلاف سنة، أي عندما إكتشف الإنسان النار، ووظفها لخدمة حاجاته وأغراضه المختلفة، وهو بإكتشافه إياه (الإنسان للتاريخ) تغيرت حركته ونمطيته، فتغيرت معه نشاطاته وتوجهاته وتوقعاته ومدركاته، فقد كانت تسير حياة البشر وفق حركة ساكنة، هادئة، تكرارية، روتينية، لكن مع إكتشافه تغير الحال وأصبح أكثر سرعة وواقعية وإضطرابا، وذو إتجاه واحد.

<< ولد التاريخ مع ولادة الدولة والهيمنة، وحرب الغزو، كانت تخضع لطقوس صارمة، وكانت هناك بالتأكيد حملات تأديبية ومذابح ونزاعات بين الجماعات للسيطرة على مكان غني بالطرائد، لكن أيا من هذه الحملات لم تكن تنظم لغرض السيطرة على مجتمع آخر>>[1].

إدغار موران هنا يقر بأن التاريخ يتحرك عن طريق الحروب والصدامات التي تحدث بين الإمبراطوريات والدول، هذا الفعل العنيف سيؤدي في نهاية المطاف إلى خلق شيئين إثنين هما قيام الدول وإزدهارها ونمائها ورخائها، ثم الصراع والإقتتال بينها حتى الموت.

إن هذه الثنائية التي لطالما كانت متصارعة ومتضادة، لم تكن الوحيدة حسب إعتقاده، بل إن التاريخ أفرز إنسانا جديدا، ومن نوع مختلف، إنه إنسان صانع ومدمر، حضاري وبربري، عاقل ومجنون، إلى غيرها الكثير، ماجعل الأسئلة تطرح، والمخاوف تزداد حول كيفية التعامل مع وضع معقد ومتأزم بهذه الصورة وهذه الإحداثيات.

(1) إدغار موران: النهج: إنسانية البشرية، مصدر سابق، ص240.
إن التاريخ حسب موران يحمل ملمحين إثنين هما ملمح البناء والهدم، الحضارة والوحشية، الولادة والتقتيل، فهو بهذا تارة إيجابي هادف بناء مضيف للإنسانية والكون، وطورا أخرى سلبي إنتقاصي هادم، فلا يمكن بالتالي من هذا المنطلق الجزم بأنه مثلما فاجأنا قبلا، سوف نتنبأ بالوجه القادم له مستقبلا،لأن كل الإحتمالات واردة، ولا قانون ثابت يحكمه.

كما أنه يرى أن الفائز الوحيد من الجانب السلبي لمفرزات المجتمعات التاريخية في القتل والتشريد والتدمير هو الموت، إنه المنتصر على كل ماجاء به الإنسان وأحدثه:<< ولد التاريخ من الحرب وأدام الحرب، فهذه الأخيرة كما أشار إلى ذلك غاستون بوتول ملازمة له، وفي عالم تحسم فيه الأمور بالحرب، تقود ضرورات الدفاع والبقاء إلى اللجوء إلى الحرب >>(1) .

أجل إنها المسلمة التي يؤمن ويقتنع بها، ودلل عليها بشكل جيد في ملاحم كل من الإسكندر، ونابليون بونابارت، وكوتوزوف معتقدا أن أي حرب غزو في التاريخ تقف على ثلاث مرتكزات أساسية تحركها وهي جنون العظمة الذي يتحلى به قائد الجيش، يوافقه أو يقابله جنون عظمة الدولة التي يحكمها أو ينتمي إليها هذا القائد المتعطش للمجد، ثم جنون عظمة الآلهة الدافعة لهذه الحرب والمباركة لها، والتي تكون في الأغلب متعطشة للذبح والدم.

كما أن التاريخ هو عبارة عن انفراج أو انعتاق لجملة من المشاعر والإمكانات والممارسات الإنسانية المختلفة التي كانت مخبؤة في مكان خاص بشكل معين، ثم جاء هو ليحررها ويعرضها بكيفية أكثر وضوحا وجرأة، منها الجانب العقلي والتقني والخيالي والإبداعي والإقتصادي والجمالي، وحتى ما يخص موضوع ألعابه وتسليته، إنفرج بطريقة جديدة وهائلة تتعدى التوصيف وتتخطاه.

وبالتالي<< تطور التاريخ بتعاقب الأعاصير التي تتداخل ببعضها بعضا، مثيرة حوارية تكميلية متضادة من النظام والفوضى والتنظيم، ومديمة حوارية الكون بمعنى حوارية التكوين والفناء>>(2).

وهناك التاريخ الجديد، وهو تاريخ الحاضر، أو تاريخ اليوم الذي تحتم عليه أن يستمر في ظروف خاصة ومختلفة، وبكيفية مغايرة لسابقه، ففيه من العبقرية والحنكة

(1) إدغار موران: النهج: إنسانية البشرية، مصدر سابق، ص242.
(2): المصدر نفسه، ص244.

والدهاء والهدوء الكثير، كما فيه من الوسائل التكنولوجية والحربية والآلات المليونية الأكثر من ذلك.

ثم إن كلا التاريخين- القديم والحديث- تحركهما قادة أو أفراد وأبطال وملهمون، يحققون أحلام وطموحات أفكار خفية في الغالب، لا يمكن أن يراها الشعب أو يستوعب وجودها إلا بعد أن يمضي وقت معتبر من الحادثة، ويعطي موران مثالا حيا على ذلك في التاريخ الجديد، ككون هتلر(*) Adolf Hitler (1889- 1945) دمية في يد العنجاهية الرأسمالية، وإعتبار ستالين(**) joseph stalin (1878-1953) منفذ للبيروقراطية، فنفهم من خلال هذا أن هناك شخصيات ضالة وسلبية، أغرقت نفسها وتاريخ أمتها وجرته إلى قاع الحضيض، وهناك في المقابل شخصيات فذة ناجحة رفعت نفسها وأمثالها إلى أعلى المراتب.

لقد إستطاع الدين تاريخيا أن يحدث فروقات هائلة على مستواه- على مستوى التاريخ- فنجد ظهور النبي موسى على أرض مصر، وتأثير دعوته على شعبها، إستطاع أن يغير مجرى تفكير وأفعال حضارة عريقة في الأرض بعاداتها ودياناتها ومعتقداتها لآلاف السنين، كذلك إستطاع رجل أمي مثل محمد ﷺ على حد توصيف إدغار موران، في بيئة صحراوية قاحلة أن يغير المعتقد السائد في أرض الحجاز ويمتد بهذا الدين خارج منطقة الشرق الأوسط، التي كثيرا ما كانت تدين بالدين المسيحي، منتشرا إلى إفريقيا وآسيا وأوروبا.

هؤلاء الأنبياء وغيرهم من الشخصيات التاريخية المغيرة، يصفهم موران بالخارجين عن المألوف، أي ما كان سائدا في وقت كل منهم ويعتقد في شأنه أنه الصالح

(*) أدولف هتلر: سياسي ألماني، مؤسس حزب العمال الألماني الإشتراكي الوطني المعروف بإسم الحزب النازي، حكم ألمانيا في الفترة الممتدة من 1933- 1945.

(**) جوزيف ستالين: القائد الثاني للإتحاد السوفياتي سابقا لمدة 28 سنة، معروف بحدته وقسوته التي كانت سببا في تسميته بمجموعة من الألقاب كالرجل الحديدي، نقل الإتحاد السوفياتي من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي.

والأصوب، وهو يعتبره<< المحرك الداخلي الرئيسي للتاريخ الذي ينمو فيما يشمل التنظيم الذي يلجمه أو تضعف القوة التي تضعفه>>(1) .

وفي حديثه عن المسار الذي يتخذه التاريخ في المضي والحركة، يجد أنه<< لايتقدم على نحو مستقيم كنهر عظيم، بل يمر بالتواءات تسببها أحداث خارجية أو داخلية، أو تتتسبب هي في إحداثها، إنه جريان يتعرض للإضطرابات والتحول والمحاربة>>(2) .

ما يعني أن التاريخ تتحكم فيه أحداث غير متوقعة ولا إرادية، قد تنصدم المجتمعات بها عند التقائهما، لأن كل شيء ممكن، ولا يمكن إقصاء أدنى أمر من الأمور في موضوع التاريخ، ولنا في ذلك نماذج كثيرة.

إذن فالإقرار بأن التاريخ لا يشكل تطورا مستقيما مثلما إعتقد بذلك أوجست كونت(*) Auguste Comte (1798-1857) وغيره، هو إعتراف وتأكيد بأنه عبارة عن عقدة مختلفة مكونة من النظام والفوضى، اليقين واللايقين، المتوقع واللامتوقع، السلبي والإيجابي، وغيرها من الثنائيات المتضادة، بل إن المجتمعات البشرية حتى وإن شكلت ما يسمى بالتاريخ الكوني، فإنها دخلت في مأزق الحروب لإرساء عالم الهدوء، فأسفر عن ذلك حربين عالميتين من أقسى ما شهدته في مسارها الطويل.

أما فيما يخص موضوع التقنية ودورها المساهمة في صناعة التاريخ البشري فيؤكد موران:<< أنه لا يمكن الفصل بين تطور التاريخ، وتطور الزراعة، وتدجين الخيل، وتقنيات البناء، وإستخدام الطاقة الهيدروليكية، وبناء العديد من المهن في حضارة المدن، وبالطبع التسلح فالمجتمع يطور تقنيات تقوم بدورها بتطوير المجتمعات>> (3) .

(1) إدغار موران: النهج: إنسانية البشرية، مصدر سابق، ص249.
(2) المصدر نفسه، ص251.
(*) أوجست كونت: عالم إجتماع وفيلسوف فرنسي، وهو مؤسس علم الإجتماع المعروف حاليا، ومؤسس الفلسفة الوضعية المبنية على العلم الطبيعي الصارم.
(3) إدغار موران: المصدر نفسه، ص253.

وعليه فإن التاريخ في وقتنا الحاضر أصبح يسير وفق أربعة عجلات أساسية هي عجلة التقنية، العلم، الصناعة، الربح، وهو ما يترجم الملمح العنجهي الخطير لواقع المجتمعات البشرية اليوم.

وما نفهمه من خلال هذا الطرح أن التقنية من أبسط تمضهراتها إلى أعقدها، ساهمت في انتصار الإنسان في حروبه ومعاركه، وتفوقه ضد خصمه الذي لا يملكها، لنصل بعدها إلى النتيجة الأخيرة ومفادها أن التقنية تاريخيا لم تظهر بناء على حاجة مادية بحتة

فقط، بل أيضا عن وجود الذهان(*) الهذياني الذي يعيشه ويعايشه الإنسان الحالم، الراغب في الوصول إلى أفكار وطموحات يراها بعيدة المنال، كالطيران لوحده مثل الطيور والغوص في أعماق المحيطات كالحيتان وغيرها الكثير.

2/ طرائق الممشى التاريخي ضمن منطق القدامى والمحدثين

<< المفهوم الثاني للتقدم التاريخي هو مفهوم منطق التعقيد، وهذا المنطق معمول به منذ قديم الزمان، وهو الذي غذى التطور البيولوجي، وأتاح مجيء الإنسان العاقل تحت الشمس>>(1).

في العصر الوسيط كان المنطق السائد فيما يتعلق بالتاريخ، أن له بداية وله نهاية، وهي حدية وضعتها السلطة الكنيسة المسيحية، تنطلق من ميلاد المسيح، وتنتهي بيوم القيامة أو يوم البعث، وهو طرح ليس ببعيد كثيرا عن المعتقد الإسلامي، وإن كانا يختلفان في البدايات حيث يذهب المسلمون إلى أن التاريخ يمكن رصده بداية من ظهور آدم كنبي على سطح الأرض، مرورا بكل الأحداث التي أعقبته، إلى يوم الفناء والبعث.

(*) الذهان الهذياني: هو حالة عقلية نفسية يعيشها الإنسان معتقدا ومصدقا فيها بمجموعة من الأفكار غير المتطابقة تماما مع الواقع، وتكون سببا مباشرا في ارتكابه الأخطاء والحماقات نظرا لقوة الصراع داخله، وغالبا ما ينجح هذا الهذيان من فرض نفسه ومنطقه على الواقع.

(1) إدغار موران: المصدر السابق، ص259.

وفي الحديث عن التاريخ كتب إبن خلدون معرفا إياه قائلا:<< إن للتاريخ ظاهر وباطن، في ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنموا فيها الأقوال... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق>>.

أنظر إلى: كمال حمود: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1990 ، ص279.

ثم تلتها- الفترة الوسيطية- بعد ذلك فترة عصر النهضة، حيث إنشغلوا بالبحث في الماضي، وفهمه من أجل معالجة مشاكل الحاضر وأزمات أخرى، فخلقوا بذلك أزمات جديدة على مستوى الذهنية والمنهج، ما جعلهم عاجزين عن إنتاج أية نظرية تقدمية حول المستقبل وما يحيط به من غموض، فحتى وإن كانت هذه الحقبة كردة فعل إنتفاضية من الهيمنة المسيحية بشتى تصوراتها، بما في ذلك تصورها الضيق للتاريخ، فقد سقطت هي الأخرى في فخ الإقصاءات لكثير من النقاط الأساسية والتي كان يجب أن لا تغفل عنها.

أما إذا مضينا قدما إلى الفلسفة الحديثة، فلا شك أننا سوف نصطدم بآراء الفيلسوف الفرنسي رونيه ديكارت (1596- 1650)، خاصة فيما يتعلق بالمنهج المستعمل في التعامل مع السندات والوثائق التاريخية، حيث جعل المنهج الشكي أداة فعالة في تمحيص صحيح حوادث الماضي من فاسدها، لكن الحق يقال أنه<< لم يسهم بأي إسهام له خطره فيما يتعلق بالتاريخ، فدافع عن الإيمان بالله>>(1) وغيرها من الأمور العقلية والرياضية واللاهوتية، والأهم في الأمر كله أنه قسم الوجود إلى قسمين بما في ذلك الإنسان، وجعل نصفه مادي كالجسد، والآخر عقلي أثيري مثل الروح، وهو أمر في غاية الحساسية فيما سيأتي بعد حين.

كما سوف نصطدم عند حديثنا عن الأفق التاريخي وممشاه بالرائد جيامبا تشافيكو(*) Griovanni Battista Vico (1668-1744)، حيث قام<< بمعالجة جديدة لدراسة التاريخ في عمل خرافة العلم الجديد...كما أنه يعد رائد في إدخاله مناهج معينة لدراسة التاريخ، وإقتراحه بعض المبادئ العامة، فإن الأحرى بنا أن نعده أحد مؤسسي علم التاريخ>>(2).

(1) ألبان.ج. ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص18.

(*) جامبا تشافيكو فيلسوف إيطالي، ومؤرخ وقانوني إهتم بفلسفة التاريخ، ألف كتاب مبادئ علم جديد في الطبيعة المشتركة للأمم 1725.

(2) ألبان.ج. ويدجري: المرجع السابق، ص23.

متحررا بذلك من أي رائحة براغماتية في دراسة التاريخ، وأن هذا الأخير تكون عملية فهمه ومعالجته والتدقيق فيه هي الأولى، وأن أية نقطة أخرى ملاصقة له في الجانب العملي تكون الثانية، مقتديا في ذلك بأفكار أفلاطون المثالية.

مميزا في ذلك بين التاريخ والمقولة، فلكل واحد من هذه الثنائية خصائصه ومميزاته وأصالته ولا يمكن لأحدهما أن يدخل في رحم الثاني، إذن هناك التاريخ اللاهوتي، والتاريخ الدنيوي، فاختار هو الثاني وتفرغ له وأبدع فيه.

لقد ظهرت في القرن التاسع عشر تفسيرات جديدة للتاريخ، بعضها يفسره بالمعنى المثالي، والآخر بالمعنى الطبيعي، وإنه من بين الفلاسفة الأكثر تمثيلا للمثالية في هذا الصدد حسب تقديري هو هيجل[*] Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1831-1770) الذي صرح بالقول << بأن تطور تاريخ العلم، إنما هو عملية عقلانية، إن هو إلا إستنتاج من ذلك التاريخ>>[1] مصادقا على نفس الفكرة بفكرة أخرى، وفي موضع آخر بأن<< الفكرة الوحيدة التي تجلبها الفلسفة معها إلى حلبة التأمل في التاريخ هي التصور اليسير للعقل>>[2]، أي أن التاريخ يسير وفق منطق عقلي بحت هو محركه الأساسي، وهو المتحكم في توجهاته، وكل الوسائل والممكنات الأخرى عداه فهي ثانوية كمساعدة أو مكملة فقط.

لقد تناول هيجل بالدراسة تواريخ الشعوب المختلفة، ولاحظ من خلالها مكمن الضعف فيها، ونقاط القوة التي تجمعها وتقربها، بالإضافة إلى التاريخ الأوروبي، سلط الضوء على التاريخ الصيني والهندي كنماذج من الحضارات الشرقية القديمة، وبها طرح نظريته في الجدل - النظرية الجدلية الهيجلية- التي يمكن تطبيقها على الأفراد والجماعات على حد سواء.

(*) جورج فيلهلم فريديريش هيغل فيلسوف ألماني مثالي، له الفضل في تطوير المنهج الجدلي في المثالية الألمانية، الذي بين بموجبه أن فكرة التاريخ تقوم على الجدل الحاصل بين العناصر الثلاث:الأطروحة ونقيضها والتركيب أوالتوليف بينهما.

(1) ألبان.ج. ويدجري: مرجع سابق، ص72.

(2) المرجع نفسه، ص72.

<< ويؤمن هيجل بأن الحرية البشرية تتجسد في الدولة الدستورية، ويعتبر أن التاريخ ليس مجرد تتابع حضارات مختلفة، أو إنجازات متعددة، بل هو تتابع لصور الوعي الذي يفكر به البشر في مسائل جوهرية خاصة، كالحق والباطل والمعتقدات الدينية >>(1).

أما التوجه الثاني- المادي الطبيعي- والذي ينسب في الأصل إلى صاحب المذهب الوضعي الطبيعي أوجست كونت والذي قال بالتطور والحركة الخطية التراكمية للتاريخ، فقد أخذ عنه كارل ماركس(*) Marx Karl (1820- 1895) الفكرة، مؤسسا مع صديقه إنجلز(**) Engels Friedrich (1820-1895) منهجا عن الواقع والوجود، واضعين بذلك نظرية محكمة في تفسير التاريخ العام بعنوان التصور المادي للتاريخ.

مؤكدا بأن التاريخ دائما تتحكم فيه عدة قوانين خطية لا يمكن فهمها في البداية، لكن بالرجوع إلى المنابت الأولى له نجدها تابعة لأشياء إقتصادية في نهاية الأمر، خاضعة هي الأخرى لمبدأ الحتمية التاريخية<< وينحصر المفتاح اللازم لفتح تاريخ الجماعة البشرية بأكمله في التطور التاريخي للعمل>>(2).

موضحا أن التاريخ الموجود والظاهر والواضح منذ البدء، وحتى هذه اللحظة هو تاريخ كفاح طبقات إجتماعية، فإذا كان المذهب الجدلي الهيجلي مبني على العقل وعالم الأفكار، فإن المذهب الجدلي الماركسي مبني على المادة وعالم الإقتصاد والعمل- الشغل-

إن هذه الفكرة المطروحة قد ساندها إدغار موران بشكل مطلق حينما إعتبر<< أن التقدم قد أصبح يتوقف في الوقت الراهن على الوعي الإنساني، فالتقدم المكتسب ينبغي أن يظل في تجدد مستمر ومتواصل>>(3)، فالمسألة إذن هي مسالة وعي بإمتياز.

---

(1) المثالية الألمانية: مقال إلكتروني على الموقع
Alidiplomacy1@hotmail.com بتاريخ: 2019/05/12 على بالساعة 15:20

(*) كارل ماركس: فيلسوف ألماني، مؤسس الإشتراكية والشيوعية، ومن أشهر معارضي ونقاد الرأسمالية، كما أنه عالم إقتصاد وصحفي ومؤرخ وشاعر، وعالم إجتماع كذلك، أهم كتبه شهرة " رأس المال ".

(**) فريدريك إنجلز: فيلسوف ورجل صناعة ألماني ملقب بأبو النظرية الماركسية، كما أنه كاتب وسياسي وفيلسوف أشهر كتبه بيان الحزب الشيوعي مع ماركس (1848) بالإضافة إلى كتاب الأيديولوجيا الألمانية مع ماركس كذلك (1844- 1846) .

(2) ألبان.ج. ويدجري: مرجع سابق، ص105.

(3) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، المغرب،إفريقيا الشرق، 2012، ص46.

وفي نفس السياق تحدث دلتاي[*] Delthey Welhelm (1833-1911) عن فكرة التاريخ بطريقة مختلفة عن التي تعاطاها الآخرون من قبل، وضمها إلى جناح العلوم الإنسانية، مفصلا في الأمر تفصيلا وصل إلى حد الإقرار بأن<< التاريخ ظاهرة بشرية، وأن دراسة التاريخ لا بد من ثم أن تعد علما بشريا، وهو حين يقول أن التاريخ ظاهرة بشرية فإنه يشير بذلك إلى الفرق بين ماهو جدير حقا بإسم التاريخ، وبين عملية المسار أو الحدوث المحض >>[1].

وفي الواقع فإن دلتاي لا ينفي مطلقا أن التاريخ لا يختلف فيه العنصران الطبيعي والبشري مطلقا، لا بل يرى بأنه من الأنسب أن تقوم لفظة تاريخ على مدلول الأفعال الإنسانية داخل الزمان والمكان، والتي تسير وتحرك الوجود سواء بالسلب أو بالإيجاب، أما التفاعلات الخاصة بالعوامل الطبيعية الجامدة، فهي لا تعدو أن تكون عوامل مؤثرة، ولها أهميتها وقيمتها مثلما يحدث في المعارك والحروب، أين تغير حركة الرياح أو الأمطار الغزيرة خطة جيش حربي مقدم على فتح أو غزوة، لكنها رغم هذا لا ترقى إلى مستوى المعقولية، بأن تدرج ضمن القوى الصانعة والمحركة للتاريخ، ولذلك فإننا نلاحظ على مستوى المنهج الفرق بين دراسة كل منهما: فالمنهج المتبع في دراسة البشر تابع للعلوم الإنسانية في حين يكون الثاني راجع لمناهج العلوم الطبيعية.

<< إن خلاصة نظرية دلتاي هي أن التاريخ لابد أن يدرس بطريقة وجودية، على الرغم من أننا نستخدم هنا مصطلحا لا ينتمي إلى دلتاي، ومن هنا لم يكن من قبيل الصدفة أن نجد هايدجر في إحدى مناقشاته الرئيسية للتاريخ يعترف صراحة بدينه لدلتاي>>[2].

أما المؤرخ الإنجليزي آرثر مارفيك Marvic Arther فقد صرح في كتابه المسمى طبيعة التاريخ بأن<< التبرير الأساسي للدراسة التاريخية هو أنها ضرورية، فهي تسد

(*) ولهلم دلتاي: فيلسوف وطبيب نفساني وعالم إجتماع ألماني، الممثل الرئيسي للهيجلية الجديدة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، تفرغ إلى عالم الروح والحياة في مجال العلوم الإنسانية والتاريخ.
(1) جون ماكوري: الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، الكويت عالم المعرفة رقم 58، أكتوبر1982، ص242.
(2) المرجع نفسه، ص244.

حاجة غريزة إنسانية أساسية، وتعنى بحاجة أصلية من حاجات البشر الذين يعيشون في المجتمع>>[1].

وهذا يعني أنه ينبغي على كل فيلسوف أو عالم أو مفكر أن يدرس التاريخ، ولابد على كل باحث أراد تقديم دراسة حول موضوع ما من موضوعات المعرفة البشرية المختلفة والمتشابكة أن يتعرض لمفهومه، ويأتي على ذكر أهميته وضرورته في العمل، وهذا راجع إلى أن المنطلق الأول والمنبت الأصلي للإنسان ودراسته معا واجب الذكر حتى تتوضح الصورة ويتسع الفهم.

أما توماس كوهن[*] Kwhn Samwel Thomas (1922- 1996) فقد تحدث عن المسالة فقال:<< التاريخ إذا نظرنا إليه بإعتباره شيئا آخر أكثر من الحكايات وسير أحداث الزمان في تتابع الأحقاب، يمكن أن يؤدي إلى تحول حاسم في صورة العلم التي تعيش أسيرة لها الآن>>[2].

وبالتالي فإن هذه الصورة الواصلة إلينا بهذا الشكل قد إستخرجها العامة والعلماء على حد سواء من المراجع الكلاسيكية، ومن دراسة الإنجازات العلمية بعد إكتمالها، فتوضع بعدها في الكتب الدراسية التي تتعلم منها الأجيال، وتنهل منها المعرفة.

3- قولة في التاريخ معنا وتفعيلا وإستشرافا

لقد أقر بمنطق جديد يحرك سيرورة التاريخ ويدفعها للظهور مرات ومرات،هذا المنطق سماه بمنطق التعقيد[**]، وقد صرح أنه ليس وليد الساعة معه، بل هو موجود منذ آلاف السنين وقد صرح أنه ليس وليد الساعة معه، بل هو موجود منذ آلاف السنين

(1) حسن مؤنس: التاريخ والمؤرخون: القاهرة، دار المعارف، 1984، ص32.

(*) توماس كوهن: مفكر أمريكي وفيلسوف العلم، كما أبدع في تاريخ العلوم، ألف واحدا من أشهر الكتب على الإطلاق وهو"بنية الثورات العلمية 1962"بين فيه تطور العلم عن طريق الثورات التي ستتحول فيما بعد إلى براديغم.

(2) توماس كوهن: بنية الثورات العلمية: ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة رقم 168، 1978، ص29.

(**) التعقيد هو كلمة مرادفة لمعنى التركيب، وهو عند الفلاسفة القدماء << مرادف للتأليف، وهو أن تجعل الأشياء المتعددة بحيث يطلق عليها إسم الواحد...>>جميل صليبيا: مرجع سابق، ص269.

إن الطريقة التركيبية حسب جميل صلبيا هي الإنتقال العقلي من البسيط إلى المركب أو المعقد، وبالتالي فهو يجمع الظواهر الجديدة وينسقها فيما بينها، والتركيب حسبه تركيبان مجرد ومشخص، فأما الأول فهو المنطقي أو الرياضي أو التاريخي أو الفلسفي، وأما الثاني فهو ذاك المتعلق بالمادة.

<<ويمكن لهذا المنطق أن يتعرض لفوضى وتقهقر جزئي، لكنه سيغذي الحركة الإجمالية للتاريخ البشري>>[1].

إذن إنه منطق متنوع، متناقض، متوازن ومختل، ويحمل في ثناياه كل المعادلات والثنائيات، وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى نقطة في غاية الأهمية بما كان، وهي أن منطق التعقيد هذا الذي يحكم سير التاريخ ليس واحدا، بل إنه تعقيدات متعددة ومتنوعة، وهذا لأن التعقيد يحتوي على الكثير من المخاطر والمآزق الباطنية والداخلية، وهو لم يكن يوما حاملا أو موافقا أو مترجما للمسار الخطي المستقيم مطلقا.

إن هذه المخاطر والمآزق تتمظهر في أن شدته وحدته تحتوي على إنفتاح و تعدد وتراوح وتسامح، هذه الحدود التي تميل بدورها إلى إحداث عمليات التضارب والإختلاط والفوضى والتناقض، ما جعل التعقيد نفسه يتقهقر، ليحدث بذلك أن الهشاشة التي يتعرض لها مساره تجعله أقل إستقامة وإنتظاما حسب.

إن الدواء الوحيد لهذه الهشاشة هو أن يعيش الإنسان في جماعات متوائمة ومتعايشة بالحب والتضامن، والألفة والتعاون، وبها تحضر أسمى معاني الروح والوعي وأكثرها حسا وشاعرية وتوافق<< وذلك أيضا تكون أجمل لحظات التاريخ إنتشاءات عابرة ومؤقتة، والفرصة الوحيدة لإدامة التعقيد المستديم، وهذا مالا يمكن ضمانه مطلقا >>[2].

إن للتعقيدات سيرورات كثيرة مختلفة المظاهر والملامح، ليس لها نظام أو قانون عام يحكمها، هو يتأثر فقط بمفرزات كل حاضر وعصر، لكنك لا تستطيع أن تتوقع النتيجة التي سيكون عليها في المرة القادمة، فلم يكن أحد يتخيل أن إمبراطورية قوية ومرعبة مثل روما إضمحلت وإندثرت ولم يعد لها وجود.

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، المصدر السابق، ص259.
(2) المصدر نفسه، ص261.

إن للتاريخ لعبة مزدوجة، يخرج بها للبشرية في كل مرة، هذه الإزدواجية تتمثل في ثنائية التقدم والتقهقر التي تحكمه، وهي الأخرى بدورها تقبع في رحم المعادلة الكونية الأم المبنية على النظام(*) والفوضى(**) والإنتظام(***).

سنجد أن التاريخ ليس عقلانيا فقط، وليس شرا محضا فقط كذلك، لأن من يحرك أحداثه كائن عاقل ومجنون في ذات الوقت، كما أنه مسرف وإقتصادي، منتظم وفوضوي، إلى غيرها من الأسيات، سنصل في الأخير إلى أن<<التاريخ عبارة عن مغامرة مدهشة وقاتمة ودنيئة ورائعة، ولا يمكن لنا أن نتكهن إلى أين ستقودنا، ربما تكون نهاية التاريخ بعودة مساره رجعيا إلى بداياته الأولى، بمثابة عبرة لنا >>(1).

لنصل إلى أن التاريخ الحاضر يواجه أزمات ومشكلات جديدة وجمة، فهناك تسارع في التغيرات والمعطيات التي يحيط بها، وتحيط به، من شأنه أن يبقى عالقا حائرا في تفسيرها وفهمها ومسايرتها.

وبالعودة إلى أثر الفرد في تكوين التاريخ، أجد أنه يجب التأكيد على نقطة في غاية الأهمية وهي أن الفرد الصانع للتاريخ، ينبغي أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط اللازمة حتى يحوز على هذا التوصيف منها:<< أهمية وعي الإنسان وإختياره وطبيعة قراره >>(2)، ذلك أن التمييز والفروقات الموجودة بين الأفراد - أفراد النوع البشري- هو ما سوف يخلق فيمابعد ما سوف يكثف الإستهلاك والمشاهدة، ومن سوف يكون فاعلا مضيفا، ومعطاء مغيرا بتمييزه بين كل الإمكانات المتوفرة لديه بالمقارنة ببيئته الطبيعية والإجتماعية، بكل عواملها وعناصرها المختلفة.

(*) النظام: حالة مظبوطة وممنهجة- نسق- للأشياء تكون عليها وتتفاعل بصورة مرتبة ومتوازنة ومتوقعة، لها صورة مسبقة بالماضي ويمكن التكهن بحالتها مستقبلا.

(**) الفوضى: هي حالة الغليان العشوائي وغير الممنهج للأشياء وتواجدها في الطبيعة، وهي كيفية مبهمة من الصعب معرفة طبيعتها النهائية حاضرا ومستقبلا.

(***) الإنتظام: إن هذه الكلمة المشتقة من أصل النظام تفيد تدخل قوة خارجية فرضت عليها الحالة التي هي عليها كأن يكون البيت مثلا في حالة فوضى ثم تتدخل ربة البيت في تنظيمه، فيمسي منتظما بفعل قوة متدخلة.

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية ؟، مصدر سابق، ص263.

(2) كريستين نصار: الإنسان والتاريخ، لبنان، طرابلس، ط1، 1991، ص 139.

إن التاريخ البشري عامة والتاريخ الغربي خاصة محكوم حسب بمنظومة مغلقة وشمولية وعذرية وخالدة، تسمى بمنظومة التبسيط(*) و الإختزال ذلك أنها تحاول في كل مرة توجيه الذهنيات الإنسانية المختلفة بطريقة يقينية منتظمة وثابتة ودقيقة، مختزلة بذلك كل تنوع وإختلاف، وصراع بين الثنائيات أو الأضداد مثلما يقول هيراقليطس(**) Heraclitus of Ephesus (540 ق م- 480 ق م).

ففي محاولته لنقد العقل الأعمى(***) ودحض منظومة التبسيط التي حكمت سيرورة التاريخ ووجهت المنطق والرؤى وفق تقديرها وهواها، ذهب إلى الإقرار بأن الإبستيمولوجيا القديمة حجبت تعقد العالم<< وذلك أن العالم هنا والآن، وبعد الإكتشافات الأساسية لفيزياء الكاوانطا، وفيزياء الأنظمة المختلفة والفلسفات والإبستيمولوجيات، والعلوم النسقية عموما

أصبح يتطلب أدوات وأطر وفلسفات وعلوما جديدة لفهمه، وهي الغائبة كليا عن الإستيمولوجيا التقليدية>>(1).

وبالتالي أخذ موران على عاتقه مهمة نقد هذا العمى المعرفي وإزاحته من التاريخ، حتى يتحصل المعنى، وتتوضح الصورة بصفة أكبر، ويضمحل التشويه الممارس على الحقائق منذ البدء، فلكي نفهم عطب الحاضر وضبابية ملامحه، ينبغي أن نعود بأعقابنا إلى الماضي حتى نكتشف مكمن الداء لا بالإستأصال، بل بالطرح الحواري المستقبل في

(*) التبسيط: << نزعة ترمي إلى رؤية الأشياء أكثر بساطة مما هي عليه في الواقع، وكثيرا ما تؤدي إلى التعميم، أو إلى أحكام خاطئة، وفيها شيء من الإستعداد الفطري لدى من تغلب لديهم هذه النزعة >>.
أنظر إلى إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983، ص37.

(**) هيراقليطس: فيلسوف وكاتب يوناني، صاحب مبدأ الصيرورة والتغيير، وفكرة أن النار هي أصل الكون ونشأته، وفكرة صراع الأضداد، التي تأثر بها إدغار موران كثيرا، وكتب حول تأثيره أفكاره البالغة عليه في مؤلفه الذي يلخص سيرة حياته بعنوان فلاسفة حياتي أو Mes philosophes a moi، الذي جعل موضوع التغيير والجدل وتصادم الأفكار المتضادة هي المنبت الأول لمنطق التعقيد أو الإبستيمولوجيا المركبة، وهي فكرته المحورية التي دافع عنها في كل مؤلفاته.

(***) العقل الأعمى: هي فكرة توصيفية جاء بها إدغار موران مريدا منها الإفهام بأن العقل العلمي والفلسفي منذ اللحظة الديكارتية إلى يومنا هذا يعيش حالة عمى عن الحقائق الغنية والزخمة التي نتفاعل معها يوميا، لأنه ينظر بمنظار أحادي تبسيطي إختزالي واضح، يلغي أية علاقة له مع العوامل الأخرى ومن ثم بتره، وجعله يعيش حالة إنزواء وحياء ضد التفاصيل الأصلية المرتبطة معه وفيه، وبالتالي فالعقل الأعمى هو عقل لا يمكن إبصار التنوع والثراء والكثافة الحقيقية من العلاقات المتفاعلة.

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوبي،الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط 1، 2004، ص06.

وجوده للآخر جنبا إلى جنب<< إذن فالتاريخ أمام عيوننا له أهمية قصوى ليس فحسب لأنه يدخلنا في تاريخية منفردة مثل تاريخ فرنسا، أي تلك التي تساهم في تشكيل التكوين المدني، ولكن يجب أن يسجل وجودنا ضمن تاريخ القارة الأوروبية، بل وأيضا داخل تاريخ الدنيا، وذلك ليثير فينا وينبهنا إلى ضرورة الترابط مع الضمير الأوروبي، والضمير الأرضي، مميز كوكب الأرض التي نعيش فيها >>(1).

إذن نصل كخلاصة إلى أن جملة المقاربات التي تعرضنا لها في هذا العنصر تترجم بوضوح رؤية إدغار موران لمسألة التاريخ من حيث جماع أحداث ساهمت بشكل قوي جدا في بناء ونماء ذهنيته وتأثيرها الشديد على كيفية تفكيره وتعاطيه للموضوعات من ناحية التحليل والمعالجة والتركيب والفهم، أي أن كشفه عن مجموعة الأحداث التي دارت في كل حقبة من حقب التاريخ الإنساني، والعوامل التي حركتها وأدت إلى ظهورها وتفاعلها وإنتشارها، تجعل الفيلسوف يعي جيدا عمق المسألة، وقادر على تفسير الأعراض المبهمة الغامضة لها، وبالتالي فإنه من الأهمية البالغة أن يكون المنطلق بادئ ذي بدء بهذا الشأن - التاريخ- حتى تتجلى الإنطلاقة وتفهم.

ثانيا: الوجهة السياسية ومرماها

بعد تعرضنا للمنطلق التاريخي ورأينا كيفية تأثيره العميق على حياة الفيلسوف، نجعل الرحلة الآن تتجه صوب المنحى السياسي وإنشغالاته، لإعتقادي الخاص أن للسياسة فعالية قصوى في توجيه مسار أي فكر وأنها هي القادرة على إحداث التوازن والسلام والهدوء، من الإضطراب والقلق وحالة الخوف، كل هذا سوف يغير الوضع السياسي والحالة السياسية التي تعايشها الإنسانية عامة والمفكر بخاصة.

فإلى أي مدى يمكن وزن ثقل المنحى والوجهة السياسية في إرساء معالم نظرية التعقيد لدى إدغار موران؟ أيعقل أن يكون الفعل السياسي أحد المقامات الهامة المؤسسة للمخططات الفكرية البشرية؟ وبتعبير أكثر دقة هل يتأتى لنا الحديث عن خطاب سياسي مدغم ضمن الفكر التعقيدي؟.

(1) إدغار موران: تحديات القرن الحادي والعشرين- تواصل المعارف العلمية-، ترجمة وتعليق: حسين شريف، مصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب،2001، ص904.

1- المنطلق السياسي وعلائقياته بالدولة وتشعباتها

<< إن هدف سياسة الحضارة هو جودة الحياة التي مظهرها هو العيش السعيد، وليس العيش الرغيد الذي عندما يختزل في شروطه المادية ينتج القلق>>(1).

يعد المنطلق السياسي أحد الأعمدة الأساسية في فكر إدغار موران، وذلك راجع إلى أن نظريته المحورية التي يشتغل عليها-نظرية التعقيد- قد إمتصت بشكل معتبر وكاف الكثير من الأحداث السياسية المساهمة بشكل مباشر وفعال في إنبجاس معظم الأحداث التي عايشها طيلة حياته، فهو الفيلسوف الذي عاصر الحرب العالمية الثانية(*)، والحرب الباردة(**)، وجل التيارات السياسية المتضادة، والتوترات العالمية على الصعيد السياسي الدولي، كل هذا وأكثر قد أدى إلى نشوء ذهنية كثيفة وغنية ومتعددة الملامح والتوجهات، فالسياسة إذن فعلت فعلها في توجيه مساره الفكري المعرفي.

والسياسة في الفرنسية Politique، وفي الإنجليزية Politics، وفي اليونانية Politiké، وهي من<< مصدر ساس، وهي تنظيم أمور الدولة وتدبير شؤونها، وقد تكون شرعية أو مدنية، فإذا كانت شرعية كانت أحكامها مستمدة من الدين، وإذا كانت مدنية كانت قسما من الحكمة العملية، وهي الحكمة السياسية أو علم السياسة>>(2).

(1) إدغار موران: نحو سياسة حضارية: ترجمة أحمد العلمي، بيروت، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص65.

(*) الحرب العالمية الثانية: (1939- 1945) هي حرب دولية، شارك فيها أزيد من مئة مليون شخص، من ثلاثين بلدا وأكثر، صراعها كان بين طرفين هما قوات الحلفاء ودول المحور، راح ضحيتها من 50 إلى 85 مليون شخص.

(**) الحرب الباردة: مصطلح يفيد حالة التوتر والتنافس التي كانت بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي في الفترة الممتدة مابين 1945 إلى غاية 1990.

(2) جميل صليبا: مرجع سابق، ص679.

وفي هذا المنحى نجد الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل[*] Arthur Bartrand Rassell William (1872- 1970) قد شدد على ضرورة ممارسة الشك في كل الميادين، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالسياسة، آخذا هذا المنهج من مؤسس الشك في العالم القديم بيرو[**] Pyrrho (365 ق م- 275 ق م) الإغريقي، بيد أن مكمن الإختلاف بينهما نلمسه في أن راسل أكثر إيجابية من بيرو السلبي.

إذن فالسياسة عمل يتطلب الكثير من الحيطة والشك، حتى تقام ركائزه وتمفصلاته على أحسن حال.

وحدث أن ألقى راسل محاضرة في لندن حول الإقتصاد والعلوم السياسية، ومن خلالها قسم النشاط السياسي إلى قسمين:

<< النشاط الذي يمارسه رجال السياسة، والنشاط الذي يمارسه الخبراء، ويستهوي النشاط الأول بطبيعة الحال عامة الناس، ويعتمد في أثره على تفجير ينابيع الحقد في نفوسهم، ونجاح كل حركة سياسية ينهض على المخاطبة العزيزية للحقد والشحناء، ولا يعتمد مطلقا على الحاجة للتعاون>>[1].

وبالتالي فراسل يدعو إلى ضرورة ممارسة الشك العقلي إيزاء الساسة أصحاب القرار وصناعه، فهم يحاولون جاهدين حقن شعوبهم بجرعات التفرقة والكره حتى لا يتقبلوا، أي رأي أو طرح أو ممارسة غير تلك التي أملوها عليهم وأقنعوهم بنجاعتها، ليصل إلى نقطة جد مهمة مفادها أن التعليم الصحيح والجيد هو السبيل الوحيد للخروج من ورطة السياسين، والتحرر من حقل الوهم والتخدير والإستغباء، الذي يقعدون له ويمارسونه لفترة طويلة في التاريخ، لكن في ذات الوقت هذا الحل لن يكون مقبولا ولا محتملا إلا إذا كان الساسة الحكام نزهاء وشرفاء ويسمحون له بالميلاد والنمو.

وفي تزكيته لأفكار جون لوك[***] Locke John (1632-1704) وآرائه السياسية، يذهب راسل إلى أن الرجل كان ينبغي<< أن يعامل كمؤسس للبرالية الفلسفية بقدر ماهو

(*) برتراند راسل: هو فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد إجتماعي بريطاني، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1950، من بين أعماله حكمة الغرب (1959)، الدين والعلم (1935).

(**) بيرو: فيلسوف يوناني قديم، يعتبر مؤسس الشك كمذهب قائم بذاته، أثر في مجموعة من الفلاسفة منهم دفيد هيوم.

(1) رمسيس عوض: برتراند راسل المفكر السياسي، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر، 1966، ص 215.

(***) جون لوك: فيلسوف ومفكر سياسي تجريبي إنجليزي، كما أنه طبيب وكاتب، إهتم بنظرية المعرفة ومجال التعليم، تأثر بمجموعة من الفلاسفة مثل ديكارت وهوبز، أثر كتابه "رسالتان في الحكم" على الثورة الأمريكية كثيرا.

مؤسس للتجريبية في نظرية المعرفة>>[1] وهذا لثقل وزنها في المعنى والممارسة، وللتنويه فإن نظريات جون لوك في السياسة قد أخذ بها مونتسكيو[*] Montesquiew (1689- 1755) وعدلها بما يتناسب وطبيعة المجتمع الأمريكي، فأضحت بذلك جزء لا يتجزأ من الدستور الأمريكي.

وبالعودة إلى إدغار موران نجد السياسة عنده تمثل الفن الذي يتجاوز تحكم الجهاز، أي أنها هي من يعطي الدولة هويتها، كما أنها ميدان لصنع القرار ورفع الخيار، إنها إستراتيجية عمل داخل الدولة وخارجها، ومن مزاياها تطلبها لحضور الحنكة والدهاء والإطلاع والدراية والثقة والشجاعة، وهي بهذا تؤسس لسلطة ذات عالمين، عالم مليء بالنظام والأريحية واللطف، وعالم ثان تملؤه الفوضى والعبث في أكثر تجليات الجنون البشري على الإطلاق.

وفي حديثه عن الدولة[**] يقر بأن إنبثاقها تاريخيا يعد الحدث الرئيسي والأبرز لدى المجتمعات التاريخية، فقد ظهرت منذ التاريخ القديم حضارات كثيرة على غرار البابلية والآشورية والهندية والفرعونية وغيرها الكثير، فكانت تتوشح الطابع الإمبراطوري الذي يكون الحكم وصنع القرار فيه للحاكم وحده، وهذا الأخير الذي غالبا ما يكون جالسا على عرش السلطة بإسم الحاكم الإله أو الملك الإله.

ثم إن المجتمعات التاريخية خبرت بعد كل هذه التجارب السياسية حكما أفضل وألطف وأعدل في بلاد اليونان، وبالضبط في أثينا، حيث تجسدت أسمى ملامح ومبادئ الديمقراطية، وأعطيت للشعب المواطن الكلمة، ليقول موقفه وقراره في وضعه ومن يحكمه على السواء، بيد أن هذا الظرف المنفتح لم يدم طويلا، فسرعان ما طمس وإستبدل.

---

(1) رمسيس عوض: المرجع السابق، ص171.

(*) مونتسكيو: رجل موسوعي الطابع، فهو شاعر وكاتب وفيلسوف ومؤرخ وسياسي وعالم إجتماع فرنسي، ساهم في موسوعة الإنسكلوبيديا الفرنسية، أهم أعماله البارزة: كتاب روح القوانين، عام 1748، المكون من واحد وثلاثون جزءا، وهو من أبرز المراجع في العلوم السياسية.

(**) الدولة: لقد تعددت معاني هذا المصطلح وتباينت من وجهة لأخرى ومن فقه لآخر، كل يراها ويعرفها بحسب موقعه، لكن أهم مافي الموضوع أن مدلولها قد إتخذ منحى مختلف عن الذي كان عليه في السابق والذي يعبر عن الجغرافيا التي تحتضن البشر والمؤسسة في زمن معين، ودخولها حقولا جديدة كعلم الإجتماع وعلم النفس، فأضحت الدولة تعبر عن سلطة الأسرة، وسلطة المرأة...إلخ.

وللعودة إلى نقطة المنطلق في ظهور الدولة كحدث جديد وإستثنائي نقول أن هناك تحولات جرت، فظهرت الأمم الحديثة<< ومنذ بداية التاريخ لا يمكن فصل المصير الإجتماعي عن مصير الدولة، إن مفارقة الدولة كما سنرى هو أنها غالبا ما تكون همجية ومتمسكة بالحضارة ومحررة ومستعبدة في آن واحد>>(1) .

وللإشارة فإن موران يتفق تماما مع توماس هوبز(*) Tomas Hobbes(1588-1679) في قولته<< الدولة هي ذلك الواقع الذي أنشأه وأبقاه العنف المميت >>(2) وهو طرح داعم لما شرحناه سابقا من أنها يمكن أن تكون محررة ومستعبدة في الآن نفسه.

ثم أنه أكد على ضرورة ضبط مفهوم الجهاز بادئ ذي بدء قبل ضبط مفهوم الدولة، حيث ذهب إلى إلصاق مفهوم الجهاز بالطابع المادي له، فهو الآلة المسيطرة والمالكة للمعلومة، وهو المدير والمقرر، ومؤسس الكتاب والتعليمات والأرشيف، وكذا هو المستشرف للمستقبل ومقترح البرامج.

<< وتصدر الدولة مدوناتها وقوانينها ومراسيمها، وتدخل القوانين والمراسيم في التراث الثقافي، وتصبح منتجة، وتنتج الدولة توالدية تنظيمية وتحافظ عليها >> (3).

إن الدولة تنشئ النظام وتحتكر القوة والسلطة بإمتلاكها لجهازي الشرطة والجيش اللذان يسعيان لخدمة قراراتها وتنفيذ أوامرها بتمظهرات شتى كالسجن والتعذيب والمراقبة والقتل...إلخ.

كما أن الدعم الديني، يضفي عليها الطابع المقدس أو القداسة، ويزيد من شرعيتها ونفوذها، فهناك نماذج كما أسلفنا الذكر لحكام وملوك حكموا بتفويض من الإله، أو أنهم هم أنفسهم آلهة بشر على شعوبهم، الأمر الذي يزيد من هيبتهم ورفعتهم عند محكوميهم، وعليه فقد نشأت منذ البداية لغرض التحكم والإستعباد.

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، مصدر سابق ، ص209.
(*) توماس هوبز: هو فيلسوف وسياسي ومؤرخ وعالم وعالم اقتصاد إنجليزي، والمؤسس الفعلي لنظرية العقد الإجتماعي، ألف مجموعة من الكتب أبرزها التنين عام 1651، كأساس للفلسفة السياسية الغربية.
(2) إدغار موران: النهج إنسانية الإنسانية، مصدر سابق، ص207.
(3) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية ؟، مصدر سابق، ص210.

ولأن الدولة وليدة الحروب والهيمنة، فهي سوف تبقى تطالب بالمزيد من القوة والبطش والتوسع، وزيادة الغنى والثراء،<< ويدفعها الذهان الهذياني لغزو الدول المجاورة في الوقت نفسه إلى حروب مستمرة، ومن هنا تأتي سمة النهب والقتال الذي تتسم بها الدول من العصر القديم والأزمنة الحديثة ومن ضمنها القرن العشرون>>(1).

يرتبط نمو الدول - الأمم الكبيرة- يرافق موران دائما مصطلح دولة بأمة بنمو المدن والرأسمالية والتقنية والصناعة- ويقصد بالمدن أوروبا الغربية- فالرأسمالية نمت وإزدهرت بسبب حماية الدولة- الأمة- لها، ثم تحررت منها بعد ذلك حينما كبرت

وتضخمت وسيطرت وتحكمت، << والدول الأمم - آخذة في التعقيد دون إنقطاع- وتحافظ المجتمعات على وحدتها وهويتها في مد مضطرب من التطور/التحولات، التي أصبحت مستدامة، ومن المفارقة أن يصبح النمو فيها عامل استقرار، فهو يحافظ على قوانين نظام لم يعد قادرا على أن يكون ساكنا >>(1).

وفيما بعد فقد تمكنت الدول الأمم من معانقة وتوطين الديمقراطية(*) التي تشكل نظاما معقدا يحيا بالتعددية والمنافسة والتحدي والسباق، الديمقراطية تنتج المواطنون الذين سينتجونها فيما بعد، إنها تتكئ على مبدأ الإتفاق والتفاهم والتحاور بينهم - المواطنين- وهي مهددة دائما بخطر الدكتاتورية(**)، خاصة الديمقراطية المعاصرة التي تعيش أزمة

(1) المصدر نفسه، ص230.

(*) الديمقراطية: لفظ معرب يفيد التدخل الواضح والصريح للشعب في الحكم عن طريق ترشيح بعض من أفراده، وإختيار الأفضل والأمثل لحكمه، وهي النظام الأكثر شهرة في العالم من بين أنظمة الحكم الكثيرة والمختلفة، والديقراطية في الحقيقة ديمقراطيات عدة، فهناك ديمقراطية مباشرة، وديمقراطية نيابية، وديمقراطية إجتماعية، وديمقراطية سياسية ...إلخ ثم إن هذا المصطلح أخذ معاني كثيرة لم تكن له من قبل، كالحديث مثلا عن عائلة ديمقراطية، وربة أسرة ديمقراطية، ومدير ثانوية ديمقراطي...إلخ

(**) الدكتاتورية: باللاتينة Dictatura، وهي صفة للحكم المطلق القابض من حديد، حيث يعتمد حكامه على سياسة الإملاء والأمر، وعلى الرعية الطاعة والتنفيذ دون أن يكون لها الحق في الإعتراض ومن أمثلتها النازية الألمانية والفاشية السوفياتية.

بحق، بسبب البيروقراطية(*)، والهيمنة التقنية، الأمر الذي يحد من الممارسة السياسية للمواطن.

نلاحظ أن المجتمعات التاريخية المعاصرة تميل إلى تحرير وإستعباد الفرد في الآن معا، فالدولة - الأمة- والسوق يجعلانه يترنح بين هذا وذاك، وهو الأمر الذي يطرح صعوبة خلق تواشج خصب بين شرعية الدولة الحامية وحرية النسيج - الأفراد- الذي يفلت منها.

2 /الوازع الديمقراطي وأفق السياسة الحضارية

لقد سمحت الديمقراطية ببناء علاقة وطيدة بين ثنائية الفرد والمجتمع(**) كحلقة متينة وضرورية لبناء الدولة، ومن ثم تكون- الحلقة- قادرة على الإنفتاح والتعاون بين عناصرها، ومن تنظيمها ومراقبتها.

إن الديمقراطية تقوم على مراقبة جهاز السلطة، وهو الأمر الذي يقلل من فعل الإستعباد، أي إستعباد أصحاب السلطة والنفوذ للشعب أو الرعية، الأمر الذي يجعل منها تأخذ معنا أبعد من كونها نظاما سياسيا، فهي منتجة للمواطنين الذين سينتجونها فيما بعد، وفيها يكون الفرد مواطنا وذاتا مستقلة، يفعل بكل حرية ما يشاء، ومسؤول عن أفعاله ومدينته أيضا فيحقق بذلك ثنائية الحرية و المسؤولية في أسمى وأبلغ صورة لها.

هناك علاقة وطيدة بين الديمقراطية والبعد المركب، حيث أنها تحتاج إلى أغلب المواطنين المتوافقين حولها، ومن جهة أخرى تحتاج إلى التعددية وأشكال الصراعات الكثيفة، فهي بإحتضانها لهذين الأمرين معا تكون محققة لرغبة معتنقيها من جهة،

(*) البيروقراطية: أصل الكلمة ألمانية يعود إلى بيرو وتعني المكتب وأستخدمت قبلا للدلالة على أماكن العمل أما قراطية أو كراتوس فأصلها إغريقي ومعناها سلطة، لتصبح دلالة هذا اللفظ المركب سلطة المكتب أو سلطة مكان العمل.

(**) ثنائية الفرد والمجتمع: لقد حرص إدغار موران على ضرورة تفعيل دور كل من الفرد والمجتمع لأجل خلق حلقة متصلة وزاخرة بالحياة والإيجابية، باعتبار العالم المعاصر، أضحى يعيش بفعل الحداثة والعولمة، تمظهرات جديدة وخطيرة على الساحة السياسية والإجتماعية أثرت كل التأثير على الفرد والمجتمع على السواء، فزادت من حدة النزعة الفردانية أو الفردية، في قبال شددت من لهجة المجتمع، وصعدت من موقفه، حتى بات كل واحد من هذه الثنائية لا يصغي للآخر، ولا يستجيب لمطالبه وطموحاته، ولذلك وجه موران نداءه لإعادة بعث الفاعلية والموائمة بين كلا الطرفين بغية بناء دولة قوية السياسة والوجود.

ورحيمة بأشكال الإختلاف والتمايز التي تعتاش داخلها، فتختلف بذلك عن أنظمة الإستبداد والكليانية التي لا تعترف بأنماط التلون والإعتراض داخلها.

كما أنها بحاجة إلى صراع ونزاع بين الآراء والأفكار، لأنه بموجب هذا الفعل تضفي الحيوية والإنتاجية عليها<< لكن حيوية وإنتاجية هذه الصراعات، لا يمكن أن تنمو إلا بالخضوع لقواعد اللعبة الديمقراطية التي تنظم التناقضات وتعوض المعارك المادية بمعارك بين الأفكار، فتحدد بواسطة الجدالات والإنتخابات من سينتصر مؤقتا من بين تلك الأفكار المتصارعة، وفي المقابل من الذي يمتلك مسؤولية العمل على تطبيق تلك الأفكار>>[1].

ومن هذا المنطلق الذي يبرز جمعها بين التعارض والإحتواء يتجلى طيف التركيب الذي يجمع بين كل من التنظيم السياسي والحضارة السياسية، محققا بذلك

النموذج الأمثل الحرية ⟷ المساواة ⟷ الإيخاء(*) لتكون بذلك نسقا سياسيا مركبا.

ثم إن للديمقراطية خاصية حوارية، أي أنه يوجد حوار دائم بين الثنائيات والأطراف المتصارعة داخلها معبرا عنها بهذه الرمزية:

التوافق/التصارع، الحرية ⟷ المساواة ⟷ الإيخاء، الجماعة(**).

هذا الحوار يكون رهينا بشروط خاضعة لعملية الممارسة الديمقراطية نفسها، أي لأشكال وتوصيفات المستوى التطبيقي للديمقراطية.

إن الديمقراطيات التي إنوجدت وتوجد حاليا،هي ديمقراطيات غير تامة، وتحتوى عيوبا ونواقص كثيرة، ويمكن التدليل على هذا النقص بمثال الأسلحة النووية، والتقنيات الحربية المتطورة جدا التي تملكها الدول، حيث أنهم عندما يقررون إستخدامها وتوظيفها لا يشاورون مطلقا شعوبهم في هكذا قرارات، بل يكتفون فقط بإتخاذها وتنفيذها لوحدهم،

(1) إدغار موران: تربية المستقبل- المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل- ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 2002، ص102.

(*) رسم إدغار موران معادلة مكونة من هده الثلاثية، كنموذج متلائم ومركب يسمح بفهم المنطلقات الضرورية والهامة المؤدية لنتائج الإنفتاح والتسامح الديمقراطيين.

(**) إن الحوار مبدأ أساسي وحتمي تقوم بموجبه الديمقراطية وتكون هناك مجموعة من العناصر التي فقدت مع الزمن علاقاتها بين بعضها البعض والعودة بالحوار إليها سيجعلها أكثر متانة وقوة ومعنى، فالمساواة التي نادت بها الديمقراطية لا يمكن أن تتجسد إلا ضمن الحوار القائم بين صراع حرية الجماعة وتوافقها.

وهو فرق فاضح لشروط ومبادئ الديمقراطية، وذلك<< تحت إدعاء أنها قرارات جد معقدة ويجب أن يتخذها الخبراء>>[1].

إن الديمقراطية تعاني الآن، وسوف تعاني مستقبلا أكثر فأكثر، وهذا بسبب تطور وتضخم الآلة الكبرى[*]، المتكونة من العناصر الثلاث وهي العلم والتقنية والبيروقراطية، حيث أن هذه الآلة صنعت معرفة واضحة ومفيدة، وفي نفس الوقت كانت هذه المعرفة الواضحة والمفيدة حبلى بالخطأ والوهم والعمى، وذلك لأنها إتجهت صوب المنطق التجزيئي والتذريري الحريص على فصل كل جزء من المعرفة على حدى ومعالجته بمعزل عن علاقته بالكل أو بالمجموع، وهو الأمر الخطير الذي سوف يخرج معرفة مبتورة وناقصة ومعزولة، وبالتالي بعيدة كل البعد عن حدود الصواب.

وفي هذا السياق نجد أن هذه المعارف التي تصنعها التقنية التي تكون بالأساس ملكا وحكرا في يد رئيس الدولة أو حاكمها، نلحظ تراجع رهيب في الكفاءة الديمقراطية من حيث أن السياسة وقوتها أضحت عبارة عن تقنية.

إن الهوة تتسع وتتعاظم في كل مرة بين المواطنين المحكومين وبين النزعة التقنوعلمية النخبوية، أي تلك التي تتحكم فيها النخبة الصانعة للقرار، دون أي مقدرة للشعب على التدخل فيه، وهو ما يجعل المواطنين مقصيين في المجال السياسي المحتكر من طرف الخبراء المهيمنين الذين يظهرون كطبقة جديدة متسببة في إحداث الصدع الخطير في دمقرطة المعرفة.

<<وإجمالا يمكن القول أن إختزال ماهو سياسي في ما هو تقني وإقتصادي، وكذا إختزال ما هو إقتصادي في مسألة النمو، ثم فقدان المعايير والآفاق، كلها شروط تؤدي إلى إضعاف المدنية>>[2].

---

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص104.

(*)الآلة الكبرى مصطلح أطلقه إدغار موران على مجموعة من العناصر، الذي يشكل إتحادها مجتمعة تهديدا كبيرا لمستقبل البشرية، وهي العلم والتقنية والبيروقراطية، فاللحظة المعاصرة أبانت عن عطب حقيقي تعانيه المجتمعات بسبب سيطرة هذه الآلة الكبرى، الأمر الذي أدى إلى سلب الروح الحقيقية من الحياة، والدفئ والأمان من الواقع المعيش فأضحت المعاملات والتواصلات والتطبيقات جامدة متحجرة شبيهة بالآلة التي تخضع لمنطق الأمر والإستجابة، أو الفعل وردة الفعل لميكانيكية الخالية من العاطفة.

(2) إدغار موران: تربية المستقبل، المصدر السابق، ص105.

وهو الأمر الذي يجعل الحياة الديمقراطية عرضة للتلف، ويستدعي على جناح السرعة تدخل المجال الأنثروبو أخلاقي(*) لمعالجة الأزمة .

لقد ناضل إدغار موران لأجل إحقاق العدل والسعادة والرضى فجمع كل ما من شأنه أن يعين على ذلك في طابع تركيبي معقد يؤمن بتلاقح المختلفات وتصارعها.

فتحدث عن موضوع هام وبحلة جديدة، هو موضوع السياسة الحضارية(**)، أو سياسة الحضارة في السياسة نفسها، وسياسة الحضارة هي فعل يسهم فيه الجميع دون استثناء، فهي ليست حكرا على الحاكم والنخبة، بل على جميع المواطنين الإنخراط في تفعيلها.

<< تنطلق سياسة الحضارة من التحديات والتهديدات، لكنها تنطلق أيضا من الحاجيات التي تظهر أمام هذه التحديات وهذه التهديدات>> (1).

ثم دعا إلى ضرورة إلتفات وكالة الأمم المتحدة (***) إلى الشعوب الفقيرة والمحرومة والمريضة والبائسة برفع الظلم والجور الطاغوت عنها، وليس فقط إطعامها وإلباسها وإيوائها، فالضغط الكبير الذي تعانيه هذه البشرية الفقيرة هو ضغط سياسي، واضطهاد حكامي يمارسه عليها رؤساؤها، وبهذا تفقد إحترامها وإعتبارها وإحساسها بالمساواة مع نظيرتها المتمتعة بكل الخيرات، ويقصد بها الغربيون أو مواطنوا العالم الغربي بالعموم.

وعليه فإن سياسة الإنسانية ستكون سياسة لصنع وتكوين وتطوير الخيرات الكوكبية أي المصنوعة والمتواجدة على كوكب الأرض ، والتي تكون دائما مشتركة بين بني

(*) الأنثروبو- أخلاقي: مصطلح مركب من كلمتين هما الأنثروبولوجيا، والأخلاق، ويعرف الأول بأنه علم الأناسة، أو العلم المختص في دراسة الإنسان إثنيا وعقائديا وإجتماعيا وعرقيا وتراثيا، وآثاره المختلفة عبر المكان والزمان، وأما الثاني فهو العلم المختص بدراسة أفعال وممارسات الإنسان في الواقع مع نفسه ومع الآخر ومع العالم الخارجي، و بهذا المنظور تشير الأنثروبو أخلاقية، إلى رؤية فلسفية وجودية عملية يستعملها موران كثيرا في كتاباته ليدلل على ضرورة الإلتفاف إلى الزاوية الجامعة بين شق حقيقة الإنسان الممارستية من حيث حسن السلوك وتهذيبه، والعيش الطبيعي المختلف والمتميز له في الثقافات المتمايزة ليكون الجمع بين ماهو إيجابي وبناء مع العيش المشترك الخاص والمختلف.

(**) مصطلح نحته إدغار موران مريدا من ورائه تأسيس حضارة إنسانية كوكبية تسيرها سياسة فعالة وصالحة وعادلة، تسهم في بناء العالم وإعطاءه أبعادا ومعنا، كما أن هذه الحضارة الراقية التي يطمع إليها، هي الأخرى لا تكون إلا بتطبيق السياسة الراقية المتحدث عنها التي توجدها الآن فتوجدها الأخرى فيما بعد، فالأولى إذن شرط لوجود الثانية التي ستكون شرطا للأولى بعد حين.

(1) إدغار موران: نحو سياسة حضارية، مصدر سابق، ص67.

(***)United Nation: تأسست عام 1945، ومقرها نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، شكلتها مجموعة من الدول الأوروبية والغربية، تضم في عضويتها جميع الدول المستقلة، تهدف للحفاظ على الأمن والسلام وحقوق الإنسان وتدعم العدالة والتنمية، وتعزز المساعدات الإنسانية.

جنسها على إختلافهم، ومن ثم المحافظة عليها من الزوال نظرا لمحدوديتها ونفاذها على غرار آبار الماء والنفط.

<< ستكون مهمة السياسة الحضارية أن تطور أفضل مافي الحضارة الغربية، وتطرح عنها أسوء مافيها، وأن تحدث تكاملا بين الحضارات بأخذها في الحسبان المساهمات الأساسية من الشرق ومن الجنوب>>(1).

بدءا بالعالم الغربي نفسه الذي يعاني من هيمنة التقنية و الحساب والربح على جميع الأصعدة الماسة للحياة الإنسانية، ولذا على سياسة الإنسان وسياسة الحضارة الإتفاق في نقاط المنطلق والوصول حول جميع المشكلات الحيوية لكوكب الأرض.

ولكي يكون بمقدور المجتمع العالمي حل مشكلاته الأساسية، ومنه مواجهة جل المخاطر والتهديدات العظمى، كان لزاما عليه توفير سياستان إثنتان هما سياسة للإنسان، وأخرى للحضارة، ولكي يلبي هذا المطلب إحتاج إلى شد عضده بدعامة قوية وصائبة وناجحة، على شاكلة الديمقراطية، ومعلوم أن الديمقراطية العالمية المعروفة والمطبقة في العالم اليوم لم تقدم اللازم عليها، الأمر الذي شدد وعزز الأزمة.

ولذا يعود إلى نقطة المنطلق ويطالب مرة أخرى الأمم المتحدة بالتكتل واحتضان << هيئات كوكبية تتمتع بقدرات على حل المشكلات الحيوية، ودفع المخاطر العظمى، الأسلحة النووية والبيولوجية، وأنواع الإرهاب والبيئة والإقتصاد والثقافة >>(2).

إذن نخلص إلى أن الحل لجل الأزمات السياسية التي تعانيها البشرية بإختلاف جغرافياتها وخصوصياتها هي عدم الإلتفاف صوب الإنسان، والحرص على مسببات بقائه وسعادته، وعيشه آمنا كريما، مرتبة في مشروع فكري إنساني، هذا البرنامج أو المشروع يدعو<< إلى المبادئ التي تسمح بتمهيد السبل، وهي مبادئ لما أسميته الإناسة

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية؟، مصدر سابق، ص79.
(2) المصدر نفسه، ص80-81.

السياسية Anthro Politique، سياسة الإنسان على الصعيد الكوكبي والسياسة الحضارية>>[1].

وعليه فالمنطلق السياسي هو الآخر كما التاريخي في غاية الأهمية، ولأن كارل ماركس يرى بأن الفيلسوف إبن بيئته، فكذلك وجدت أن استعراض البيئة السياسية للفيلسوف والعالم، ومنظوره للواقع السياسي والحالة السياسية التي يعيشها في بلده وفي العالم الذي ينتمي إليه، سوف يقدم موجزا خصبا لكيفية تفكيره وتنظيره.

ثالثا: تأثيرات البعد التقنو-علمي

<< إن التقدم التقني يسمح في الآن الواحد بظهور الإنسانية الكوكبية ، أي في هذا العصر الحديدي الجديد، ويسمح بإحتمال فنائها النهائي>>[2].

إن التعرض لفحوى هذا الموضوع يستلزم علينا طرح إشكال إستفساري مؤداه:
هل يمكن اعتبار التقنية من المنطلقات الأساسية المشكلة للرؤية التعقيدية؟ ماهو وجهها الفعلي؟ وماهو تأثيرها على الفكر التعقيدي؟ وهل ستلاحقه حتى مآله النهائي.

1/ أطروحة العلم من المقاربة المفاهيمية إلى المقومات الإبستيمولوجية

إذا إعتبرنا أن التقنية Technices (E)، La technique(F) هي<< جملة المبادئ أو الوسائل التي تعين على إنجاز شيء، أو تحقيق غاية، وتقوم اليوم على أسس علمية دقيقة، والتقني منسوب إلى التقنية، ويقابل العلمي sientifique والجمالي Esthétique>>[3]، فهي بذلك تحمل بحسب هذا التعريف شقين مادي أسس الآلة وأظهرها، ومعنوي، وتتجسد في جملة التنظيرات العلمية التي قام بها العلماء والباحثون والمفكرون حتى توصلوا إلى فقه هذه الأفكار وإنشائها.

(1) إدغار موران: المصدر السابق، ص74.
(2) إدغار موران: إلى أين يسير العالم، ترجمة أحمد العلمي، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص68.
(3) إبراهيم مذكور: مرجع سابق، ص53.

ولأن التقنية نفسها مرتبطة بالعلم، فلفظها المركب باللاتينية يجعلهما ملتصقان ببعضهما البعض"تكنولوجيا"، وأن إدغار موران يأبى أن يلفظ أو يكتب المصطلح دون لفظ كلمة العلم معها، أجد أنه أضحى لزاما أن أتفرغ له-العلم-بجزء معتبر من هذا العنصر، وذلك راجع للضرورة الملحة التي تقتضيها الدراسة، حتى تفهم الأمور، وتتوضح على نحو جيد.

وحينما نتساءل ما العلم؟ فإنه للوهلة الأولى قد يعتقد الكاتب والقارئ على حد سواء أن إعطاء تعريف لكلمة علم شيء يسير وبسيط، لكن التدارك سيأتي فيما بعد حينما يتيقن أنه مفهوم عصي عن المفهمة، أو هو مفهوم لزج وزئبقي متمرد ومتملص، يعرفه القدماء والمحدثون بطرائق عديدة، حسب موضوعاته وحقوله الخاصة والعامة، وكذا حسب توجهها النظري والتطبيقي وكذا منهجها الذي بين ماهيتها، <<وغني عن البيان أن لفظة العلم العربية لا تزال مشبعة بالمعنى القروسطي (*) لها، ومن ثم فهي لا تقابل كلمة science الإنجليزية تمام المقابلة>>(1).

نحن نحاول الثوران عن كل تعريف كلاسيكي له، يجمع تحت لواءه العلوم والفنون والمعارف المختلفة دون إستثناء، والتي من شأنها أن توفر حياة الرفاه والراحة للإنسان، لنجد أنفسنا مرة أخرى تحت ضغط الضرورة نطرح نفس السؤال، مالعلم إذن؟.

إن الهارب من الكلاسيكيات المعهودة إلى الجديد، سوف يجعل العلم علوما مختلفة، منها تلك التي أقنعت البشرية بنجاعتها وأحقيتها، والتي لها علاقة مباشرة بالمادة والمرئيات، ومنها من لا تزال البشرية نفسها في صراع حول أحقيتها ومصداقيتها، وتعيش في الغالب في عالم الماورائيات والروحانيات أو المعجزات.

واضح أنه بعد كل هذا سنعترف أن العلم يحتوي هذه التفاصيل وأكثر، إنه يتوسع ويبتلع بنهم وبلا توقف، ولكني سوف أجازف ختاما وأقبل بالتعريف القائل أن العلم<<هو المقدرة على ربط الأسباب بالمسببات هو فهم النظام الذي ينظم هذا العالم الخارجي الذي

(*) القروسطي: كلمة مركبة من شقين هما القرون الوسطى وعند جمعها أنتج اللفظ.
(1) آلان- ف- شالمرز: ماهو العلم، ترجمة لطيفة ديب عرنوق، سوريا، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط1، 1997، ص15.

نعرفه عن طريق الحواس والذهن والمخيلة، فنتأثر به، ونؤثر فيه، هو المقدرة على التنبؤ أو الفهم، وهو مقسم إلى قسمين، بنيان العلوم التجريبية، وبنيان العلوم التجريدية>>[1] .

لقد تحدث هيدجر[*] Martin Heidegger (1889- 1976) عن تاريخ العلم، وأقر بأن كل تفكير له في ذاته ناقص أو غير موجود، وبالتالي فهو لا يعنى كثيرا بحقيقة ذاكرته التي تعد أفضل وأصدق وأهم خاصية للشيء، ثم إن العلم حسبه لا يأبه للإلتفات إلى ماضيه، وكيف مشى وماذا حقق، لأن مساره وهدفه وغايته الأسمى هو تصحيح ذاته وتجديدها، ومن ثم تجاوز الأوضاع القائمة إلى أخرى جديدة <<إنه يشحذ فعاليته المنطلقة بصميم الخصائص المنطقية صوب الإختيارية والتكذيب والتصويب، صوب مزيد من التقدم والكشف، أي صوب المستقبل دوما>>[2].

سيظهر لنا بجلاء فيما بعد أن تاريخ العلم ليس تماما كما تخيلناه، خاص برصد أحداث حصلت للملوك والعروش والتيجان والحروب والإنقلابات والقتل<<هو التاريخ الحقيقي للإنسان، وصلب قصة الحضارة في تطورها الصاعد>>[3] .

ثم إن للعلم فروع تقسمه وتحدده وهي قسمان أو بناءان كل بناء له طبقات، الأول خاص بالعلوم التجريبية، والثاني خاص بالعلوم التجريدية، فأما الأول<<فيبدأ بالعلوم الفيزيائية، وينتهي بالعلوم الإجتماعية، وبين البدء والنهاية تنضوي كل هذه المعارف التي نتحصل عليها بالدراسات التجريبية>>[4].

وأما الثاني فهو يسعى لإحقاق التفكير المجرد الذي تختبيء خلفه حيثيات الحقيقة، وبالتالي فهو غير محتاج إلى التجارب المادية، وهي علوم قسمت منذ القديم إلى ثلاث

(1) أحمد سليم سعيدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، سلسلة عالم المعرفة131، 1998، ص15.
(*) هيدجر: فيلسوف وشاعر ألماني، عضو في الحزب النازي، وهو تلميذ للفيلسوف إدموند هوسرل، إهتم بقضايا الوجود والحقيقة والحرية، له أعمال بارزة منها كتاب الوجود والزمان(1927)، أثر في مجموعة من الفلاسفة على غرار جورج غدامير وحنة آرندت.
(2) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، رقم264، سنة2000، ص9.
(3) المرجع نفسه، ص10.
(4) أحمد سليم سعيدان: مرجع سابق، ص15.

طبقات<< أدناها العلوم الرياضية، وفوقها الفلسفة والفكر الأدبي، وفوقها الفقه والروحانيات>>[1].

وعند الحديث عن كيفية نقد العلوم، نجد أن هناك شروط يجب أن تتوفر وتتحقق في أية نظرية حتى يتسنى للعلم أن يحتضنها ويتبناها<<يجب أن تكون النظرية قابلة للتحريف، ولذلك فبقدر ما تكون أكثر قابلية للتحريف تكون أفضل، إلا أنها مع ذلك يجب ألا تحرف>>[2].

قد يفهم من هذه الكلمات للوهلة الأولى أنها أحجية، أو أنها معضلة، ولكن المعنى المراد تحقيقه منها هو أن التحريف الأول معناه التعديل وتفعيل المحاولات الفتية والناضجة لأجل تطويرها، فالجميع مؤمن أن العلم يتطور بإكتشاف الجديد المضيف الذي يحسن القديم للأفضل أحيانا، ويلغيه تماما في أحيان أخر من حيث معنى، ومع ذلك يجب ألا تحتوي على أخطاء واردة، ثم إن كل النظريات النشطة في حقول العلم ينبغي لها أن تبقى عذراء، وعلى حالها مثلما أتى بها صاحبها أو صانعها دون تدخل أيادي الفساد فيها بالتغليط والتشويه والتزوير، فيحيد مسارها المنوط لها بفعل العبث في أحد مكوناتها ما يجعلها فاقدة للنجاعة والعطاء.

(1) المرجع نفسه، ص15.
(2) آلان- ف- شالمرز: مرجع سابق، ص85.

هناك رؤية مسفسطة(*) للعلم تؤكد على تقدم العلوم بصورة مذهلة ما يجعل طرح السؤال<< هل تستطيع النظرية المفتوحة أن تحل فعلا محل النظرية المنافسة>>(1) ضروريا وملحا ومشروعا، ذلك أن هناك إهتمام كبير قد وجه إلى المقارنة بين طبقات ورتب ودرجات التحريف لدى النظريات من أبسطها وأضعفها إلى أقواها.

وللإشارة فإن فكرة التحريف التي طرحت هي فكرة بديلة عن الإستقراء(**) إذن فالتحريف يجعل العلم يتقدم عندما تختبر نظريات علمية كبيرة وذات وزن وشأن مثل نظرية نيوتن(***) Isaac Newton (1643-1727) الفيزيائية في الجاذبية وقوانين الطبيعة، ثم تأتي دراسات أو نظريات جديدة تطرح فروض لا قبل للعلم عليها، فتظهر بعد إخضاعها للفحص والتجريب أنها ذات فعالية وكفاءة، فتتعزز(****) بلغة كارل بوبر(*****) Karl popper (1902-1944)، ثم تصبح هي السائدة بعدما كانت شاذة بلغة توماس كوهن، وهكذا تنحرف القديمة، وتثبت وتؤكد الجديدة.

وإذا عدنا إلى إدغار موران فإننا سنجده قد وضع للعلم مقومات توجده وتبنيه ثم تسيره،<<إن العلم يقوم في الوقت ذاته على التوافق وعلى الصراع، إنه يسير وفي الوقت ذاته على أربعة أرجل مستقلة ومترابطة هي النزعة العقلانية والنزعة التجريبية، والخيال والتحقق>>(2) .

إن هذه العناصر الأربعة عندما تتفاعل مع بعضها البعض، فإنها تؤسس لتاريخ علم خصب وغني ولا متوقع.

(*) مسفسطة: مغالطة ومشوهة بالتحريف، نسبة للسفسطائيين.

(1) آلان – ف- شالمرز: مرجع سابق، ص75.

(**) الإستقراء: في اللغة بمعنى التتبع، ويطلق عليه أيضا الإستدلال الإستقرائي، وأحيانا المنطق المادي الإستقرائي الذي خلف المنطق الصوري الأرسطي، وفيه تنتقل العملية من الجزئي إلى الكلي، أو من البعض إلى الكلي، وهو ما يسمى بالوصول إلى النتيجة عن طريق التعميم، وهو قسمين تام وناقص.

(***) نيوتن: عالم فيزيائي ورياضي إنجليزي، كما له علاقة بتخصصات الفنون والآداب كتب في الفلسفة والعقيدة والسياسة، فهو بهذا رجل موسوعي الطابع، إشتهر بمجموعة من الأعمال أهمها نظرية حساب التفاضل والتكامل، وكذا موضوع الجاذبية، أشهر كتاباته الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية (1687).

(****) التعزيز: هو مصطلح جاء به كارل بوبر، مريدا من ورائه القول أن النظريات العلمية تصبح أقوى وأقرب إلى الصواب عندما تستطيع إحتمال قساوة الإختبار وضغطه، فإن تحملت فإنها سوف تتعزز أي تقوى وتسود.

(*****) كارل بوبر: فيلسوف علم، وعالم إجتماع نمساوي- إنجليزي، صاحب نظرية القابلية للتكذيب، له مجموعة من الأعمال أهمها كتاب منطق البحث 1934.

(2) إدغار موران: الفكر والمستقبل- مدخل إلى الفكر المركب، مصدر سابق، ص105.

صحيح أن العلم في مساره الطويل لا يسير فقط وفق نموذج التبسيط، ولكن لم يستوعب التعقيدات الكثيرة والهائلة التي كانت تحيط به من كل جانب، يتسائل ماكس بيروتز[*] Max Perutz (1914-2002) عن ضرورة العلم، وغاياته فيقول<< أحقا أن البحث العلمي هو أنبل مساعي العقل البشري، ومن معينه ينبع تيار لا ينقطع أبدا من الإكتشافات الأخيرة، أم أنه مكنسة ساحرة تهددنا جميعا بالفناء؟ >>[1].

واضح من خلال سؤاله التهكمي أنه يعي جيدا أن للعلم وجهان متمظهران بشكل عادل ومتوازن على ساحة الوجود، وجه خير نير نافع دافع رادع إيجابي، و وجه آخر شر مستطير، مجلبة للمهلكة والفناء، وهو ما يتوافق تماما مع طرح إدغار موران في مسألة العلم ذاته،لأن العلم إستطاع أن يحيا ويحيي حينما أنقذ ملايين الأرواح من النساء اللواتي كن يمتن عبر التاريخ بفعل الحمل[**] وأعراضه، خاصة منها ما عرف بحمى النفاس، أو النزيف الحاد الذي لا يتوقف إلا بتوقف قلب صاحبته، لقد أحيا نساء، ومنه أحيا أطفالا عاشوا بعيشهن، لكنه أيضا يميت حينما قتل نفس النساء والأطفال الذين أحياهم بصب القنابل الذرية والهيدروجينية على جغرافيتهم، فقضى عليهم دون رحمة.

إن الظهور الأول للتقنية[***] تاريخيا كان عندما إكتشف الإنسان المعادن وإستثمارها كالحديد، ثم تطورت رويدا رويدا لتصل إلى ماهي عليه اليوم من وتقدم.

وحال الإنسانية اليوم أنها وفق ما تطرحه التقنية وتقوم به في تحسينها للحاضر خدمة وتهيئة للمستقبل، عليها أن تعيش بواقعين إثنين أحدهما تفاؤل حول ما يجري من

(*) ماكس بيروتز: مواليد ألمانيا، حصل على دكتوراه فلسفة في الكيمياء الحيوية عام 1940، إكتشف بنية الهيموغليبين (خضاب الدم) ووظيفته، نال على إكتشافه جائزة نوبل المتخصصة للكيمياء عام 1962، ترأس مختبر البحث الطبي للبيولوجيا الجزيئية بكامبردج.

(1) ماكس بيروتز: ضرورة العلم، ترجمة وائل أتاسي وبسام معصراني، عالم المعرفة، رقم 245، سنة 1978، ص09.

(**) قبل إختراع أدوية أو حبوب منع الحمل، كانت النساء عبر العالم عموما وفي أوروبا خصوصا، تحمل الأجنة بطريقة غير منظمة ونظرا للظروف الصعبة والحالات الصحية المزرية التي كانت تعايشها المجتمعات آنذاك، فلم يكن الوضع يسمح بإنجاب الكثير من الأطفال، الأمر الذي جعل الوالدات يقدمن على عمليات إجهاض خطيرة بأنفسهن، عن طريق إستخدام مواد صلبة، مما كان يتسبب لهن في نزيف حاد، وفي الغالب كانت الوفاة هي الوجهة الكبرى لهكذا عملية.

(***) يجد موران أن التقنية ليست وليدة الأمس المتأخر، بل هي نتاج يعود للعصر الحجري الأخير، أين سعت الحضارات إلى إزدهارها من خلال إمتلاك المادة والسيطرة عليها، ثم الإستحواذ على عالمي الحيوان والنبات، ثم حدثت الإنطلاقة الرهيبة والسريعة إعتبارا من القرن الثامن عشر في أوروبا الغربية ثم إلى جميع أقطار المعمورة، ومنها بدأت قدرة الطاقات وإستعمالها يزداد على غرار البخار والنفط والكهرباء والطاقة النووية وغيرها.

إنبثاق حيواة جديدة، وسعادات يمكن رؤيتها في وجوه مرضى شفوا من أمراضهم مثلا، والآخر تشاؤم إيزاء الوضع العنيف الذي نعيشه، فمن خلال التقنية إزدادت الحروب والآلام والدماء والمواجع، وتضخمت العنجهيات، وإزداد الطمع والجشع واللاشبع، ثم إن هذه الثنائية- التفاؤل، التشاؤم- تحمل في ثناياها ثنائيات أخرى متضادة ومتصارعة، ولكن إستحالة أن تلغي إحداها الأخرى.

إن مصطلح التقنية نجده بقوة، وذو حضور وكثافة شديدين في متون إدغار موران، وفي الحقيقة هو لا يفرق بين العلم والتقنية كما ذكرنا سابقا من حيث إلصاق هذين اللفظين ببعضهما البعض، وهذا لأن مصدر الثانية هي الأولى بالضرورة، فبتطور العلوم وإرتقائها عبر التاريخ ظهرت التقنيات المختلفة من أبسط ملمح لها إلى أعقده وأقواه على الإطلاق، مثلما نعايش في عالمنا الحاضر مختلف التكنولوجيات المتطورة جدا، والتي ساهمت في تقديم خدمات هائلة لم يكن الإنسان يحلم بها قط.

ولأن العلم حسب موران لا يعي مساره وتوجهاته، لأنه يتحرك بطريقة مجنونة وغير مهذبة ولا متوقعة فهو بحاجة إلى الكثير من النقد<< هناك للأسف داخل عالم العلماء محافظة وإشباع كبير يحجب عنهم السؤال الرهيب أكثر فأكثر،إلى أين يتجه العلم>>[1] .

لقد أفرز العلم التقنية، وهذه الأخيرة إستطاعت أن تضفي على الفرد والعالم الطابع الإجتماعي، ذلك أن العلم يولد داخل المجتمع، والمجتمع يترقى بالعلم، لكن سرعان ما تنقلب الموازين، فيصبح هذا المجتمع الصانع للعلم أسيرا لصناعته، أي للتقنية، التي ستشكل قوة بيروقراطية تنظمه، وخاصة فيما تعلق بالجانب الإقتصادي والعملي ، وبالتالي فالحديث عن العلم والتقنية والمجتمع حديث معقد جدا، تتداخل فيه كل الأطراف والتوجهات، ولكي يفهم بشكل أعمق وجب إستحضارها كلها، وكشف الغطاء عن التفاعلات التي تحدث بينها.

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص112.

2/ التواشج التقنو-علمي ومفرزاته كمغامرة جديدة

من المهم عند تناول موضوع في غاية الأهمية والحساسية كموضوع العلم والتقنية أن نشير إلى مجموعة من الإستفهامات الواجبة الطرح على شاكله،مالغاية من البحث العلمي وإكتساب/إمتلاك التقنية؟، وهل هذه الغاية واحدة عند الباحث الأكاديمي وعامة الشعب أم أنها تختلف؟، كيف يمكن توظيف وإستغلال هذه النتائج حسب الواقع المعاش، ومن المستفيد الأكبر منها؟.

من المسلم به أن التكنولوجيا-التقنية-هي الثمار البارزة للعلم، أو الأبحاث العلمية، وهي متعلقة بالحياة اليومية للجماهير<< ففي المجتمعات الصناعية على الأقل أصبحت التكنولوجيا جزءا من طريقة الحياة فيها >>(1) ، ولا يمكن الإستغناء عنها مطلقا، باعتبارها الشريك المعين على صعوبات المهام التي يفرضها الواقع العملي لديهم، أي أنه من الصعب على شعوب العالم إدراك مدى الضغوطات والتقلبات والإهتزازات التي طرأت على العلم التكنولوجي عبر التاريخ حتى وصل إليها بصورته النهائية هذه، والتي لا يخفى على أحد أن كلمة النهائية المستعملة في هذه الجملة هي كلمة نسبية لا نقصد بها الإطلاق ولا اليقين أبدا، بل قصدنا تطور التقنية ومشاهدتهم إياها في آخر مظهر لها في يوم قرائتهم هذه الأحرف، ثم إننا نعلم جيدا أنها سوف تواصل التقدم والتطور دون توقف، إنها تكمل درب النمو والتشكل إلى آخر لحظة من لحظات عمر هذا الكون.

إن السمة المميزة للأزمنة الحديثة هي << أن البحث العلمي مؤخلق(*) مع التكنولوجيا التجريبية قد أديا بلا شك إلى تنوع هائل في المنتجات،وإلى تغييرات هامة في كل من أساليب الإنتاج وعادات الإستهلاك في حين أن فهم الإنسان للكون ولذاته ولعلاقته برفاقه من بني البشر قد شهد دفعات من التقدم لم يسبق لها مثيل>>(2).

(1) د. جون- ب- ديكسون: العلم والمشتغلين بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ترجمة: شعبة الترجمة باليونيسكو، عالم المعرفة، رقم 112 ، 1978، ص18.

(*) مؤخلق: وتفيد ظهور حالة أخلاقية جديدة على الساحة اليومية للحياة، تجمع الأبحاث العلمية، والآلات التكنولوجية المجربة خدمة للواقع توفيرا ورفاها وغناءا.

(2) جون ديكسون: مرجع سابق، ص22.

إن التكنولوجيا تتطور عبر الزمن من خلال ثورات علمية، وهي تأخذ وقتا لا بأس به حتى تتم عملية النضج الكامل لتفاصيلها التي تكون صالحة للإستخدام فيما بعد، وفي الغالب فإن ذلك الرواج الذي تلقاه، وذلك الإستحسان الذي تقابل به من طرف الأفراد والمجتمعات يكون بسبب الخدمات الهائلة والجليلة التي تقدمها لهم من حيث توفير الوقت والجهد والمال وغير ذلك مما يقوي العلاقة بينها كآلة جامدة وبين البشر ككائنات حية عاقلة، وهي في الحقيقة أغرب العلاقات المشدودة التي عرفها التاريخ على الإطلاق.

يجب أن نعلم أن العلم بثماره- التقنية- يشكل أحد أبرز العوامل القوية التي تصنع وتهندس لمشهد العلاقات الإنسانية والدولية، وذلك من خلال إعتراف الحكومات بعالمية العلم والتكنولوجية منذ العصور الوسطى، أو ربما أقدم بكثير، لكني آثرت القول منذ العصور الوسطى أي عندما إنتصر العلم بإختراعاته على سلطة الكنيسة، وبنى له صرحا متينا في العصر الحديث، واضح المعالم والمبادئ والملامح.

<< وحوالي عام 1900م بذلت محاولة غير ناجحة لتنسيق النشاطات العلمية الدولية والوطنية بواسطة منظمة أطلق عليها إسم الرابطة الدولية للأكاديميات، ولكن محاولة أخرى ساعدتها بلا شك نفس الروح الداعية إلى الوئام العالمي أو المثل العليا المنادية بالإخاء الإنساني، والتي مهدت الطريق لإنشاء عصبة الأمم، كانت أكثر نجاحا ودواما، وهي المجلس الدولي للإتحادات العلمية الإكسو(*) ICSU >>(1).

إن هذه المنظمات تسعى بالتأكيد إلى إحقاق قضايا عادلة ومتوازنة في المجتمعات، ونبذ كل أشكال التطرف والشذوذ فيها، بيد أن لها أهداف ضيقة رغم كل هذا، إنها مؤدلجة(**) وتعمل من أجل توجهات علمية مؤطرة وخانقة، وهذا أمر لا يدعو للتشاؤم مطلقا، فقد ظهرت للعلن منظمات علمية تكنولوجية تخدم العلم والمعرفة، وهدفها بلوغ الصالح العام للإنسانية، وحفظ السلام والأمان، وتأسيس مستقبل أفضل أكثر إشراقا وطمأنينة، مثل جمعية وافسو(***) WFSW الداعية للتوازن بين حقوق وواجبات العلماء، كما نجد حركة البجواس(****)Pugwas التي سلطت الضوء على أكثر الموضوعات خطورة، وهو السباق نحو التسلح، بالإضافة إلى معهد ستوكهولم(*****) الداعي إلى السلم الدولي، وغيرها من النماذج الحميدة والمشرفة والنزيهة الكثير.

إن التقنية التي روجت لها العولمة في عصرنا بشكل جيد، وإنتشرت هذا الإنتشار الكاسح في جل أنحاء الأرض، قد أجازت تسخير وتمكين وتطبيق كل الطاقات المادية حتى تنتعش وتتطور متغذية في ذلك على مفرزات الواقع، إن الآلات الإصطناعية مثلا

(*) الإكسو ICSU: أصبح يعرف بالمجلس الدولي للعلوم، تأسس عام 1931 بباريس (فرنسا) بغية تعزيز الإهتمام بالعلوم لصالح المجتمع يحتوي على 121 عضو وطني و31 إتحاد علمي.

(1) جون ديكسون: مرجع سابق، ص38.

(**) مؤدلجة: إن كل الأفكار والقضايا المطروحة في العالم اليوم على مستوى المنظمات والجمعيات والنظريات، هي أفكار تحمل منطقا معينا يخص صاحبها، ويسعى إلى إفهامه للجميع وتوسيع نطاق المشتغلين به لإعتقاده أنه الأفضل والأصوب، وهذا ما يعرف بالآيديولوجيا وهو حسب تقديري عامل قوة في تعزيز الإختلاف البناء بين البشر وليس عامل ضعف.

(***) وافسو WFSW: الإتحاد العالمي للمشتغلين بالعلم، هي حركة حقوقية داعية إلى إحداث السلم والوئام بين العلماء ومحيطهم والدفاع عن حقوقهم وبيان واجباتهم.

(****) البجواس Pugwash: هي حركة تهتم بالعلم وشؤونه، ونزع السلاح عن الذي يشكل به تهديدا للإنسانية، تدخلت في مرحلة السباق نحو التسلح الجنونية التي كانت تطبع الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي.

(*****) ستوكهولم: المعهد الدولي لأبحاث السلام تأسس عام 1966 بالسويد، مكلف بمراقبة الأسلحة ونزع السلاح، والبحث في الصراعات وهو معهد مستقل.

كمظهر من مظاهر التقنية، جاءت لتخدم الإنسان وتزيل الحمل والتعب والعبء عنه من خلال العمل محله، لكنها سرعان ما إنقلبت ضده، فأصبح هو من يخدمها ويشرف على تحريكها وتوجيهها.

لقد أفسدت التقنية طباع الإنسان في الكسل والتعويل عليها، ثم أذت نفسيته، فيما سلبته بالتعبير الماركسي(*) كامل حريته، ثم أضرت بمناخ بيئته ونظافتها، فتلوثا وإضطربا وضاع التوازن الصحي.

<<إن التطور التقني-الإقتصادي ينتج حالات تخلف أخلاقية ونفسية مرتبطة بالتضخم في الذات الفردية، فإذا كانت الفردانية الغربية بنظري فضيلة كبرى في التاريخ الغربي، فإنها تتحول إلى فردانية مفرطة في الأنانية المحتدمة بفعل فقدان تضامن مع الآخر>>(1).

لقد سبق وأشرنا إلى أن الإقرار بمسألة السلبية عند التقنية لا يعني تماما إختزال أو إقصاء الجانب الرائع والمذهل لها في تسهيل وتلوين وتعديل الحياة الإنسانية، ودفع عجلة التطور نحو الأفق الأقصى.

إن العلم والتقنية هما المتحكمان في مجريات الحياة اليوم، إنهما يتحكمان في طريقة تفكيرك وعملك وتطلعاتك وآفاق طموحك، يتدخلان في كتاباتك وتعديلاتها وتغييراتها، وكذا كلمات صوتك وتأثيرك على نفسك والمجتمع، التقنية إلاه جديد يعطي خلقا، وهو قادر على إفنائه، إنها أحد الأبعاد الأساسية والرئيسية في بناء المشاريع والأفكار والثوابت.

(*) الماركسي: لقد تحدث كارل ماركس عن إستيلاب الإنسان من طرف الآلة، والعيش في حالة من الضاع والإغتراب والتيهان، فيصبح هو عبدا لها في حين كان من المفروض أن يكون العكس.

(1) إدغار موران وشارل بودريار:عنف العالم، ترجمة عزيز توما، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2000، ص83.

التقنية في بيتك تساعدك على رصد المعلومة، وعلى تجهيز طعامك، وتنظيف نفسك وملابسك، تساعدك على المكتب في طرح وكتابة ومناقشة أفكارك وأعمالك، إنها في الشارع تملأ من حولك، تقوم بإشهار مغر، أو تعرض عليك شيئا مميز، إنها لصيقة بجسدك، تراقب بها الوقت، وتحسن بها نظرك، وتستدعي بها أحدا على عجالة.

إن للتقنية العلمية هيمنة وبعدا خطيرين لا يمكن بأي شكل من الأشكال تجاهلهما، ولذا يجب تسليط الضوء أكثر على التقنية العلمية، يجب دراسة أبعادها بشكل أعمق، علينا أن نعمل على إقتناء و فهم ثقافة خاصة مريحة وسلسة للتعامل معها بالكيفية اللازمة دون تورط في أخطائها وأخطارها.

إن هذا التطور والإنفجار العظيم للتقنية كان سببه في البدأ مجموعة من أبحاث علمية تمولها الدول لغرض <<إنتاج السلع التي تجد طريقها للمستهلك، وأيضا تنمية قدرات الدول لتحسين الأسلحة والمعدات الحربية، وكان هدف الباحث في مجال أبحاثه أساسا هو إعتراف أقرانه بأبحاثه تلك>>[1] .

وهي في العموم كما نرى مجموعة دوافع منطقية وواقعية مهمة وضرورية خدمة لمتطلبات العصر لكن رويدا رويدا، والآن أمسينا نرى أن كل هذه الأعراض والدوافع حادت عن مسارها الأصلي في الخدمة والإعانة، وإنعطفت إلى مسار آخر يخدم الهيمنة والغطرسة والإستعمار والتحكم، مثلما شاهدناه في الحربين العالميتين الأولى والثانية، والسباق نحو التسلح[*] من أجل رفع مستوى القوة والخوف والتهديد، لا لأجل إحلال السلم والأمن والأمان.

وبالتالي ما كان يعتبر إستثناء في السابق أضحى القاعدة الآن:<< لم تعد التكنولوجيات الجديدة وإنتشارها أمورا ينظر إليها على أنها تحقق آمال وطموحات أفراد

(1) إدغار موران: تحديات القرن الحادي والعشرين، مصدر سابق، ص871.

(*) السباق نحو التسلح: هي معركة أقدم عليها المعسكرين التاريخيين وهما الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي، حيث تسابقوا حول إمتلاك أكبر وأقوى الأسلحة على الإطلاق، التي ستزيد حسبهم من قوة الخصم، وتعطي له الكفاءة والأحقية، فإخترعوا بذلك أسوء الأسلحة فتكا في تاريخ البشرية، وجربوها على الحروب وكانت العواقب وخيمة، كما أسفر هذا السباق عن مقدرة الإنسان على الصعود إلى سطح قمر من قبل الأمريكان.

المجتمعات فحسب، بل صارت نتيجة طبيعية لإستراتيجية عنيفة من العرض والطلب من جانب رواد التغيير التقني سواء أكانوا من مؤسسات متخصصة أو المهندسين والباحثين أو حتى الدولة>>[1].

يجب التأكيد على أن التقنية العلمية أو التكنولوجية منذ القرن التاسع عشر وتطورها السريع والرهيب إلى وقتنا الحاضر أعطتنا أربع ملامح عنها، أو قل أنه يمكننا تقسيم التكنولوجيا إلى أربعة أقسام رئيسية، كل منها يتحكم في جزء معين من أجزاء الحياة المعاشة، إحداها هي تكنولوجيا السلع والتي بموجبها يمكن تلبية متطلبات الناس وإحتياجاتهم المختلفة، كالهواتف وآلات التنظيف والطبخ والتجميل...إلخ.

ثم تكنولوجيا التسليح وتطوير مختلف التقنيات الفتاكة في مجالات الحروب والمعارك، كما لدينا تكنولوجيا المواد والأجهزة وعالم الكيمياء وإلكترونات الطاقة الخاص بتقنيات المركبات، وهي شق فيزيائي كيميائي معقد، ينتج عنه خلق منتجات طاقوية تفيد الإنسان في الإنتفاع بكل مشتقات الطاقة في حياته.

ثم التكنولوجيا الخاصة بالنقل والإتصالات، وجعل الآلة محل الإنسان، إذن فقد مست مجالات الكيمياء والمواد الحياة اليومية، ومواد الإلكترونات ومواد الطاقة، فأضحى التنافس بين المجتمعات من أجل إكتساب وإمتلاك التقنية السمة البارزة فيه.

<< إذن إن تطور التكنولوجية العلمية يعد ظاهرة في جوهرها، وتنعكس آثارها في إتجاه واحد، وتتميز بخاصية أنها بناء إجتماعي، وفي الوقت ذاته تعتبر العامل الحاسم في التغيير الإجتماعي>>[2].

لذا فالتقنية العلمية سلاح ذو حدين له منافعه الكثيرة للناس، تسهيلا وخدمة وتوفيرا وراحة، لكنه في ذات الوقت له أضراره الكاسحة والقاتلة أسرا وتدميرا، وتشتيتا وتقهقرا، وهنا ينادي بضرورة التدخل العقلاني لفرز صحيحها من فاسدها، حتى نمتص أكبر قدر يمكن من المنافع، ونطرح أكبر قدر ممكن من المهالك.

(1) إدغار موران: تحديات القرن الحادي والعشرين، مصدر سابق ، ص875.
(2) المصدر نفسه، ص881.

وعلى هذا الأساس<< ينبغي لسياسة الإنسان وسياسة الحضارة أن تتفقا على المشكلات الحيوية لكوكب الأرض، فالمركبة الفضائية الأرض تسير بأربع محركات مشتركة ومتأبية على المراقبة في الوقت نفسه هي العلم والتقنية والصناعة، والرأسمالية (الربح) >>(1).

لنخلص كمخرج من كل ما تعرضنا له في موضوع التقنية، بأن هناك عالم جديد ومذهل ومختلف كليا عن ذاك الذي كان متواجد في السابق، إنه عالم كثيف، ويحتوي الكثير من الآلات المصنوعة من مواد مختلفة، إنها آلات أقحمت نفسها بمنطق القوة في حياة الإنسان، وأضحت جزءا لا يتجزأ منها، ولازم عليه أن يتأقلم معها للذي يزعجه وجوده معه.

وبالتالي فالبشرية << ستشكل مع هذه الآلات، وكما أعلن آرنولد غيهلن جهازا هائلا إناسيا وحيويا وتقنيا وإلكترونيا، وإعلاميا وآليا وسيكون ذلك هو المكان الذي لا يدور في الحسبان لمجتمع عالمي لا يزال هو نفسه لا يدور في الحسبان >>(2).

إن حالة القلق والإرتباك تزداد يوما بعد يوم في عالمنا المعاصر، عندما تمسي فاعلية الفلسفة ضئيلة في طرح الحلول والإجابة عن حزم المشاكل التي تطفو على سطح الواقع المعيش كل صباح، هو أن عدم التوازن بدأ يزداد بإستمرار بين القوة العلمية والتقنية التي تتميز بها إكتشافاتنا وبين فراغ معناها الإنساني.

رابعا: المنطلق الإبستيمولوجي وتفريعاته

<< توجد مشكلة المعرفة في صميم مشكلة الحياة >>(3).

في هذا المقام حق لنا أن نتساءل لكي نفهم مجموعة من الأسئلة على غرار:

لم الإبستيمولوجيا؟ بمعنى كيف تكون وتؤثر هذه الأخيرة كمنطلق إستراتيجي في الفكر المركب أو نظرية التعقيد؟ كيف تشكله وماهو التجلي الأخير الذي تسعى الوصول إليه؟

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، مصدر سابق، ص80.
(2) المصدر نفسه، ص161.
(3) إدغار موران: المنهج، معرفة المعرفة- أنثربولوجيا المعرفة-، ترجمة جمال شحيد، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2002، ص57.

للإجابة عن هذه الأسئلة جعلت التعرض للعناصر التالية أمرا واجبا وضروريا.

1/ مساءلة المعرفة وفق السقف الكلاسيكي

إذا إنطلقنا من فكرة أن المعرفة تعد جماع الأفكار البشرية وغير البشرية المتواجدة في الكون بصورة منتظمة وغير منتظمة، يتحلى محصلها والمستحوذ عليها بقوة وطاقة كبيرتين تمكنانه من الإقتراب من الفهم الصحيح لمعنى الكائنات الحية والعالم، فإننا سنجد في المقابل أن نفس اللفظ - المعرفة- يقابله في اللسان اللاتيني كلمة إبستيمولوجيا وبالفرنسية Epistémologie، وبالإنجليزية Epistemology، وهي << لفظ مركب من لفظين أحدهما إبستيما Epistemé، وهو العلم، والآخر لوجيا Logos وهو النظرية أو الدراسة، فمعنى الإبستيمولوجيا إذن نظرية العلوم أو فلسفة العلوم، أو تعني دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسة إنتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية >>(1).

لكن إذا عدنا إلى إصطلاح كلمة إبستيمولوجيا في الإنجليزية فحتما سنجده مرادف لمعنى نظرية المعرفة، وهو الأمر الذي يجعله مختلفا تماما عن حالها في الفرنسية.

في نظرية المعرفة سنصطدم بطرائق وأوجه مختلفة لسؤالين أساسين يقتسمانها ويحددانها، السؤال الأول يمكن طرحه بصيغة ماذا نعرف؟ أما الثاني فيطرح بـ "هل فعلا نحن نعرف؟ " ولا شك أن الملاحظ للسؤال الثاني سوف يفهم أنه يعالج مشكلة معايير المعرفة.

إن نجاحنا في الإجابة عن السؤالين السابقين سيمكننا من أن نحكم قبضتنا على مكامن الفهم الصحيح للمعارف<< ولكن إذا عجزنا عن إجابة السؤال الأول، فيبدو أن إجابة السؤال الثاني ستستعصي علينا، وفي هذه الحالة لن يكون بمقدورنا أن نجيب عن السؤال الأول >>(2)

(1) جميل صيلبا: مرجع سابق، ص33.
(2) ردوك تشيزهولم: نظرية المعرفة، ترجمة نجيب الحصادي، مصر، الدار الدولية للنشر والتوزيع، بدون طبعة وسنة، ص79.

والإجابة هي أن عامل الخبرة كفيل جدا بأن يجعلنا نتألق ونبدع في إعطاء الحلول المعالجة للأسئلة المطروحة، أو ربما الإستعانة بمدرسة الحس المشترك(*) كبديل لنظرية المعرفة التقليدية، والتي تقر بمعرفة وبإمكانية معرفة الإنسان لمعظم إن لم نقل لكل الأشياء التي تحيط به في عالمه الداخلي والخارجي، بيد أن المعروف على مدرسة الحس المشترك تعاملها الكثيف مع المنهج أو المسار الإمبريقي الذي تثق فيه ثقة مطلقة، وإعتادت منه الإجابة الشافية والراوية لفضولها، بينما نتوجه إلى نزعة ثالثة تسمى باللأدرية(**) أو الشكوكية، وفيلسوف هذه المدرسة نجده في الغالب لا يقرر ولا يزعم أنه يمتلك إجابة للسؤالين السابقين، و في النهاية يكتفي بالقول:<< إننا لا نعرف مالذي نعرفه- إن كنا أصلا نعرف أي شيء- وليس بحوزتنا أي إجراء يمكننا في أية حالة بعينها ما إذا كنا نعرف >>(1).

وبهذه النماذج الثلاث- الخبرة، الحس المشترك، اللاأدرية- نتوصل إلى ثلاث إجابات معروضة للسؤالين، الأولى ثقيلة محبوكة أقرب إلى الصواب والثانية صائبة مطلقة يقينية، والثالثة مبهمة مجهولة غير معروفة ولا معلومة، وهذه المطارحات الثلاث هي التي نصطدم بها دائما عند المفكرين و الفلاسفة في حقول المعرفة الكثيرة المترامية.

ثم إن للمعرفة مصادر، تنهل منها ثرائها وزخمها الفكري وتعددها في المشارب والمسالك، ففي الفلسفة الغربية نجد أربعة مصادر تقليدية لها هي << الإدراك الخارجي، الذاكرة، (الوعي الذاتي- التأمل، الوعي الداخلي-)، العقل >>(2).

وهذا القول قريب جدا من الطرح الديكارتي الداعي إلى الإهتمام بالدرجة الأولى بشيأين أساسيين وفي غاية الأهمية والضرورة هما الذات الإنسانية، والأشياء موضوع

(*) الحس المشترك: لفظ فلسفي مركب إستعمل في مجالات وتخصصات كثيرة غير الفلسفة على غرار علم النفس وعلم الإجتماع والأنثربولوجيا...، ويقصد به أن النفس الإنسانية تعتمد بطريقة مباشرة على الحواس الخارجية الخمسة في إلتقاط المعلومة وسحبها إلى الدماغ ليقوم بمعالجتها وتكوين فهم خاص حولها.

(**) هي فلسفة أو توجه يقر بعدم قدرة صاحبه على معرفة الشيء بالضبط من حيث وجوده من عدمه، وكذا من حيث صوابه من خطئه، والمذهب اللاأدري في الدين يعترف بأنه لا يدري إن كان إلاله موجودا أم لا، وأشهر فلاسفتة بروتاغوراس الذي قال بعدم قدرته على معرفة أن الآلهة موجودة أو ليست موجودة أو كيف هو شكلها، وهذا بسبب قصر العمر وغموض الموضوع.

(1) ردوك تشيزهولم : مرجع سابق، ص80.

(2) ردوك تشيزهولم : المرجع السابق، ص81.

المعرفة، وهذا المقصد لا يتحقق حسبه إلا بحضور الملكات الأربعة ممكنة الإستعمال وهي الفهم والمخيلة والحس المشترك والذاكرة.

وفي العلاقة بين الرأي الصحيح والمعرفة، يؤكد سقراط في محاورة مينون(*) أن هناك إختلاف صريح وواضح بينهما، ذلك أن الإنسان عندما يعرف أشياء، فإن هذه المعرفة ستتحول إلى قوة يبني بها رأيا صحيحا يفيده في أغلب الأحوال، أما العكس، فهو غير صحيح بتاتا << فقد يمتلك المرء رأيا صحيحا دون أن يعرف، هكذا يكون بالمقدور أن نخمن اليوم تخمينا صحيحا، ولا نعرف حتى يوم الغد، أو قد يكون لدينا رأي صحيح دون أن نعرف أبدا >>(1) .

إن هذا الموضوع بالذات طرحه أفلاطون في محاورته ثيوتيتس في شكل سؤال يحاول معرفة الفرق بين المعرفة والرأي الصائب، وهو لاشك إشكال يحمل الكثير من الجسارة، لأن إحتمال إيجاده لجواب شاف وقاطع وكاف ضئيل جدا بالموازاة مع السقف المعرفي والوسائل المتاحة للترجمة والكشف والإجابة على هكذا سؤال، وفعلا لكي نضع يدنا على نحو من الفهم الجيد الذي يخولنا لحله أو الإجابة عليه، إفترض رودوك تشيزهولم مجموعة من المعاني التي في إعتقاده تملأ المعنى الفارغ، فيتحقق بذلك الفهم.

ومن بين المقولات التي إفترضها، الدليل الملائم، ويقصد به الدليل الذي إذا ما حضر بقوة حمولته فهمنا العلاقة بين المعرفة والرأي الصائب أو الصحيح، ثم الإحتمال، الملاحظة، ولكن أكثر شيء تراه ركز عليه بعد كل هذه الخبطات المعرفية هي طرحه لمسألة المعرفة بوصفها مفهوما أخلاقيا مرتكزا على مقولتي الحق والواجب، من حيث أنه صيغة مفادها وجود قضيتين إثنتين، وأن إحداهما صادقة، فإن علمت القضية الأولى أن الثانية صادقة، فهذا يعني أنها غير باطلة، وبالتالي تجسيد حق عدم إتخاذ التدابير الوقائية ضد إحتمال بطلان القضيةا لصادق.

(*) محاورة مينون: هو تأليف فكري أقدم عليه أفلاطون في شكل محاورات، الشخص الرئيسي فيها هو سقراط، وهو يثير فيها مجموعة من الأسئلة والإستفهامات، ويقوم سقراط الوهمي بالإجابة عنها، طبعا يعتمد في إجاباته السقراطية تلك على ما تعلمه من سقراط نفسه عندما كان حيا، وكان يتتلمذ عنده.

(1) ردوك تشيزهولم: مرجع سابق، ص15.

وللأمانة فإن الطرح أيضا ليس له ما يبرره، ولا يفسر بشكل قوي وواضح مشكلة المعرفة،<< إذا أمكن تعريف كلمة "يعرف" والمصطلحات المعرفية الأخرى التي سبق نقاشها باللجوء إلى مصطلح أو عبارة معرفة واحدة، فقد يكون بمقدورنا القول أننا تحصلنا على حل جزئي لمشكلة أفلاطون >>(1) .

وإجمالا يمكن القول أن أفلاطون(*) Plato (427 ق م-347 ق م) قد خاض في مفهوم المعرفة من حيث الأصل والنشأة والخصائص، فكان أول فيلسوف تحدث عن المعرفة لذاتها، أي تناول مسألة المعرفة بوصفها قضية تخدم نفسها، وغرضها الأول والأسمى هو معرفة ذاتها، وفي زمانه آنذاك وجد أفلاطون نفسه مشتتا بين طريقين رئيسيين متعارضين للمعرفة، الأول قال به الهيرقليطيون، بروتاغوراس(**) (487 ق م-420 ق م) وهيرقليطس<< الذين يردون المعرفة إلى الإحساس ويزعمون أنها جزئية متغيرة مثله >>(2).

ويوجد الرأي الثاني الذي يحتضنه أستاذه سقراط، والذي يقر بأن المعرفة الحقة هي النابعة والقابعة من/ في العقل، وأن موضوعها الفعلي هو الماهية المجردة الضرورية، أي حقائق الأشياء وجواهرها.

لقد تأثر إدغار موران أيما تأثر بالفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس الذي تعلم منه فكرة صراع الأضداد، وهذا الصراع لا يكون هكذا جزافا، بل هو حركة خلاقة لأجل التغير والسيرورة.

(1) ردوك تشيزهولم: مرجع سابق، ص36.

(*) أفلاطون: فيلسوف وشاعر وكاتب يوناني قديم، وأول من أسس معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، وهي أكاديمية أثينا، له مجموعة من المحاورات التي تتحدث عن موضوعات مختلفة كالفضيلة والأخلاق والحكمة والسياسة وفي غالبها يكون أستاذه سقراط حاضرا بقوة، أشهر أعماله كان كتاب الجمهورية الذي ألفه في عشر سنوات ما بين (389 ق م- 369 ق م).

(**) بروتاغوراس: فيلسوف يوناني قديم، مؤسس الفكر السوفسطائي في القرن الخامس ق م، أثر في مجموعة هائلة من الفلاسفة مثل أفلاطون ونتشه وجريمي بينتام الذين مارسوا الشك على طريقته الخاصة.

(2) فريدريك نتشه: هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، ط2، 2006، ص48.

إن هذه التناقضات التي تحدث بين الثنائيات المتعارضة ستتسبب في إنعاش وإحياء كل من كان خاملا، أو في حالة إحتضار، فهو هنا يقول << يتعين أن نحيا موتا، وأن نموت حياة >>[1].

2/ نظرية المعرفة وآليات إشتغالها في المضمار الحديث

لقد عرف العصر الحديث بروز عدة نظريات قوية في المعرفة، والتي غيرت بموجبها أنماط التفكير السائدة في العالم، وكذا تفسير جملة الممارسات المعهودة بين الإنسان والآخر، والإنسان والعالم، على المستوى الشخصي أو الإجتماعي أو الدولة أو العالمي الكوني.

لعل أوضحها كانت نظرية المعرفة التجريبية المؤسسة على العلم الطبيعي التي أتى بها جون لوك، هذا الأخير الذي يعتبره راسل رسول الثورة الإنجليزية(*)، الذي وضع المبادئ السامية تنظيرا وتأطيرا، ثم طالب بها فتحققت كلها بنجاح، ومن بعد ثورته إلى يومنا هذا لم تشهد إنجلترا أية ثورة.

أما نتشه(**) Friedrich Wilhelm Nietzsche (1844- 1900) فنجد أن المعرفة عنده تتحول إلى مرح حينما تبلغ العمق، وتبلغ درجة الإدراك التام لشتى تفاصيلها من قبل الإنسان.

لقد تحدث عن الفجر فقال فيه<< أنه كتاب إثباتي عميق، لكنه مشرف وودود، تلك الصفات ذاتها تنطبق أيضا ولكن بدرجة أرقى على المعرفة، في كل جملة منه تقريبا يسير العمق والنزق يدا بيد، وفي جو من الود الرقيق >>[2]

(1) إدغار موران: إلى أين يسير العالم؟، مصدر سابق، ص6.

(*) الثورة الإنجليزية: المعروفة بالثورة المجيدة Glorious Revolution أو ثورة 1688، أسفر عنها إعلان الحقوق الصادر عن البرلمان الإنجليزي عام 1689 الذي يضمن كرامة الشعب والعودة لإستشارته سياسيا وبالتالي القضاء على فكرة حق الملوك الإلاهي.

(**) نتشه: فيلسوف وكاتب وشاعر وملحن، وكذا عالم في التربية واللغويات، ألماني يعني ذو طابع موسوعي، أثر في العديد من الفلاسفة والمفكرين على غرار فرويد، هيدجر، سارتر، فوكو، دولوز وغيرهم الكثير، أعتبر من أبرز الممهدين لعلم النفس، تحدث كثيرا عن الوجودية والعدمية، له مجموعة من الأعمال البارزة أهمها هكذا تكلم زراديشت (1883- 1885) جينيالوجيا الأخلاق 1887.

(2) فريدريك نتشه: المرجع السابق، ص109.

لقد أكد نتشه على تعلمه من الجميع، لكنه في كل وقت وحين فطن إيزاء هذه المعرفة الجديدة التي أظيفت إلى رصيده، فهو القائل << أتعلم من الجميع ولكن لا أثق بأحد >>[1] محاربا بهذه الجملة الجهل والإستغباء والتدجين، ودعا إلى عقل منفتح وذهنية فطنة.

ولأنه يتعين على عملية المعرفة إستدعاء كل الأطراف المتصارعة والمتضاربة لكي نفهم بشكل جيد، سواء كانت معرفة بالطبيعة أو بالإنسان نفسه، فإن << التمثلات التقليدية للإنسان قد ساهمت في تجزيئه وتقسيمه حارمة إياه من الغنى المتعدد الأبعاد الذي يتمتع به، فهويته هي في الوقت نفسه بيولوجية وسيكولوجية وإجتماعية، يتعلق الأمر الآن وبشكل مستعجل بإعادة ربط ما شتتته علوم الإنسان والعلوم الكلاسيكية >>[2] .

إن هدف العلوم الإنسانية حسب ليفي ستروس[*] Claude L'évi strauss (1908-2009)هو تفكيك الإنسان وتجزيئه إلى قطع، بعكس ما يروج له من أن هدفها الأسمى هو الكشف عن الجوانب الحقة للإنسان ومعرفتها جيدا قصد فهمه بشكل جيد، وبالتالي التمكن من التعامل معه بشكل جيد، وبخلاف طرح ليفي ستروس، يضع إدغار موران طرح و مقترح مخالف، يريد فيه لملمة شتات الإنسان الضائع في العالم المضطرب والفوضوي، بعد أن إنقسمت روحه/نفسه، وجسده، وأصبح لكل منها عالم له حكمه الخاص الذي لا يلتقي مع العالم الثاني.

وللحديث قليلا عن ميدان العلوم الإنسانية، كبؤرة من بؤر المعرفة إنتاجا وإستهلاكا، نجد أن ظهورها لم يكن له تمهيد أو ضغط سياسي ولا أخلاقي ولا إقتصادي يفرض بقوة الضرورة أن يدرس الإنسان في كل حالاته وأوضاعه وظروفه.

---

(1) جون بونكلجهولم: ما وراء العلم، ترجمة علي يوسف علي، مصر، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المشروع القومي للترجمة، 1998، ص07.

(2) إدغار موران: إلى أين يسير العالم؟ مصدر سابق، ص ص5، 6.

(*) ليفي ستروس: هو فيلسوف وعالم أناسة، وعالم إجتماع، وعالم نفس وتربوي وكاتب فرنسي، درس الحقوق في باريس، ثم عمل في جامعة ساوباولو والكوليج دوفرانس، تأثر بمجموعة من الفلاسفة على غرار هيجل، ودوكايم، إهتم بوصف الأعراق البشرية، والبحث في اللغويات والطوطم، نال مجموعة كبيرة من الجوائز، أهمها ميدالية المركز الوطني للبحث العلمي الذهبية 1967، له أعمال بارزة أهمها الأنثروبولوجيا البنيوية بجزأيها الأول 1958 والثاني 1973.

إن الإنسان في العالم الغربي والعالم ككل، كان مجهولا ولا يعرف عنه سوى سفاسف الأمور، لكن حدث أن تساءل الإنسان عن نفسه، وتحديدا في العالم الغربي، فأحدث بذلك ضجة إرتفعت إلى المستوى المهذب والمنظم، فصنع لحظة قرار تولد عنها علم قائم بحد ذاته، هو العلوم الإنسانية(*) والتي فيها يكون الإنسان هو الدارس والمدروس في آن واحد، أي أنه هو المشتغل بدراسة نفسه دون فصل أوقطع.

<< إن أول ما يجب ملاحظته هو أن العلوم الإنسانية لم ترث حقلا معينا مرسوم المعالم، ومن الممكن أن يكون قد طرق، في خطوطه الكبرى، إنما بقي بورا يترتب عليها تطويره، إستنادا إلى مفاهيم علمية ومنهجيات وضعية >>(1) .

يرى ميشال فوكو(**) Paul-Michel Foucault (1926- 1984) أن العلوم الإنسانية منذ بدايتها الأولى ظهرت وعاشت في موقع متزعزع وخطر، وهي مهددة من قبل ثلاث جبهات تعتقد كل جبهة أن الأخرى سوف تنافسها، وتسلب منها موضوعها الرئيسي الذي تقتات منه وبه وعليه - وهو الإنسان- وهذا المثلث المقصود يحوي العلوم الإستنتاجية(***)، والعلوم التجريبية(****)، والفكر الفلسفي.

ذلك أن مكانة كل علم في حقل الإبستيمولوجيا تضعف وتتقوى بمقدار علاقتها بالإنسان والواقع وملامستها للمادة والتحقق، بيد أن هذه التكهنات النابعة من المستويات الثلاث السالفة الذكر لا أساس لها من الصحة، ولا يوجد ما يبررها بحسب فوكو، فلا يمكن لها الإنزلاق إلى حقل العلوم الإنسانية مطلقا إن هي لزمت مجالها الخاص.

(*) العلوم الإنسانية: هي دراسة لجماع الخبرات والنشاطات، والممارسات المتعلقة بالبشر، سعيا منها لتعميق وتعزيز معرفة الإنسان بنفسه ووجوده، إن هذه الدراسة تتميز بجمعها بين البعد التاريخي والواقع الحالي موظفة في ذلك مهارات النقد والتحليل والتفكيك والتركيب وقد تناولت مناهج عديدة الإنسان بالدراسة على غرار المنهج النفسي والروحي والتجريبي والعقلي...

(1) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع الصفدي وسالم يافوت وآخرون، بيروت، لبنان، مركز النماء القومي، 1990، ص283.

(**) ميشال فوكو: فيلسوف ونفساني وعالم إجتماع، ومؤرخ وعالم إنسان فرنسي كما أنه إشتغل في حقول الأدب، تأثر بالتيار البنيوي، وكتب بإهتمام كبير عن موضوع الجنون وتاريخه، كما عالج موضوعات الإجرام والسجون، له العديد من المؤلفات المهمة، مثل الكلمات والأشياء (1966)، حفريات المعرفة (1969) وكذلك ولادة العيادة (1963).

(***) العلوم الإستنتاجية: هي علوم تعتمد بالدرجة الأولى على العقل في إستنتاج المسائل والمعارف والحلول مثل الرياضيات والمنطق والفقه وغيرها.

(****) العلوم التجريبية: وهي جملة العلوم التي يعول المشتغل فيها وعليها على التجريب حتى يتبين حقيقتها ونجاعتها وكفاءتها، سواء كان هذا التجريب مخبريا بحت، أو معتمدا على الملاحظة الحسية، ثم إعطاء فرضيات تقريبية بخصوص مسبباتها، والإقتراب من تفسيرها، وأكثر العلوم التجريبية معرفة وتداولا عند الغالبية هي الفيزياء والكيمياء وعلوم الطبيعة والحياة، والطب والهندسة وغيرها الكثير.

كما يضيف<< أن الأنسنة هي في أيامنا هذه أخطر ما يهدد المعرفة من الداخل، فمن السهل الظن أن الإنسان قد تحرر من ذاته عندما إكتشف أنه ليس محور الخليقة، ولا محور الكون، ولا حتى ذروة الحياة وغايتها النهائية، لكن العلوم الإنسانية تبقى وسيطا خطيرا في حيز المعرفة >>(1) .

وإن لم يكن الإنسان سيد الوجود ولا مركزه، ولا المتحكم فيه بتعبير ديكارت، إذن فالتشكيل الإبستيمولوجي له تعقيدات تقع داخله، هذه الأخيرة أسست لعلاقات ثابتة للأبعاد الثلاث السالفة الذكر، وهو ما سوف يحدد موقعها ودلالتها وثقلها، كل هذا أيضا هو ما يشكل الخطر المحدق على العلوم الإنسانية، ويهدد أمنها وإستقرارها وعلاقاتها الحسنة والمضطربة مع العلوم الأخرى، وهو ما يزيد كذلك صعوبة في الفهم، وحصار المعنى وإقتياده إلى مستوى الإدراك المطلوب.

إن البعد الرياضي أو الرياضيات هي العلم الأكثر ودا وحميمية مع العلوم الإنسانية من الأبعاد الثلاثة السالفة، ذلك أنه لم توجد بينهما في- عملية إقحام الرياضيات في مجال العلوم الإنسانية- أدنى شرارة أو تعارض سلبي أو عدم تقبل.

و عليه فإن العلوم الإنسانية تحاول دراسة الإنسان، بما هو إنسان حي، واع، قادر، فاعل، صانع، مدرك، ناطق... و بهذا تكون عبارة عن إمكان من بين الإمكانات الأخرى التي تطرحها العلوم الباقية كالبيولوجيا(*)، وفقه اللغة(**)، النفسانوية(***)...، إن حقول المعرفة متداخلة جدا فيما بينها، ومن العسير الفرز بين حدودها، وإن إمكانية ضبط جغرافية كل منها بمعزل عن الثانية، تدخل الباحث مرحلة الخطر المحدق، وإحتمال الخطأ في عملية إشتغاله بهذه الفكرة مرتفعة جدا.

(1) ميشال فوكو: المرجع السابق، ص285.

(*) البيولوجيا: وتعني علم الحياة، أي العلم الذي يشتغل بالتجريب على الكائنات الحية المختلفة.

(**) فقه اللغة: هو ميدان تعليمي يسعى لفهم اللغة من حيث أصلها و أبعادها و أدبياتها وحقيقتها و كيفية التعامل معها (قواعد- صرف- بلاغة- رؤية).

(***) النفسانوية: معناها علم النفس، وهو العلم المختص في دراسة النفس البشرية من كل جوانبها وأبعادها بغية فهم تعقيداتها وتشابكها، وبالتالي فهم تصرفات وطابع الإنسان ككل.

<< الإنسان بشكل عام في نظر العلوم الإنسانية، ليس ذاك الكائن ذو الشكل المميز، بل هو ذاك الكائن الذي يكون داخل الحياة التي ينتمي إليها بكل جوارحه تمثيلات يعيش بفضلها، ويمتلك خلال تلك القدرة الغريبة على تمثيل الحياة بالذات >>(1) .

لا يمكن كذلك عند التعرض لموضوع المعرفة الغزير والعميق، ألا نطرح قضية الدين، بإعتبارها من أقوى وأغنى القضايا المعرفية على الإطلاق المصاحبة للإنسان منذ وجوده الأول على سطح الأرض وإرتباطه بالمقدس أو المعبود، قبل أن يتخذ الدين من حيث الدلالة مناح وتوصيفات جديدة مضافة على تخصصات حديثة ومعاصرة.

والدين بشكل عام من ناحية المكانة قد شهد عبر التاريخ لحظات متذبذبة ومهتزة، لكنه في كل مرة كان يثبت مدى قوته في التحمل والصمود أمام رافضيه في شتى ملامحه وتمظهراته ومقولاته، لكن اللحظة التي يمكن فعلا أن تشهد زحزحته الكلية والنهائية من المركز وهروبه الذليل إلى الهامش هي فترة العصر الحديث كما يرى برتراند راسل، حيث تضاءلت سلطة الكنيسة، وتزايدت سلطة العلم<< فثقافة الأزمنة الحديثة ثقافة أقرب إلى الثقافة العلمانية منها إلى الثقافة الدينية >>(2) .

وهذه الخطوة تعد بصمة ذات طابع سلبي، إذ من خلالها إستغل الملوك والرؤساء الحكم، فظهرت شتى أشكال الإستبدادات، وهو ما دق ناقوس الخطر مرة أخرى على حياة وحرية الشعوب، إذ ما فتئوا يخرجون من مأزق حتى وقعوا تاريخيا في مأزق أشد سمكا وصلابة منه.

إن العدو الأول للدين بإجماع الفلاسفة والعلماء هو العلم، وهو نفسه التوجه الذي يصطدم به العلم عند مسائلته عن عدوه الأكثر شراسة وضراوة، فيجيب بأنه الدين بكل تأكيد، ذلك أن علماء الدين أو القساوسة(*) كثيرا ما إنتقدوا العلم الطبيعي ونتائجه، فتجد على سبيل المثال القديس أوغسطين<< قد عبر عن هذا الرأي خير تعبير، عندما رأى بأنه

(1) ميشال فوكو: المرجع السابق، ص289.
(2) عبدالله العمر: ظاهرة العلم الحديث، سلسلة عالم المعرفة، رقم 69، سنة 1983، ص56.
(*) القساوسة جمع قس: وهو المكلف بإدارة شؤون الكنيسة موعضة وتوجيها وإصلاحا وإرشادا وإستشارة وكذا تأليفا وتحقيقا وتنظيرا...إلى آخره.

سواء كانت الأرض مركزا للسماء أو كانت في هذا الجانب من السماء أو ذاك، فإن ذلك لا يضير ولا يجدي نفعا >>[1] .

ولقد دعا نتشه في هذا السياق إلى مطاردة الإستغباء والجهل وتحريك العقل نحو أفق الوعي والتفتح والإدراك، في كل الميادين التي يخوض فيها الإنسان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بما في ذلك الدين، فليس حسب نتشه لأنه الرمز المقدس في حياة الإنسان، لأنه من المستحيل أن يكون ذو مضمون مشكوك فيه، لقد قال في هذا الصدد:<< أنا ضد الحمار بامتياز، ومعه أنا وحش تاريخي عالمي، أنا في اليونانية ولكن ليس في اليونانية فقط، ضد المسيح >>[2] .

إن كلمة حمار المقصودة هنا في قولة نتشه تعني الإله، أي هذا المؤله المعبود من طرف الجميع، الصغير والكبير، الملك والرعية، الأحرار والعبيد، جميعهم دون استثناء يسجدون له، ويقدمون القرابين ويحرصون على خدمته ليل نهار، وهو رمز موجود في الكتاب القديم(*).

في كتاب ثقافة أوروبا وبربريتها تحدث إدغار موران عن موضوع الدين، وكيف تعاطت معه أوروبا طيلة تاريخها الطويل، حيث أشار إلى مصطلح الترياق والبربرية، وهما بلا شك مفهومان متناقضان عدوان لبعضهما البعض.

<< وتوجد أيضا بربرية دينية يجب التطرق لها الآن، في العالم القديم كان لكل شعب من شعوب الشرق إلاه حربهم الذي لا يرحم الأعداء، ومع ذلك سمح تعدد الآلهة بالتعايش بين مختلف الآلهة >>[3] .

(1) عبد الله العمر: المرجع السابق، ص28.
(2) فريدريك نتشه: عدو المسيح، ترجمة جورج ميخائيل ذيب، بدون طبعة ولا بلد ولا سنة، ص18.
(*) الكتاب القديم: هو الجزء الأكبر من الكتاب المقدس، يحتوي على كتب اليهود- التوراة- ومواضيع الأسفار المختلفة، ويقسم العهد القديم لدى اليهود إلى التوراة التي تحتوي خمسة كتب تنسب إلى موسى والأنبياء، أما عند المسيحيين، فيقسمون الأسفار إلى التوراة التي تحتوي أسفار موسى الخمسة بالإضافة إلى أسفار الأنبياء والحكمة.
(3) إدغار موران: ثقافة أوروبا وبربريتها، ترجمة محمد الهلالي،الدار البيضاء، دار توبقال للنشر والتوزيع، 2005، ص10.

لقد كان الدين أو الممارسة الدينية أحد أشكال الهيمنة والغطرسة وتكريس للبربرية على الشعوب والجغرافيات، كانت تحكم به، وتفصل في المسائل بإسمه، فأضحى شعارا للبطش والجور والدم الذي يعبر عن رأي الإلاه الذي بإسمه تتم الأمور، ولكن في المقابل أنتجت أوروبا أيضا شكلا مخالفا لكل هذه السمات من الآلهة، يمتاز باللين والرحمة والود و التسامح الأمر الذي ولد ترياقا مضادا للأول، وسمح بإفشاء وإرساء نمط من التوازي والتوازن بين القوى، ما جعل الحياة الحضارية لهما تبقى وتستمر لوقتنا هذا.

وفي موضع آخر من مؤلفاته أيضا تحدث موران عن الإرتباط الشديد والملح للإنسان بعالم الدين الميتافيزيقي، خاصة مع البشرية الأولى وعلاقتها بالظواهر النفسية المجردة، وكيف أن مجموعة من المؤرخين المختصين بعصور ما قبل التاريخ قد تمكنوا من العثور على مدافن حقيقية في الكهوف والمغارات، وأنها << ليست للوقاية من روائح الأجساد البشرية بعد أو أثناء تحللها، ولكنها كانت حفائر تم حفرها لتوضع فيها القرابين>>[1].

(1) إدغار موران: تحديات القرن الحادي والعشرين، مصدر سابق، ص542.

ليعود مرة أخرى ويؤكد على الطابع المركب للدين في الحضارات القديمة، مدللا على ذلك بمثال من الحضارة اليونانية للإلاهين أبولون(*)Apollon و ديونيزوس(**) Dionisos، الأول رمز الإعتدال والثاني رمز الإفراط، في إقتتال دائم ومستمر بينهما، ما يجعل هذه الثنائية تكمل بعضها البعض، وتوضح قولة هيراقليطس<< وحدوا بين ما يجمع وما يفرق>>(1).

3/ مغامرة المعرفة بين شيفرتي الأزمة والمنفرج

أعتقد أنه من الضروري الإشارة إلى موضوع الوثوقية أو الإنغلاقية أو ما تعرف بالدوغما(***)، في سياق الحديث عن المعرفة، بوصفها فكرة خاطئة وخطيرة، وعقبة كبيرة في طريق الباحث عن المعرفة وصانعها، لأن<< من يعتنق فكرة يراها تفسر كافة المواقف، يصعب دائما النقاش معهم، حيث يكونون على إستعداد لطحن أي موضوع في طاحونتهم الذهبية، فمن الشائع صعوبة النقاش مع أتباع فرويد(****) Sigmend Freud (1856 -1939)، فهم مستعدون إلى تقديم تفاسيرهم لأي إعتراض لك >>(2).

وهو مثال صالح لكل الأفكار والفلسفات والمعتقدات التي تلفهم الدوغمائية لفا كاملا ونهائيا، على شاكلة المدرسة التطورية وتفسيرها الشامل والمطلق لعلم البيولوجيا، وكذا الإشتراكية في الإقتصاد والسياسة وغيرها الكثير.

(*) أبولون Apollon: إلاه إغريقي قديم، يعتقده الإغريق بأنه المكلف بالشمس والموسيقى والرماية، وحالة السلم، إنه المعني بالشفاء، والعناية بالحيوانات، ورمز الجمال والرجولة الخالدة، يتم التواصل معه عن طريق الكاهنة بيثيا كوسيط بينه وبين البشر.

(**) ديونيزوس Dionisos: وهو إلاه الحرب في الميثولوجيا الإغريقية، كما أنه إلاه الخمر والنشوة والإبتهاج، كان يشجع على القتل والدم، وإنتشار شهوات الموت وطقوس الحزن والبكاء، وكانت الإحتفالات كبيرة عندما تقرع طبول المعارك والحروب، وتشعل النيران طلبا لتلبية الصدامات وإثارة العنف.

(1) إدغار موران: ثقافة أوروبا وبربريتها، مصدر سابق، ص10.

(***) الدوغما: هي حالة يتجمد فيها الفكر، فيصبح الإنسان متعصبا لأفكاره وواثقا من صحتها ومصداقيتها، ولا يرضى مطلقا أن يستمع لرأي مخالف لها، بل سيتطور الوضع ليس إلى الإعراض عنها فحسب، بل محاربتها بشتى السبل أيضا، وتعود تسميتها إلى الأصل اليوناني الذي يعني الرأي أو الإعتقاد الواحد الذي لا يقبل التعدد والإختلاف.

(****) فرويد سيغموند: هو فيلسوف نمساوي من أصل ألماني يهودي، إهتم بالتحليل النفسي وطب الجهاز العصبي. يعتبر مؤسس التحليل النفسي، إشتهر بنظريات العقل واللاوعي، له اعمال كثير منها مستقبل وهم، السيكولوجية النفسية، ما فوق مبدأ اللذة.

(2) جون بولكنجهوم: المرجع السابق، ص110.

إن مسألة المعرفة مرتبطة أشد الإرتباط بمسألة البيولوجية أو الحياة، ،و هناك من الفلاسفة والعلماء من دعوا إليها، على غرار دلتاي(*) Wilhelm Dilthey (1833-1911) الذي يقر بأن<< العمليات الأساسية للمعرفة تنبع من الحياة >>(1) وبالتالي فالفكر عاجز عن تجاوزها تماما، كما أن هوسرل(**) Edmund Gustav Albecht Husserl (1859- 1938) إعتقد أن جل الأفكار والمفاهيم والنظريات المتواجدة لدى الإنسان الفاعل والواعي تكون جذوروها مستمدة من عالم الحياة Le benswelt وهذا العالم تمثله التجربة السابقة لكل توصيف وتحليل، ولكنه عجز عن تصور عالم الحياة هذا، الأمر الذي جعله غير قادر عن تحديد أصل المعرفة ومصادرها.

لقد بكر فكر بياجي(***) Jean William Fritz Piaget (1896- 1980) في الإقرار بالأصل الحي للمعرفة عن طريق مسائلته للبيولوجيا في سعي منه إلى تصوير<< التقابلية البنيوية القائمة بين التنظيمات البيولوجية والمعرفية >>(2)، قبل إكتشاف النشاط الحوسبي للكائن الخليوي المشكل لمصدر المعرفة والإستيعاب، فالحوسبة الحية تنتج الحياة، ثم تستجيب لطلبها، أي طلب الحياة نفسها المتمثل في المشاكل التالية:

إنتاج الذات ⟷ إعادة إنتاج الذات، العيش ⟷ البقاء.

ولأن البشر هم صناع الآلة الصناعية بأشكالها الفائقة التعقيد والذكاء والتطور، فإننا سوف نجد في المقابل إنقسامات البكتيريا لتشكيل آلة حية منذ القدم هي الأكثر تطورا وتقدما طبيعيا من سابقتها على الإطلاق.

(*) دلتاي: فيلسوف ومؤرخ ونفساني وتربوي وعالم إجتماع ألماني، يعتبر الممثل المباشر والأساسي للحركة المابعد هيجلية، إستخدم الأفكار الكانطية لتفسير علوم الروح أو العلوم الإنسانية من خلال الوعي بتاريخية الوجود، لأن عالم الإنسان حسبه هو عالم التاريخ.

(1) إدغار موران: المنهج: معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص57.

(**) إدموند هورسل: فيلسوف ألماني، مؤسس النظرية الظاهراتية، إهتم بالرياضيات والفلسفة وعلم النفس، أثر في العديد من الفلاسفة مثل ماكس شيلر، وجون بول سارتر، وإيمانويل ليفيناس، له مجموعة قيمة من المؤلفات أهمها مقدمة عامة لفلسفة ظاهرية خالصة (1913) وكذلك أزمة العلوم الأوروبية والظاهريات المتعالية (1936).

(***) جان بياجي: عالم نفس وفيلسوف ومنطقي سويسري، كتب بالفرنسية إهتم بنظرية المعرفة عند الأطفال وكيفية تطورهم، يعد رائد المدرسة البنائية في علم النفس، ألف مجموعة كتب أشهرها اللغة والفكر عند الطفل(1923)، وكذا الحكم والإستدلال عن الطفل (1924).

(2) إدغار موران:المنهج: معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص58.

لوهنا يقول:<< تدخلنا معرفة الحياة بشكل حميمي فارق إلى حياة المعرفة، الحياة باعتبارها سيرورة، هي سيرورة المعرفة >>[1].

وهذا في حديثه عن شأن بيولوجيا المعرفة، تحت شعار أطلقه وهو أن تعرف هذا يعني بالتأكيد أنك تحوسب، فالمعرفة حسبه حوسبة[*] مذهلة للآلة الحية الطبيعية - الإنسان- وعليه فإن الفكر البشري ينطلق من البيئة التي ظهر فيها إلى العالم الكبير والفسيح، في محاولة منه لإكتشاف عالم المعرفة عن طريق ذاته الخاصة.

أي أن الإنسان في شقه الجسماني الحيواني المختلف كليا عن الكائنات الحية المتواجدة على سطح الأرض، يعيش حالة إكتشاف وتطور كبيرين فهو بنموه وتغيره وتطوره من حالة الضعف والعجز إلى حالة البلوغ والقوة، يكون قد إنتقل من البيئة الصغيرة الخاصة والمغذية إلى العالم الكثيف والمركب والمعقد، والمتشعب، وهذه الحركة بالذات هي التي تجعل الإنسان بعقله الواعي وجهازه الحيواني[**] النامي يفهم جيدا العالم، ويشكل معرفة ثقيلة ومتراوحة حوله.

<< هكذا تبدو لنا إنسانية المعرفة على أية حال همزة وصل متينة بين إنسانية المعرفة وثقافيتها >>[2].

تعاني المعرفة من مشكلة التنظيم، إنها تحاول في كل مرة فرز المعطيات المعلوماتية عن طريق تقسيمها وتعبئتها ثم تخزينها إن رأت أنها ناجعة وضرورية، كما تقوم بقص وتمزيق ورمي بعضها الآخر إن وجدته غير خدوم، وليس بذي جدوى، وهو أمر خطير لأنها تعتمد منطقا محددا يطبعه الإقتصاء والإختزال، فكل المعارف ضرورية ولها تأثير ويمكن أن تفيد إذا ما وظفت بالطريقة التي تجعلها مترابطة مع غيرها، فيكتمل بذلك معناه.

---

(1) إدغار موران: المصدر السابق ، ص75.

(*) حوسبة: كلمة أطلقت في البداية على حساب الأعياد غير الثابتة، ثم بعد ذلك أضحت عملية أساسية في المعلوماتية، ويراد منها أن كل العمليات والطرائق التي يقوم بها الإنسان إنما ترد إلى ذهنية حسابية دقيقة أقدمت عليها.

(**) الجهاز الحيواني: هو الجسم المادي الذي يشترك في خصائصه مع بقية الكائنات الحية الأخرى، مع مراعاة الإختلافات بينها وبين الإنسان.

(2) إدغار موران: المصدر السابق، ص348.

يوظف موران مثالا حيا حول إنتقاء وإقصاء المعارف بلحظة كوبرنيك[*] Niklas Koppernik (1473- 1543) وبطليموس[**] Claudius Ptolemy (100م-170م) حول مسألة الأرض، حيث أقر الثاني بمركزيتها في قبال هامشية الشمس، ليكون الأول قبله قد دعا إلى نقيض ذلك تماما وقلب القضية بالعكس، والأمر ليس بهين أبدا ولا تافه، بل في غاية الأهمية والثقل، ذلك أن هناك مصائر حددت على إثر الواقعة، وعلوما وإحداثيات وعقليات تغيرت، وبالتالي علينا أن نكون واعيين بحقيقة وعمق وتشعبات المعارف القديمة والحديثة، وأن نتجنب الأفكار الإختزالية التي تجعل الفرد أو الجماعة أو الجماد أو أي كان يختزل في صفة واحدة على غرار الغولاغ[***] الذي يعد نظام إعتقالي تبناه الإتحاد السوفياتي أيام الحرب مع الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه عند ذكر اللفظ يذكر إسمها، الأمر الذي خلق نظرة أحادية ظالمة وصارمة لها من خلاله << لذلك يجب أولا الوعي بطبيعة ومخلفات المنظومات التي تشوه المعرفة وتمسخ الواقع >> [1].

إن المعرفة كذلك تعاني من مرض- باطولوجيا المعرفة - ألا وهو العقل الأعمى، الذي ظهر حسبه في الفترة الحديثة بشكل بارز وفاضح، وبالتحديد عند ديكارت، الذي صاغ منظومة جديدة مبنية على عقلية الفصل والإختزال والتجريد والتبسيط، وهو بهذا سماها منظومة التبسيط، وذلك عندما فصل لأول مرة بين الذات العارفة المفكرة الدارسة، والشيء أو الموضوع المدروس، فتلاه مباشرة فصل ساحق بين العلم والفلسفة.

وقد يتأمل متأمل فيقول مالضير في الموضوع؟ إنه مجرد فصل بسيط وبالعكس سينمي جانبي العلم والفلسفة بالتفاصيل كل على حدى، ولكن المتتبع لمجريات تاريخ العلم والمعرفة سيجد أنه في القرن العشرين بدأت تظهر بشكل جلي تبعات هذا الفصل، حيث

(*) نيكولاس كوبرنيكوس: عالم فلك وفيزيائي ورياضياتي، وإقتصادي وفيلسوف ومحامي بولندي من أصل ألماني ذو طابع موسوعي، أول من صاغ نظرية مركزية الشمس، مؤسس علم الفلك الحديث، له مجموعة من الكتب أهمها دوران الأجرام السماوية (1539).

(**) بطليموس كلوديوس: جغرافي وعالم فلك وشاعر يوناني صاحب نظرية النظام القائم على ثبات الأرض ومركزيتها وأن الأفلاك والأجرام هي التي تدور حولها، له كتاب المجسطي وتعني الأعظم باليوناني وألفه عام 140م.

(***) الغولاغ: هو معتقل سيبيريا، هو إسم يطلق على معتقلات المعسكر السوفياتي، المشيد عام 1918، يتعرض سجناؤه إلى أشد أنواع الظلم والقمع والتعذيب، في غالب الأمر لا ينجو منه أحياء إلا القليل.

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، مصدر سابق، ص15.

تقلص التواصل بين المعرفة العلمية الصارمة والفكر الفلسفي بشكل مخيف، ما أدى إلى حرمانهما من بعضهما مما يزخر كل منهما.

ثم إن المعرفة تكون بحضور ثلاثة حقول هي الفيزياء والبيولوجيا وعلم الإنسان أو الأنثروبولوجيا في حلقات تحتوي وتحتضن بعضها داخل بعض، و إن هذا الفصل في المعرفة قد فصل الحقول الثلاثة عن بعضها، فتمزق النسيج المركب الذي كان يجمعها، ففقدت معرفة ذلك المركب أو الرابط ومعناه ووظيفته في إحقاق الفهم.

<< إن الفكر التبسيطي غير قادر على تمثل الوصل بين الواحد والمتعدد (الوحدة المتعددة) فإما أنه يوجد بشكل مجرد من خلال إلغاء التنوع، أو العكس من ذلك يضع العناصر المتنوعة جنبا إلى جنب من دون تمثل الوحدة >>(1) .

وهذا ما يجسد العقل الأعمى المنغلق والمتقوقع على ذاته يأبى الإنفتاح، وهذا الأمر الذي له نتائج خطيرة على مستوى الظواهر الإنسانية من حيث تأثيرها على أصحاب السلطة والنفوذ الذين يؤمنون به وبنتائجه، فينشأ عن أي إعتراض عليه- العقل الأعمى- سكب الدماء وإنتشار المعاناة بكل أجنحتها.

إذن فالعجز على فهم تعقيد الواقع الأنثربو(*) إجتماعي على المستويين المصغر (الكائن الفردي) أو المكبر (المجموع الكوكبي) يؤدي إلى مآس لا حصر لها، يدفع ثمنها الجميع، فلا مفر من الإشتغال بالإستراتيجية المركبة للمعرفة التي تقوم على مبدأ اللايقين(**) والإحتمال والصدفة.

وبالحديث عن نقطة ضعف المعرفة نقول انها بصفة عامة تعاني من تدخلات خارجية تفسد عذريتها وتشوهها، وتغير ملمحها الأصلي، حيث أنها تتعرض بصفة مستمرة للخطأ والوهم الذي ينتج عن الذات وبالتحديد من العاطفة والوجدان اللذان

(1) إدغار موران:المصدر السابق، ص16.

(*) الأنثربو- إجتماعي: هو لفظ مركب يستخدمه كثيرا إدغار موران ليدلل على العلاقة الوثيقة التي تجمع الإنسان في تشكيلاته وتمثلاته المختلفة بمجتمعه الذي ينتمي إليه، والذي أنتجه قبل والذي سوف ينتجه هو الآخر بعد حين.

(**) اللايقين: هو مبدأ أساسي من مبادئ نظرية التعقيد عند موران، ويقوم عل حقيقة أنه لا يوجد شيء ثابت ويقيني ومطلق ونهائي وخالد لهذا الكون، بل إن كل شيء يقوم على اللايقين والصدفة والتنوع والتعدد والإختلاف والتغير، وهنا نلحظ التأثر الشديد بهيرقليطس كما ذكرنا سابقا.

يتدخلان في عمل العقل الذي ينتج أو يستقبل المعرفة، بالإضافة إلى التأويل الذي تمارسه الذات على الموضوع، فالإنسان عندما يدرك الأشياء من حوله- في العالم الخارجي- فإن هذه<< الإدراكات هي في الوقت ذاته ترجمات وإعادة بناء يقوم بها الدماغ إنطلاقا من مثيرات أو إشارات تلتقطها الحواس وتقوم بتشفيرها، وهذا ما يفسر الأخطاء العديدة للإدراك الناتجة عن الرؤية التي هي مع ذلك حاستنا الأكثر مصداقية >>(1) .

إذن فهناك خطآن يسببان نقطة ضعف المعرفة هما الخطأ الإدراكي المسؤولة عنه الحواس بالدرجة الأولى، والخطأ العقلي المرتبط بالتأويل الذاتي الذي يكون محكوما هو الآخر بمجموعة من المسببات كالرغبة والخوف والإختلال، وهي لا تتوقف عن التجديد داخل المعرفة مطلقا.

إن هذه العمليات التي تتم بصورة دائمة ومستمرة، تجعلنا نعي جيدا أن المعرفة متصفة باللايقين، نقيض هذا الأخير تفرضه المعرفة البسيطة الصارمة الجزئية لأنه يقتلها ويمحوها، بينما ترحب به المعرفة المركبة المعقدة لأنه يحييها.

<< علينا أن نفهم أنه من الضروري توفر شروط بيوأنثربولوجية(قدرات الدماغ ⟷ الفكر البشري)، وأخرى سوسيوثقافية (الثقافة المفتوحة التي تسمح بحوار الأفكار وتبادلها) وشروط فكرية (النظريات المفتوحة) إذا ما أردنا طرح التساؤلات الحقيقية، أي التساؤلات الأساسية حول العالم والإنسان والمعرفة ذاتها >>(2) .

ولهذا فإن البحث عن الحقيقة يفرض بالضرورة بناء ميتازوايا(*) للنظر، أي عدة زوايا بأبعاد مختلفة، يتأتى من خلالها للمعرفة الإرتداد على الذات العارفة نفسها، ولإحقاق هذا شدد على ضرورة إخضاع الذات للنقد والنقد الذاتي، والإنفتاح على كل الممكنات والمتاحات، لنصل إلى أن مشكلة المعرفة عند التشريح هي مشكلة أنثروبولوجية

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل: مصدر سابق، ص22.
(2) إدغار موران: المصدر السابق ، ص32.
(*) ميتازاويا نظر: كلمة مركبة إستعملها موران مريدا منها إفهام أن مسار الفكر الصحيح، يجب أن يحتوي على هذه الصفة، التي تقوم على إحتضان كل الرؤى والنظريات الممكنة على إختلاف توجهاتها ومشاربها حتى نحدث رؤية تركيبية تلامس ماهو قريب إلى الصواب.

وسياسية وإجتماعية وتاريخية، مما يجعل البشرية تنتفض رجالا ونساءا ضد التحكمات الممارسة عليها فكريا وجسديا.

والخلاصة تقول أن المعرفة المجزأة أو المخصصة هي معرفة مبتورة عن علاقاتها بإمكانات ومتاحات أخرى تثريها وتغنيها وتجعلها أقوى وأصدق.

و مثالها في الإقتصاد، فباعتباره العلم الإجتماعي الأكثر تقدما لعلاقته الوطيدة بالرياضيات، أضحى اليوم العلم الأكثر تخلفا، وهذا بسبب قطع علاقته بالمجالين الإجتماعي والإنساني، ومن ثم تجرده من الشروط الإجتماعية والتاريخية والنفسية والبيئية والسياسية، ما جعل الخبراء والمختصين فيه يعجزون عن تفسير أسباب ونتائج البورصات، وكذا العملات، ومنه العجز عن التكهن والتنبؤ بالأحداث الإقتصادية قبله << وكما قال غلبرايت، إن الوظيفة الوحيدة للتوقعات الإقتصادية هي أن نجعل الإقتصاد في صورة تدعو إلى الإحترام >>[1] .

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية؟، مصدر سابق، ص52.

4 /حضور الفلسفة في عرين المعرفة إنتاجا وإستفهاما ونقدا

أعتقد أنه من الخطأ الفادح أن نستغني عن الحديث حول الفلسفة في صرح المعرفة الشاسع، وذلك لعدة أسباب منها، أن الموضوع المحوري الذي يعالج بالدراسة هو موضوع فكري فلسفي- التعقيد- وأن الفلسفة كانت منذ البدأ أعظم منتجات المعرفة على الإطلاق وحتى بعد إنفصال العلوم عنها لازالت تقاوم وتعطي الجديد دائما، إنها لخطوة في غاية الضرورة أن نتعرض للفلسفة، بوصفها الجامعة للأفكار، وهي تخصص صاحب الدراسة وتخصص المفكر، فكان كل هذا يشكل خطوة لابد منها.

إذا أردنا أن نعطي لمحة عن منشأ الفلسفة، فإننا سنجد أنه قد حدث جدال واسع حول الموضوع، فهناك من قال أن موطنها بلاد اليونان، في حين يرى البعض الآخر أنها أقدم من ذلك.

وقد ظهرت في الشرق القديم(*) بكيفيات وتفاصيل مختلفة، سواء إرتباطها المباشر بالدين وطقوسه، أو إنفصالها الواضح عنه.

إلا أن أرسطو(**) Arestotle (384 ق م- 322 ق م) كان السباق في ربطها ببلاد اليونان، وذلك حينما صرح بأن << طاليس هو مؤسس ذلك الضرب من التفلسف، يقصد الفلسفة الطبيعية، وهكذا جعل الفلسفة تبدأ بالمدرسة الملطية- طاليس ومدرسته- في القرن السادس قبل الميلاد، في حين أن ديوجنيس الإيرتي أول من أشار إلى أن الفلسفة نشأت عند الشرقيين القدماء>>(1).

ثم إن الفلسفة تكتسي أهمية كبيرة من حيث الدور التنويري والتوعوي وزيادة الإنتباه ورفع مستوى الفهم الذي تحدثه على مستوى الفرد والمجتمعات<< صحيح أن الفيلسوف لا

(*) الشرق القديم: وهو مصطلح يفيد الرقعة الجغرافية التي ظهرت فيها مجموعة من الحضارات المتقدمة، في العلم والعمران والسلاح، وهو يضم الشرق الأوسط مع الحضارة الفرعونية وقبلها حضارة بلاد الرافدين والحضارة الفارسية وغيرها، والشرق الأدنى الذي يضم حضارات جنوب آسيا الذي ظهر فيها العصر البرونزي والحديدي.

(**) أرسطو: فيلسوف موسوعي الطابع فهو طبيب وعالم فلك وسياسي ورياضياتي، وفيزيائي، وجغرافي...، تلميذ افلاطون، أحد أهم مؤسسي الفلسفة الغربية، لديه مجموعة كتابات متنوعة في المنطق والفيزيقا والميتافيزيقا والأخلاق وغيرها.

(1) جوني كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة،رقم 199، 1978، ص7.

يحتل دائما مكانة مشهودة في الحياة اليومية، وقدره في الأغلب أن لا يفهمه القوم إلا بعد موته، وإن كان التاريخ قد عرف فلاسفة ذاقوا طعم المجد في حياتهم مثل أفلاطون

وتوما الإكويني(*) Thomas Aquinas (1225م- 1247م) وهيجل وبرجسون(**) Henri Bergson (1859-1941) >>(1) ، إلا أن مجتمعهم تقبلهم فقط لأنه فهم سياق أفكارهم بالإسقاط على الأحداث الحاصلة والراهنة في تلك الفترة دون فهم الأبعاد المستقبلية لها.

يجب أن ندرك أن مهمة الفلسفة في ظل التحولات السريعة والجريئة التي شهدها العصر بسبب تطور التقنية والإرتباط الشديد بالآلة، أضحت أكثر عمقا وضرورة وصعوبة، ولكي نفهمها – المهمة - بوضوح كان لزاما أن نجيب على أسئلة جذرية تخدم الوضع على غرار << ما موقف الإنسان من العالم المحيط؟ (أو علاقة الإنسان بالعالم المحيط)، وهل بإمكان الإنسان أن يعرفه ويحوله >>(2) .

فهذا جوهر المسألة الأساسية للفلسفة باعتبار أنها لن تنشغل بعد الآن بالطوباوية الثانوية في حين تترك الواقع العيني الأهم الذي يفرض نفسه بقوة، فالمهمة بالتالي هي مهمة حماية الإنسان والعالم من الإنسان والعالم المضادين نفسيهما.

إن الفلسفة تتغذى لتنمو وتتطور على الصراع الكثيف والمستمر الذي يحدث بين الرؤى والأفكار عبر التاريخ، مترجمة في حروب وإجتياحات وملاحم منذ الحقبة اليونانية وربما أكثر قدما من ذلك إلى غاية يومنا هذا.

(*) توما الإكويني: فيلسوف وكاهن وعالم دين وكاتب كاثوليكي، إيطالي، إهتم بالمنطق والسياسة والأخلاق والعقل، تأثر بمجموعة من الفلاسفة المسلمين من أمثال الغزالي والكندي وإبن رشد بالإضافة إلى فلاسفة غربيين كثيرين على شاكلة أرسطو وأوغسطين...إلخ، كما أثر هو الآخر في شخصيات بارزة مثل جون لوك، لديه كتب متنوعة منها الخلاصة اللاهوتية، عن الخلق والخالق.

(**) برجسون: فيلسوف وعالم إجتماع فرنسي، متحصل على جائزة نوبل للآداب عام 1927، من أهم فلاسفة العصر الحديث حينما حاول إنقذ القيم التي سقطت ضد الحرب المادية، والعودة إلى الطاقة الروحية التي تسكن الإنسان، ألف التطور الخلاق، والطاقة الروحية، وكتاب الضحك.

(1) إ . م بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، رقم 165، 1978، ص16.

(2) راكيثوف: أسس الفلسفة، ترجمة موفق الدليمي، موسكو، دار التقدم، ط1، 1989، ص22.

<< إن إرث الفلاسفة ليس سوى ثمرة لمحاولات الإنسانية، فالقيم الإنسانية تولد وتتأكد في خضم هذا التمزق >>[1].

وبالعودة إلى المبدأ، نجد أن الحديث عن الفلسفة سيقودنا حتما إلى الحديث عن حالة التيهان والضياع الذين يقاسيهما المشتغل بها، ليس من حيث موضوعاتها التي تطرحها تارة، وتحاول معالجتها طورا أخرى فقط، بل أيضا من حيث محاولة فهم نقطة المنطلق الأولى فيها ومنها، وهي ما الفلسفة؟

إن هذا السؤال الكبير والمحرج الذي يصطدم به الكثير من الفلاسفة والمفكرين جعلهم يبدعون في تحليل و إيضاح معنى هذا الإشكال، فنجد إدغار موران يجعلها المأوى الآمن والدافئ والأخير لهذا العالم الجليدي البارد، إنها مأوى التأمل العقلي والنقدي الخلاق، لكنها في الحقيقة لا تملك إجابات قاطعة عن أي شيء كما هو الحال مع العلم لا يمكنه أن يملك إجابات قاطعة عن كل شيء، بل حتى عن أي شيء، ثم إن إمتزاج العلم بالفلسفة سوف يعطينا جرعة وعي كافية لنفهم المسار الصحيح للعلم ذاته، لأن العلم لا يعي بجد مساره وتوجهاته، لذلك << هناك للأسف داخل عالم العلماء محافظة وإشباع كبير يحجب عنهم السؤال الرهيب أكثر فأكثر، إلى أين يتجه العلم؟ >>[2].

أما نتشه فنجده يقر بأن محاولة إعطاء تعريف مضبوط ونهائي لها هو بمثابة الإقدام على عمل شيء مستحيل، ولكن إستطاع أن يجعلنا نفهم أن العقل الفلسفي لكي يظهر إلى العلن كان لزاما عليه أن تتحد فيه مسألتان في غاية الأهمية هما الكلمة الجامعة والقصيدة و<< هذان الشكلان بالذات يستتبعان تصورا جديدا للفلسفة، صورة جديدة للمفكر والفكر >>[3].

(1) بيير دوكاسييه: الفلسفات الكبرى، ترجمة جورج يونس،بيروت، لبنان، منشورات عويدات، ط3، 1983، ص188.
(2) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص112.
(3) جيل دولوز: نتشه، ترجمة أسامة الحاج، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص19.

و يقصد بالكلمة الجامعة هنا التسيير، أو الشيء الذي ينبغي أن يفسر ويزال عنه الغموض لكي يفهم، أما القصيدة فمعناها فن التقويم أو الشيء الذي يملك قيمة ما وينبغي علينا تقييمه حتى نتمكن من فهم مرتبة تلك القيمة المستورة في غالب الأحوال.

أما الحديث عن فيلسوف المستقبل و هو- نتشه - فيختصر بأنه مشرع للقوانين، لأنه قد كشف عن جرأته الكبيرة في العوالم القديمة، لأن سر الفلسفة الحقيقي الضائع منذ البداية حسبه ينبغي أن يكتشف من قبل الفيلسوف في المستقبل، ولا يتم هذا إلا من خلال إستفاء الشروط اللازمة والمطلوبة في هذا الفيلسوف.

لقد نمت الفلسفة في تقديره عن طريق معايشتها لمحطات الإنحطاط الكثيرة عبر التاريخ، لقد كان عليها في كل مرة مواجهة أقنعتها المختلفة ومن ثم التفطن للإلتفاف حول حقيقة واحدة فاعلة، وهذا الفعل أو الأسلوب مفروض عليها فرضا من قبل الحياة وأحداثها المتنوعة، ومن هذا المنطلق تتحدد فضيلتان للفيلسوف المشروع من واجبه فعلهما هما << نقد كل القيم السائدة، أي القيم الأرقى من الحياة والمبدأ الذي تكون تابعة له، وخلق قيم جديدة، قيم للحياة تطالب بمبدأ آخر معرفته وإستعماله >> [1].

إنه يعتقد بأن الفيلسوف يقوم بتقويم الحياة بكل ما حبلت من تفاصيل من منطلق قدراته على التحمل، أي تحمل القيم العليا التي تشهدها وتتفق حولها كل الفلسفات والأديان تقريبا، وهنا يظهر الإبداع، وتظهر طاقات ولياقات كثيرة وخطيرة تميز فيلسوف عن آخر.

إذن فعند طرح السؤال ما الفيلسوف؟ يجيب نتشه:<< العمل بصورة في غير زمانها، أي ضد الزمن، وهكذا على الزمن لصالح (كما آمل) زمن قادم >>[2].

كما أنه إعتقد دائما بإغتصاب العلماء لعرش الفلسفة، ولذلك أصر على التبديل بين العلم والفلسفة في مسألة الرتب، ثم تطرق إلى خبث العلم، وكيف أنه يمشي بخيلاء متباهيا زاهيا واثقا سعيدا، سريعا وبفخر، إنه يظن نفسه أنه الأفضل والأدق، والأكثر تصديقا

(1) جيل دولوز: المرجع السابق، ص22.
(2) المرجع نفسه، ص61.

وإشباعا للفضول، كما أنه الأكثر أريحية للنفس من الفلسفة، فبعد أن إستطاع التحرر من قيود الدين وسلطانه، تحرر من الفلسفة، ولحد الآن لا يوجد في الأمر ما يعيب، أما أن نصطدم فعلا بعلماء إقتنعوا، وأقنعوا غيرهم بأن الفلسفة مجرد هرطقة، وكلمات رنانة، ويوتوبيات لا قدرة للواقع عليها، فهذا يدق ناقوس الخطر، ونظهر تحت جناح السرعة لفحص وتشخيص مكمن العلة، وهو متواجد حسب نتشه في أولائك الفلاسفة أنفسهم الذين أفسدوا سمعتها، بالتبعيض والتشتيت إلى منطق علمي وضعي تحليلي يطلب النجدة واللجوء إلى سقف العلم الصارم القوي، وآخر نفعي برغماتي، خرج عن أفقها الأساسي والأسمى، وإنسلخ من جواهرها الثابتة وغيرها من الدعوات.

إن<< ما إنحطت إليه كل الفلسفة الحديثة شيئا فشيئا، أي هذه البقية الباقية من الفلسفة اليوم، بات يثير الإرتياب والضجر، إن لم يثر التهكم والشفقة، إن فلسفة مختزلة إلى نظرية للمعرفة، وفي الواقع إلى مجرد إيبوخيه وإمتناعية خجولة، وفلسفة لا تعتبر عتبة البنية، وتحرم نفسها بحرج الحق في الدخول، هي فلسفة تلفظ أنفاسها الأخيرة >>(1).

أما الفلسفة عند المنطقي فرانك رامزي(*) Frank Plumpton Ramsey (1903-1930)، فيصر على أنها يجب أن تكون ذات جدوى، أي ضرورة أن تكون مساعدة للإنسان وراشدة لسلوكاته وتوجهاته، معينة على قضاء حوائجه، ومزيلة لشتى العراقيل التي يتخبط فيها، وإذا لم تنجح في فعل كل هذا << فهي نزوع يتعين تشخيصه، كما النظر إليها على هذا النحو أمر يتطلب البحث، أي أن القضية الأساسية في الفلسفة، هي أن الفلسفة هراء مرة أخرى يتعين علينا أن نحمل محمل الجد أمر كونها هراء، وألا نتظاهر كما يفعل فيتجنيشتين بأنها أمر مهم >>(2).

وفي نظره فإن الفلسفة في مقدورها أن تفعل كل هذا وتزيد عنه الكثير، وهو يؤكد على أن أكبر خطر يهدد الفلسفة الناضجة الواعية المتقدة المغيرة هو خطر المدرسة

(1) فريديريتش نتشه: ما وراء الخير والشر، ترجمة جيزيلا فالور حجار، بيروت، لبنان، دار الفرابي 1886، ط1، 2003، ص158.

(*) فرانك رامزي: فيلسوف ومنطقي وعالم إقتصاد وعالم رياضيات بريطاني، هو الصديق المقرب للودفيغ فيتجنشتين، ومترجم كتابه رسالة منطقية فلسفية.

(2) فريدريك وايزمان، فرانك رامزي وآخرون: كيف يرى الوضعيون الفلسفة؟ ترجمة وتقديم نجيب الحصادي، مصر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، دار الآفاق الجديدة، ص99.

السكولائية(*)، مضافة إلى خطر الخلط والكسل وهذا لأن الدين السكولائي لطالما كان كاسحا مانعا كابحا لشتى محاولات العقل بالنهوض بنفسه إلى مراتب التحرر والتفطن بعيدا عن أجندة الوصاية والقمع.

أما موريس شلك(**) Fredrich Albert Moritz Schlick (1882- 1936) ففي تساؤله حول مالذي تكونه الفلسفة إذن؟ يذهب إلى أنها ليست علما بالمعنى الدقيق الصارم الجامد المحدد، ولكنها إستطاعت وبكل جدارة أن تكون ملكة على صرح العلوم<< فالفلسفة هي ذلك النشاط الذي يتم عبره تحديد - والإفصاح عن- معاني القضايا، بالفلسفة نفسر القضايا، وبالعلم يتم التحقق منها، الفلسفة تعنى بالمعنى، والعلم يعنى بالمصداقية >>(1) .

سوف لن ننتهي من جملة المقارنات التي وضعها شلك بين الفلسفة والعلم، ولأنه هو الآخر منطقي وضعاني، فهو سوف يؤكد على خروج وعزم العلم وأسبقيته وأحقيته بالوقار والكفاءة من غيره، ولكنه في ذات الوقت لم يتنكر لفضائل الفلسفة ودورها الكبير في إنتشال الإنسان من الأخطاء والأوهام وبراثن الجهل والعماء.

(*) السكولائية: لفظ يطلق على فلسفة المدارس الكاتدرائية في العصر الوسيط قبل أن تتحول إلى جامعات فيما بعد، إن أفكار هذه المدرسة تقوم على المزج بين الرؤية المسيحية كدين مقدس وبين أعمال الفلاسفة اليونان خاصة أفلاطون وأرسطو، حيث بلغت ذروتها المعرفية مع توما الإكويني وهي مقسمة إلى ثلاث حقب السكولائية المبكرة، الكلاسيكية، والسكولائية الجديدة.

(**) موريس شلك: فيلسوف وفيزيائي ألماني، يعد المؤسس الأول للوضعية المنطقية أو حلقة فينيا، إهتم بعديد المسائل الهامة كالأخلاق والمنطق والسياسة، من أعماله (حكمة الحياة، وأسئلة الأخلاق، المعنى والتحقق...).

(1) فريدريك وايزمان : المرجع السابق، ص 113.

أما لودفيع فيتجنشتين[*] Ludwig Josef Johann Wittgenstein (1889-1951) الذي سبق ذكره، فقد تحدث عن هدف الفلسفة في كتابه رسالة منطقية فلسفية المدونة عام 1921، والتي تضمنت الحديث عن الفلسفة الذرية المنطقية:حيث كتب قائلا:<< هدف الفلسفة هو الإيضاح المنطقي للأفكار، إن الفلسفة ليست نظرية وإنما هي نشاط فعال، ونتيجة الفلسفة ليست عددا من القضايا، وإنما هي توضيح القضايا، فالفلسفة ينبغي أن توضح الأفكار>>[1].

ومن جهة أخرى نجد غاستون باشلار[**] Gaston Bachelard (1884- 1962) لينا متسامحا مع الفنانين والنحاتين والشعراء في الحكم، لكنه كان قاسيا جدا مع الفلاسفة، ذلك أنه كان يرى في الفيلسوف الإنسان الجامد الكسول والمتأخر، الذي يستيقظ متأخرا بعد أن يكون العلم قد أنهى كل أشغاله بتوصله إلى نتائج جديدة وجذرية تغير مسار العالم، وكل ذلك كان بفعل الإختلاف في عملية التفكير والتأسيس والترتيب، فمنهج العالم حسب باشلار متغير مضطرب متجدد ونافع، أما منهج الفيلسوف فراكد وقار ومطمئن.

<< إن الفيلسوف هو الإنسان ذو المذهب الواحد، فهو مثالي أو واقعي أو عقلاني أو وضعي، ولكن العلم الحديث يأبى الإنغلاق في أي مذهب إقصائي، فمن أجل فهم مناهج العقل الفعلية ومتابعة عمله ومسيرته، ينبغي أن نوفق بين العديد من الفلسفات، ولا يمكن للفيلسوف أن يكون اقل جرأة، ولا أقل عبقرية ولا أقل كمالا من العالم >>[2] ، إذن هي دعوة صريحة للفيلسوف بشحذ همته والتنافس مع العالم لأجل بلوغ رقاء المكانة.

والخلاصة هي أن الفلسفة عالم واسع، وهي أوسع من أن تختزل في تخصصات صغيرة كاللغة أو نقدها أوفقهها...إلخ.

(*) لودفيغ فيتجنشتين: فيلسوف ومنطقي ولغوي وعالم رياضيات نمساوي، يعد من أعظم فلاسفة القرن العشرين، حارب فكرة الحرب اللغوية للكلمات، وإستبدلها بالرموز، إعتقادا منه أن سبب الأخطاء والمغالطات هي اللغة الحرفية التي تؤدي إلى سوء الفهم، ألف مجموعة كتب منها تحقيقات فلسفية بالإضافة للكتاب السابق الذكر، والفلسفة والرياضيات.

(1) كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، 2001، ص15.

(**) غاستون باشلار: فيلسوف وشاعر وكاتب فرنسي، مهتم بقضايا العلم وتطوراته (فلسفة العلوم) أتى بعدة مفاهيم ومبادئ جديدة مثل مفهوم القطيعة الإستيمولوجية في العلم وغيرها، تأثر كثيرا بأفكار فريديتش نشته، وألبرت أنشتاين، من بين أعماله العقل العلمي الجديد 1934، تكوين العقل العلمي 1938.

(2) جورج كونغيلام: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمد بن ساسي،بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2007، ص285.

إن لها جوهرا يغوص في عمق الرؤى المختلفة، وهو أمر إيجابي بالتأكيد، ومن خلالها يمكن إزالة مجموعة من الإبهامات التي تحيط بالموضوعات المتباينة، كما يمكن إزالة جملة من الرؤى المطروحة فلسفيا لا يمكن إثباتها، أي أنها غير قابلة لاستظهار براهينها في العالم الخارجي- حسب الفيلسوف فريدريك وايزمان(*) Frederick Wiseman (1896- 1959) - وستبقى داخلية صورية ضمنية جوانية، أما فيما يخص براهينها، أي مجموعة البراهين الفلسفية التي يطرحها أصحابها لأجل تعزيز موقف أو قضية ما فيقر وايزمان أنها ليست صارمة ولا حاسمة، إنها متغيرة ومتقلبة، ولا تأخذ من الزمن الكثير في عملية الإستقرار والثبات، وهذا ما يجعلها حاجبة لأحداث الواقع السريع التبدل.

وعن هدف الفلسفة يمكن تحديده من زاوية الذكاء، أو رفع سقف الذكاء لدى بصائر الناس، حتى يتأتى لهم رؤية العالم بمستوى أفضل ومن ثم الإبتعاد عن المفاهيم الخاطئة، فالفلسفة تجعل صاحبها حرا طليقا.

وكخلاصة للمبحث أو عنصر المنطلق الإبستيمولوجي- المعرفي- نقول أن كل المذاهب والأنساق والتحيزات والدوغمائيات التي تعلن عن إمتلاكها للحقائق والثوابت واليقينيات، تعد بيئات وأوكار مناسبة وحاضنة للأخطاء والأوهام، على العكس عند الوعي بالطابع المركب واللايقيني للمعرفة فسوف نمهد هنا لبلوغ معرفة ملائمة تكون أقرب إلى التحقق والصواب.

<< إذا صح أن كل شيء في عصرنا يمر بأزمة، فإن الأزمة تمس مبادئ وبنى معرفتنا، لأنها تمنعنا من أن ندرك ونعي تعقيد عصرنا، وتعقيد مشكلة المعرفة >> (1).

(*) فريدريك وايزمان: فيلسوف وعالم رياضيات وفيزيائي نمساوي، عضو من أعضاء حلقة فينا الوضعانية، درس الفلسفة على يد موريتز شيلك، هاجر إلى بريطانيا ودرس فيها- جامعة أكسفورد-، ثم تمت ترقيته لدرجة أستاذ محاضر في فلسفة الرياضيات، له ثلاثة مؤلفات أساسية تتحدث عن الفلسفة واللغة المنطقية، الأول مقدمة في التفكير الرياضي، صياغة المفاهيم في الرياضيات الحديثة 1939، والثاني مبادئ الفلسفة اللنغويستيكية 1965، والثالث كتاب كيف أنظر إلى الفلسفة؟

(1) إدغار موران: المنهج: معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص350.

وهذا لأنه من غير الممكن معرفة كل شيء عن العالم وما يحتوي، لكن كيفما كانت المشكلات التي نعانيها، وصعوبة فهمنا لها ومن ثم حلها، فإنه لابد من السعي لتحصيل المعرفة حولها وإلا وقعنا في الغباوة المعرفية كما يقول موران. إن المتأمل لما تضمنه الفصل الأول من عناصر أربعة كونته وهندسته، سوف يفهم حقيقة المنطلقات والروافد الأساسية لفكر إدغار موران، فنجد أن المنطلق التاريخي كان له دور كبير وحاسم في تشكيل ذهنيته من خلال الإنتفاع بجملة الأحداث والوقائع التي جرت عبر التاريخ، وكيف أنه حللها ووصفها وإستخرج الحكمة منها، ذلك أن التاريخ حسبه سيد قادر على إدارة المشهد أو تغييره بصورة خطيرة دون أن يستطيع أحد التكهن بكيفية تحرك مساره أو إلى أي سبيل سوف يتجه، وعليه فدراسة التاريخ من حيث المفهوم والمحتوى والبعد عزز وبقوة نضج الفكر المركب لديه.

أما المنطلق السياسي فقد رأيته هو الآخر لازم الوجود والتوظيف بإعتبار السياسة حدث ملاصق للإنسان منذ وجوده المنظم الأول، وكذا باعتبارها المتحكم المباشر وغير المباشر في جملة العلاقات بين الأفراد والبشر وجملة القرارات التي يتخذونها تفكيرا وممارسة مع بعضهم البعض أو بالعالم الخارجي، وعليه كيف لا تكون نطلقا وبعدا أساسيا وهي بهذا الثقل والهيمنة؟

لقد تعاطى موران مع السياسة في كل عملياتها وتوصل إلى أنها البالوعة الضخمة المنتجة والمستقطبة للأفكار، والمؤثرة فيها والمتأثرة بها، فالإنسان كان ولا يزال الكائن السياسي بامتياز.

أما فيما يخص مسألة التقنية، فهي في تقديري كل الأهمية وكل الضرورة، إنها الإجتياح المادي الذي لا يشاور، والذي يؤثر على جماع أفكارك سواء رضيت أم قاومت، التقنية منطلق ركائزي مؤسس للفكر المركب أو نظرية التعقيد، إذ لا يمكن للوعي التجميعي أن يفكر خارجها أو يتجاوزها، لأن الإضافة البناءة التي منحتها له و كيفية تطوره ونماءه، جعلتها أحد مكوناته- إسمنت أساسي في العمران التركيبي-

أما لتوجه الإبستيمولوجي- المعرفي- فهو حديث آخر فلا يخفى على ذي عقل أن المعارف المختلفة بشتى تمظهراتها سواء كان الإنسان صانعها أم الطبيعة أم مصدر آخر متعالي- الله- هي في كثافتها ورصها تشكل مدركات الإنسان ووعيه، كذلك حدث الأمر مع موران، فقد إستجمع المعارف على إختلافها دون تحقير أدنى جزء أو نمط منها، ووزعها بطريقة متوازنة ووظفها لفهم الفكر المركب وخدمته، والإرتفاع به من حقل الرؤية إلى أفق الممارسة الواعية سواء كانت هذه المعرفة دين أم فلسفة أم علوم تجريبية...إلخ.

إذن فالصفقة حسب موران ناجحة وتخدم الجميع، وسيكون مرحب بفكره من طرف الكل، على أساس أن السلعة المستخدمة في نسيج فكره مأخوذة من شتى بقاع المعارف ومناهلها وهو الأمر الذي يرفع سقف التشويق أكثر لمعرفة مغامرة هذا الفكر التركيبي الجديد ورحلته في العالم المتشعب والغزير للوصول إلى تحقيق ذاته ورسم الملمح المريح للإنسان والعالم.

الفصل الثاني
الأسس المعرفية للرؤية التعقيدية

أولا: الركيزة العقلية وتطبيقاتها
ثانيا: قوة الآيديولوجيا وحدودها
ثالثا: في توطين الأخلاق المركبة
رابعا: نحو ثقافة قاعدية كوكبية

ينبغي لكي نفهم أية نظرية معرفية أن نقف على الأسس التي تبنيها وتقومها وتوجدها.

إن المعرفة بالأسس في تقديري سوف تمنح الباحث والقارئ على حد سواء إضاءة صريحة وواضحة عن الملمح المبدئي والنهائي للنظرية المعنية بالدراسة، وبالتالي يسهل التعامل معها وتخمين مسارها المستقبلي فيما بعد.

ولقد إرتأيت أن يحوي هذا الفصل أربعة أسس تهندس للرؤية التعقيدية، وتحمل بنيانها التركيبي، وهي على التوالي: الأساس العقلي، فالآيديولوجي، فالأخلاقي ثم الثقافي.

أولا: الركيزة العقلية وتطبيقاتها

<< تدور رحى المعركة اليوم على صعيد الفكر >>[1].

ينبغي أن يكون العقل أحد الأسس والمرتكزات الضرورية لأي فكرة، وأية نظرية، إنه العقل المبدع والمخرج والمهندس والفاعل المتواصل، يجب أن يكون حاضرا كسند قوي، ويجب في ذات الوقت أن يتحدث عن هذا السند بوصفه المكتشف والمحلل والمفكك والمركب للوجهات، وفي تقديري وضعت العقل كأساس أول من أصل أربع أسس شكلتها تقوم الفكرة التركيبية، وهذا لأن العقل مكون لكل العناصر، التي سوف تكونه هي الأخرى لاحقا، ليكون بهذا العقل حسب ما وصفه موران ورآه ذو بصمة خاصة وفاعلية مختلفة عن التي إعتدنا رؤيتها والتعرض لها في الفلسفات الكلاسيكية المعهودة.

فكيف يمكن أن يكون العقل قادرا على التأسيس والتنظير وفي النهاية ناقدا وفاحصا ومغيرا لما أنتجه هو نفسه؟.

(1) إدغار موران: إلى أين يسير العالم؟ ، مصدر سابق، ص5.

1 /العقل بين الإستحضار والتفعيل

في التساؤل عن طبيعة[*] العقل كتب المفكرون الكثير حول الموضوع، هل العقل جسم مادي فيزيائي أم هو عنصر أثيري روحي ميتافيزيقي؟ فلو إفترضنا صحة الطرح الثاني من أنه غير مادي فهذا يعني أنه ملكة لا تخضع<< بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما >>[1].

أما إن كان الطرح الأول صحيح فهذا يعني أن دعاة المادية الملموسة، أي أنصار الإتجاه المادي الطبيعي سوف تكون لهم الغلبة، وسيبقى بموجبهم العقل فقط ببقاء حياة الإنسان أما تعرضه لأي مكروه، أو غيابه بسبب الموت فإن العقل سيتحلل ويزول.

ولكن في كل الأحوال يمكننا القول<< أن الفكر أحادي وتعددي، متنوع الأشكال، إنه يبتكر إستراتيجيات فكرية أو عملية متنوعة بحسب المشاكل التي يصادفها ويستخدمها، وثمة تنوع في أساليب الفكر كما في الأنماط الفكرية >>[2] من حيث أن كل أسلوب قادر على معالجة أمر ذو خصوصية معينة مختلفة تماما عن خصوصية أمر ثان.

لقد أقرينا سابقا أن العقل عند موران تطوري[**]، ولكنه يحمل في داخله عدوه اللدود، وهو التبرير العقلاني المعادي للعقلانية، إذن فهو قادر على تدميره بواسطة الهذيان المنطقي المعتمد على الإنسجام المتمرد عن الخضوع للواقع التجريبي.

(*) كيفما كان مصدر العقل وطبيعته، فإني أظن أنه إبداع حقيقي خالص وأقول هذا لأن <<الإبداع عبارة نطلقها على الشيء الذي نستحسنه ونعجب به>> <<فإذا وافقت هوانا لأنها ترضي ذوقنا، أو تحمل قيمة أو تحل مشكلة معينة وصفناها بهذه الصيغة التي تدل على الثبوت والإستمرارية والأصالة فقلنا بديع>>
أنظر إلى:حسن احمد عيسى:الإبداع في النفس والعلم، سلسلة عالم المعرفة، رقم 24،ديسمبر1979، ص05.

(1) روبرت أغروس وجورج ستانسيو: العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال فلايلي، سلسلة عالم المعرفة، رقم 134،1990،ص41.

(2) إدغار موران: النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية، مصدر سابق، ص ص 127، 128.

(**) تطوري: ويقصد بالتطور هو نسبة المصطلح إلى عالم التطور الذي نظر له بالخصوص العالم تشارلز داروين، والذي تقوم نظريته على مبدأ الإنبثاق أو الظهور بفعل عوامل محددة ثم التطور بتغيير الشكل أو الصفة عبر الزمن، وصولا إلى هيأة خاصة ملحوظة ومعروفة، ومن أشهر ما عرف في هذا المجال أصل الإنسان الحيواني، أي الذي يعود إلى القرد، وهذا الأخير الذي يعود هو الآخر إلى كائنات حية أقل حجما ورقيا وثباتا وقوة، وعند العودة بسلم التدرج إلى الوراء سنجد أننا سنصل إلى النشأ الأول وهو أصل النواة أو الخلية الحية الأولى في شكل بيكتيريا حية نشطة تطورت عبر الزمن بفعل مؤثرات خارجية وداخلية إلى أن وصلت إلى أضخم الأحجام كالحيتان والديناصورات وغيرها، إذن

والعقل عند له محدداته أسماها هو نوع الحوار الذي يقيمه مع العالم الخارجي الذي يقوم بمقاومته في كل مرة، وأن العقلانية من الأصح لها أن تعترف باللاعقلانية، ليس ضعفا منها لا أبدا، بل لإحداث نوع من التناغم والإنسجام، الذي يجعل الأضداد المتصارعة قادرة في إقترابها مع بعضها على رسم صورة واضحة الملامح عن العالم والإقتراب من المعنى، وهي ماتسمى بالعقلانية العميقة المتسامحة مع الألغاز، مقابل العقلانية الخاطئة الطفولية ما قبل المنطقية << قال كيركغارد عن هيجل إن الأستاذ يعلم كل شيء عن الكون، لكنه نسي فقط أن الكون هو>>(1).

في العموم يمكن التفريق بين نوعين من العقل، أولهما هو العقل التبسيطي، وهو السائد والأقوى تاريخيا، والثاني هو العقل التركيبي المستند إلى التعقيد، فأما هذا الأخير، فسوف نأتي على ذكره وشرحه لاحقا، وأما الأول ذلك المليء بالخطأ والجهل والعمى كلما تقدمت معارف الإنسان وتطورت دون أن ينتبه الإنسان نفسه إلى أنه واقع في هذه الدائرة ويدرك أن يفعلها ويزاولها.

و في الغالب يكون السبب الأعظم ورائها هو مشكلة تنظيم المعرفة التي تبالغ في النظام والتفكيك والتجزيئ والإختزال، وهو الآخر الذي يسبب أمراض المعرفة، أو كما يسميه موران باطولوجيا(*) المعرفة المشكلة لمنظومة التبسيط التي تشكلها الأوصاف السالفة الذكر.

إن المذنب التاريخي الأكبر في صنع هذه المنظومة هو الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت، وذلك حينما أعلن الفصل بين الذات والموضوع أو الشيء الممدود، بمعنى

فالعقل كذلك كان في البداية عنصرا حيا بسيطا ومتواضعا ثم تطور ليأخذ شكل القوة والصلابة التي هو على هيئتها الآن.

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص117.

(*) باطولوجيا المعرفة Pathology: هو العلم المختص بدراسة مسببات المرض وأعراضه وأحواله النهائية، عن طريق الإعتماد على التغيرات المرضية التي تحدث للخلية، أو الأعضاء الجسمية، وهذا بتدخل التكنولوجيا الطبية كالتحليل المخبري والتشريح والتحليل النسيجي، وتدخل الميكروسكوب، وبالإسقاط نجد المعرفة كذلك تمرض كالجسم البشري وتتعرض لأزمة تقتضي تشريحها لفهم ومعرفة أسبابها وبالتالي معرفة كيفية ونوعية علاجها وإستردادها لعافيتها.

* يدرك ديكارت أن<< مفهوم العقل يمتد إلى كائنات أخرى خلاف البشر لكن طريقة تفكيره في العقل... منفصلة عمدا عن علم البيولوجيا، كما أنها أقل إعتمادا على السبل التي يمكن بها أن تقرب قدرات المخلوقات الأدنى منزلة من قدرات البشر بالمقارنة بالسبل التي يمكن بواسطتها أن توجد قدراتنا بشكل أكثر تطورا في الكيانات الفائقة للبشر >>.

الفصل الواضح والصريح بين كل من الفلسفة والعلم<< وكانت الطريقة الوحيدة لتدارك هذا الفصل هي اللجوء إلى تبسيط آخر، إختزال المركب في البسيط (إختزال البيولوجي في الفيزيائي، والإنساني في البيولوجي>>[1] .

وبهذا سوف نلاحظ أن العقل الأعمى مدمر للمجموعات والكليات، ويعزل العناصر عن مجموعها، بل ويقوم قبل ذلك بتذريرها وإبعادها عن بعضها البعض، وهو الأمر الذي نشهده في الجامعات الحالية مثلا، حيث يدرس كل تخصص على حدى بعيدا عن علاقاته مع الموضوعات الأكثر قربا منه والأشد تأثيرا فيه، وهذا أمر في غاية الخطورة لأنه سوف يخلق رؤية مشوهة عن الحقيقة والعالم، وسوف تقتنع البشرية فيما بعد، بأن تلك الصورة هي الأصح والأفضل مادام العلم قد قال ذلك، وصادقت على قولته التجارب الفعلية.

إذن فهذه الصورة المشوهة سوف تكون ذات بعد أحادي جاف وبارد وشحيح، بعيدا عن كل المعطيات الثرية والغنية بعلاقاتها المتواشجة مع الموضوعات الأخرى القريبة والبعيدة، فهذا الإرتباط هو من سوف يشكل نمطا زاخرا وقويا وقريبا من المشهد الحقيقي للحقيقة نفسها.

وفي العلاقة بين العقل والدماغ وما يربطها من متفاعلات داخلية وخارجية نجد أن<< نمو الدماغ وإعادة تنظيمه التي بدأت بالإنسان الفضولي، وإنتهت بالإنسان المفكر، شاهدان على ثورة عقلية تؤثر في جميع أبعاد الثالوث الإنساني (الفرد، المجتمع، النوع) ولهما دور فيها >>[2].

أنظر إلى: توم سويل: ديكارت – مقدمة قصيرة جدا- ترجمة محمد الروبي مصر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2014، ص 85

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، مصدر سابق، ص 15.

(2) إدغار موران: النهج - الهوية البشرية-، مصدر سابق، ص 49.

وبهذا تكون المصطلحات الثلاثة وهي الدماغ(*) والثقافة والذهن، هي المسؤولة الأولى عن كيفية عمل وتحرك الإنسان بطرائق قددة، وأن كل من يحاول أن يفهم ويدرس الإنسان بجد وعمق عليه التركيز عليها، لأنها المترجم الأكبر لحقيقته.

وتجدر الإشارة عند حديثنا عن موضوع العقل، وكيف يعد أحد الأسس المعول عليها في بناء نظرية الفكر المركب ومنهجه المعرفيين، أنه يتبنى ويعتقد بأحقية وصحة النظرية التطورية التي قال بها تشارلز داروين(**) Charles Robert Dorwin (1809-1882) من أن الإنسان في البدء كان حيوانا ثم تطور إلى شكله الراقي الحالي، وأن هذا العقل البشري قد وسع في البدء أشكالا مختلفة ومتنوعة من الذكاء كانت موجودة في عالم الحيوان، وهذا<< إذا ما عرفنا الذكاء على أنه مقدرة إستراتيجية عامة تتيح معالجة مشاكل محددة ومتنوعة في حالة من التعقيد وتجد لها حلولا >>(1).

إذن فالإرتباط الهائل بالمصطلحات الثلاث (Esprit, Trinité cerveau, Culture) نفهمه من خلال أن الذهن عند إنبثاقه يؤثر في عمل كل من العقل والثقافة وبهذا سوف تتشكل حلقة بين هاته الثلاثية، والذهن هو الآخر عند إنبثاقه من الدماغ الذي تشكله الثقافة التي لم تكن لتوجد لولا الدماغ، يزداد زخما وثراء.

(*) الدماغ: هو العضو الأساسي في الجهاز العصبي عند الفقاريات وبعض اللافقاريات فهو المتحكم في تجميع وتحليل المعلومات، ومن ثم السيطرة على كافة أعضاء الجسم، ويكون محفوظا داخل جمجمة الرأس، وهوعلى ثلاث، دماغ أمامي ودماغ متوسط ، ودماغ خلفي، وجذع الدماغ، تؤلفها عشرات المليارات من الخلايا العصبية.

(**) تشارلز داروين: هو عالم بيولوجيا بريطاني، وكذا عالم حشرات ونبات وعالم قشريات، ومختص في دراسة سلوك الحيوان، إشتهر بسبب نظريته التطورية، وتأليفه لكتاب أصل الأنواع الذي أعجب به الكثير على غرار كارل ماركس وصديقه إنجلز، حاز على العديد من الجوائز والميداليات، يعد من أشهر علماء الأحياء في العصر الحديث من خلال طرحه لفكرة الحلقة المفقودة، ونظرية الإنتخاب الطبيعي عام 1838م، أي أن كل الكائنات الحية تنحدر عبر الزمان من أسلاف مشتركة تجمعها وتوحدها.

(1) إدغار موران: النهج - الهوية البشرية-، مصدر سابق، ص50.

2/ دور العقل في بناء الطرح التعقيدي

وفي المسيرة نحو تأسيس فضاء للعقل<< يرى فريجه [*] friedrich ludwig gottlob frege (1845-1925) أن الأفكار ليست من أشياء العالم الخارجي، ولا من التصورات الداخلية لأنها تشكل طبيعة أخرى للواقع >>[1].

أما جاك شلانجر (1978) فقد ذهب في مغامرة فكرية بعيدة، قرر بموجبها أن المعطيات والمفاهيم والأشياء الفكرية تعتبر نظريات وأبعاد مزودة بواقع موضوعي ذات كيان ووجود خاص بها يميزها عن غيرها.

ولأن كارل بوبر كان قد قسم النطاق البشري إلى أجزاء ثلاثة، كل جزء يشكل عالم خاص وإستثنائي بحد ذاته، أول هذه العوالم هو الخاص بالأشياء المادية الخارجية بإختلاف أشكالها وتفاصيلها، وثانيها هو عالم التجارب المعيشة، أي كل ما يتعرض له الإنسان من أحداث ووقائع في حياته اليومية تعتبر في نهاية المطاف تجارب معيشية، يستفيد منها فيما بعد مستقبلا، وتكون له رصيدا و خبرة إحتياطيين سوف يوظف لاحقا في الوقت المناسب، وآخر العوالم عند بوبر ذاك المتعلق بأشياء العقل من حيث التشكل والتأسيس، بالإضافة إلى أشكال وتقاسيم الثقافة المختلفة والألسن والنظريات الفكرية والمفاهيم المنحوتة وغيرها.

لقد هذا المجال بفضاء العقل Noosphére وهذا المصطلح في واقع الأمر لا ينسب له بل للمفكر تيلار دو شاردان Terlhard de chardin (1855-1881).

إذن العالم الثالث هو من إنتاج العقل البشري وهو كما سلفنا الذكر مستقل لوحده عن العوالم الأخرى ولا ينبغي أن يفهم من هذا الإستقلال القطيعة التامة والإنفصال المطلق والكلي مع الغير بما في ذلك العالمين الأوليين لا بالعكس ففي هذا ضرب لمنظومة التعقيد

(*) فريدريك لودفيج غوتلوب فريجه: فيلسوف وعالم رياضيات ومنطقي ألماني، إشتهر بفلسفة التحليل المنطقية الحديثة، له تأثير كبير في تأسيس علم الدلالة الحديث، أثر في العديد من الفلاسفة كبرتراند راسل، وهوسرل وكارناب وفيتجنشطين...إلخ، أكبر إنجاز يمكن أن ينسب إليه هو الكتابة التصورية التي حلت محل المنطق القديم الأرسطي فصار منطق رياضياتي مبني على المعادلات.

(1) إدغار موران: المنهج: الأفكار، مصدر سابق، ص 162.

التي دعا إليها موران، والتي تقر وتصر على تكرار أهمية وضرورة وجود العلاقات بين العناصر الجزئية والأطراف الفرعية ولكن مع الإحتفاظ التام بخصوصية وهوية هذه العناصر، وبموجب هذا القول نجده- العقل- مكونا فضاء قويا مع الثقافة <<لأن فضاء العقل ينبثق بالذات من تلك التفاعلات التي تحوك نسيج الثقافة، فإنه ينبثق كواقع موضوعي يتمتع بإستقلالية نسبية، وتسكنه كيانات نسميها كائنات عقلية >>[1].

كما نجده أسس أيضا فضاء مع المناخ، والمقصود بالمناخ هنا هو تلك السحب والموجات الحديثة التي يعايشها الإنسان دائما وفي كل وقت، والتي تشكل في نهاية الأمر مناخا خاصا ينخرط فيه عنوة، فبالإضافة إلى المناخ الجوي وتقلباته الهائلة والكثيفة، الذي يحاول الإنسان قدر مجهوده مسايرته، والتأقلم معه، هناك كذلك المناخ الحياتي الذي يتخذ معه نفس الإجراء خاصة في ظل التغيرات السريعة والهائلة التي يعرفها العالم المعاصر على المستوى العلمي والتقني المسيطران عليه بشكل شبه كلي.

إذن ففضاء العقل مشحون ومسكون بالأشياء والكائنات المادية لكن طبيعتها ترجع إلى المعطى العقلي.

إن الحديث عن الذهن يجعلنا نتسائل حول ما إذا كان هذا الأخير إستعارة لشيء إفتراضي أم أنه نسق جسدي مادي، فماذا يعني مثلا أن نفكر بشكل عقلاني؟ << أن نفكر عقلانيا هو أن نفكر وفق الخطوط التي تفرضها قوة العقل، ثانيا هو أن تسير في ذلك خطوة خطوة دون أن تقفز على أي خطوة بحيث تكون موقنا أنك على المسار الذي يفرضه العقل، ثالثا إنه التحرك نحو خلاصة مباشرة قدر الإمكان دون أن تفكر دائريا أو تتيه عن الموضوع أو تنحرف عنه >>[2].

في هذه الخطوات الثلاثة يمكننا أن نعرف الممشى الفعلي لسيرورة العقلانية أو الذهن المتسم بالعقلانية.

(1)إدغار موران: المنهج: الأفكار، مصدر سابق ، ص171.
(2) جورج لايكوف: الفلسفة في الجسد، مرجع سابق، ص323.

وبهذا نجد رابطا لفكرة إصلاح المعرفة بفكرة إصلاح الفكر، حيث أنها << إحدى الأفكار التي أثيرها منذ وقت طويل، إنه المشروع الذي نجده في كتاب المنهج La Methode، ولكنني مقتنع أكثر فأكثر بوجوب الكلام راهنا على إصلاح الذهن (بمعنى Mind)، إصلاح شيء ما أكثر عمقا، أكثر شخصية، أكثر ذاتية، أي في المقام الأخير إصلاح الكائن، إصلاح أنفسنا >>(1).

نعم إن إصلاح الذهن يعني إصلاح الذات الإنسانية، وإصلاح الأشياء في تقديري هو إصلاح العلم والوجود ككل، إننا لا نستطيع أن نعي ونفهم ونتعامل وندرك ونفعل كل فعل متوازن ومنطقي دون ذهن صالح ومصلح.

هناك أدوات هامة يمكنها إيصالنا إلى معرفة الكون المعقد، وهي على ما يبدو أدوات عقلانية هكذا صرح موران، وقبل الدخول في تمفصلات الموضوع ينبغي أن نقوم بضبط أولي للمصطلحات المتداخلة، التي يحسبها الكثيرون أنها شيء واحد على غرار العقلانية والتبرير العقلاني،<<إن العقلانية هي اللعب، هي الحوار الدائم بين فكرنا الذي يخلق بنيات منطقية ويطبقها على العالم ويتحاور مع العالم الخارجي>>(2).

سنعلم من خلال هذا الضبط المفهومي أن نسقنا الذي نعيشه ونسكنه ونؤمن به غير كامل إذا لم يتطابق العالم الخارجي معه، وهو القول الموافق تماما لما ذهب إليه شكسبير عندما أعلن أن العالم الخارجي غني ومتنوع ويحتوي على الكثير من الأشياء التي لا يمكن أن نجدها في كل الفلسفات.

أما فيما يخص التبرير العقلاني، فهو في الأصل مصطلح ينتمي لحقل علم النفس، نحته فرويد مع مجموعة من الأطباء، وهو يدل على معنى الصواب، أي أنه رغبة جامحة وملحة في سجن وتطويق الواقع داخل نسق محدد ومنسجم، ومن ثم إعتباره النموذج الأقوى والأصح، وإذا ظهر من يعارضه أو ينتقده أو يقف في وجه أفكاره، فإنه سيتعرض للإقصاء والنسيان وإعتباره شيء عديم الفائدة.

(1) إدغار موران: إصلاح الفكر هوإصلاح إجتماعي وذاتي في آن، مصدر سابق.
(2) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص71.

وبهذا نصل إلى أن العقلانية والتبرير العقلاني لهما نفس المنطلق، وقرابة في النطق، ولكنهما سيختلفان في الطريق، ويرسم كل منهما وجهته الخاصة، فتتخذ الأولى طابع الإيجابية، بينما يتسم الثاني بالسلبية والدوغما، وتجدر الإشارة إلى أنه حتى العلماء وكبار المفكرين يقعون فيه- التبرير العقلاني- فهو ليس فخا للعامة من الناس فحسب، بل حتى الذين يعدون من نخبة المجتمع يتورطون به إذا لم يحسنوا التحوط والحذر، وإتخاذ التدابير اللازمة للوقاية منه.

<< إن مصادر العقل والعقلانية في أي حضارة من الحضارات توجد في ديانتها وفلسفتها وقوانينها، وهذه الحقول من الخطاب والبحث تتفاعل قبل ظهور العلم المستقل بذاته لتنتج مركبات مختلفة من الخطاب العقلي القائم على أساليبها التعبيرية وإستعارتها ومفردات حقولها >>(1).

وهي في حقيقتها مفاهيم مشكلة لتطورات الإنسان عن نفسه/ذاته تشكيلا عميقا، وبالتالي ستكون إما داعمة لقواه العقلية، أو مضيقة الخناق عليها.

يمكننا فهم الذهن وعمله وطريقة تمشيه وإشتغاله جيدا من خلال تتبع الدراسات الأنثروبولوجية التي تترجم نوعية وكيفية العقل الذي يحكم جماعة بشرية معينة في رقعة جغرافية خاصة، فعلى سبيل المثال تحدث موران عن البربرية الأوروبية، وأكد دائما أن سمة الأنثروبولوجيا البربرية الإنسانية متداخلة ومعقدة جدا، ولكي نفهمها بشكل أفضل علينا أن نجعل الأضداد المتصارعة تستوعب بعضها، ثاوية داخلا، وعدم ظهورها في الوقت نفسه في ضدها لا يعني عدم وجودها، بل إن الظهور العلني في صفاته وتصرفاته يكون بالتناوب، ويعطي مثالا على ذلك يقول أن الإنسان المفكر هو الإنسان ذو الذهن العقلاني وفي الآن ذاته هو ذاك الأحمق القادر على الهذيان والخطأ، كما أن الإنسان الصانع الإقتصادي المسير هو نفسه الإنسان المبذر... وهلم جرا.

(1) توبي أ، هف: فجر العلم الحديث، الإسلام والصين والغرب، ترجمة محمد عصفور، سلسلة دار المعرفة، رقم 219، 1998، ص 109.

إذن فمن الواضح أن الإنسان يحمل الصفة وترياقها في وقت واحد، هذا الترياق هو القادر على إحيائه بعد أن كادت الفكرة المضادة تقتله.

كما أنه إعتبر العلاقة الأنثروبوإجتماعية(*) من أعقد العلاقات على الإطلاق <<بسبب أن الكل يوجد في الجزء الذي يوجد داخل الكل >>(1)، وهذا يعني أن الطفولة البشرية والتي ظننا أننا نحياها ببراءة دون تدخل أحد، إكتشفنا مؤخرا أن المجتمع قد تسرب إليها عن طريق أصناف التربية وتفاصيلها من صنع وأمر وتوجيه، وتدبير وضرب أحيانا وصولا إلى مرحلة النضج المتسمة بتعلم أشكال اللغة والثقافة.

وبهذا فقد جعل لنا موران تموضع شرعي وللعقل بالدرجة الأولى حينما أعطى لذواتنا وعقولنا القدرة على عيش الماضي والحاضر والمستقبل، هذا الأخير الذي يعد بالنسبة إليه حالة تكوين داخل الحاضر المتقلب، وبهذا نكون موجودون في عصر ما قبل تاريخ الروح الإنسانية، وعليه يكون المشكل الأنثروبولوجي الذي يعانيه النظام الإجتماعي والعقلي على حد سواء، متخبط في أزمات لم يوجد لها حل بعد، وهذه الأزمات أفرزت في حقيقة الأمر<< تقدمات/تقهقرات، ورغم ذلك فإننا وصلنا في الوقت نفسه إلى العصر الكوكبي حيث تحاول الإنسانية الخروج إلى الوجود >>(2).

(*) الأنثروبوإجتماعية: هو فرع من الفروع الخمسة المكونة للأنثربولوجيا التي تعنى بدراسة جملة تصرفات البشر المعاصرين في شكل مجموعات إجتماعية عن طريق إستحضار الدراسات الميدانية طويلة المدى ومراقبة عاداتهم وتقاليدهم، وكذا وضعهم الإقتصادي والسياسي والأمني- العدالة- وكذا التربية عن طريق تنشئة الأطفال تنشئة إجتماعية ودينية وثقافية ...إلخ، في رحلة طويلة للبحث عن معنى الحياة الإجتماعية بكل تفاصيلها.
إن ضبط مفهوم الأنثربولوجيا يختلف من ثقافة إلى أخرى ومن سياق إلى آخر،فنجد التعريف المنسوب إلى الولايات المتحدة الأمريكية الذي يأخذ معنى دراسة الإنسان من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء، فيستخدم الأمريكيون مصطلح الأنثربولوجيا الجسمية الفيزيقية Physical Anthopology للإشارة إلى دراسة الجانب الحيوي للإنسان،بينما يستخدمون مصطلح الأنثربولوجيا الثقافية cultural Anthropology ليعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الإجتماعية والثقافية لحياة الإنسان.
أنظر إلى حسين فهيم: قصة الأنثربولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة ، رقم98، 1978، ص13.
(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص52.
(2) إدغار موران: إلى أين يسير العالم؟، مصدر سابق، ص47.

ثانيا/ قوة الآيديولوجيا وحدودها

لقد تعمدت أن تكون الآيديولوجيا في هذا الفصل من الأسس الرئيسية المشكلة لنظرية التعقيد التي نادى بها موران باعتبار الطبيعة البشرية المتأصل فيها الإختلاف في الرؤى والتوجهات والمشارب، فكل فرقة أو جماعة أو طائفة إلا وتجد لها رأي خاص بها تنادي به وتسعى لتبريره وتقويته، وهذا الأمر سوف يخلق زخما فكريا هائلا، ويشكل هالة غنية وثرية ومتنوعة من الإختلافات والتمايزات.

إن الآيديولوجيا وفق ما أزعم قوة فكرية وطاقة روحية وجسمية هائلة إذا ما وظفت بالمنطق المقبول، ولأن موران سعى ويسعى دائما إلى إحتضان وإحتواء كل ما هو مختلف ومتعارض ومتناقض للآخر، أو للطرف الندي، فإنه بطريقة ما يدعوا إلى الإهتمام بالآيديولوجيات من حيث الخصوصيات الهائلة التي تقدمها للعالم، والتي تشده بها، إذن فلا فكر تركيبي ولا نظرية تعقيدية إن أبيدت جل الآيديولوجيات البشرية وتساوى وتشابه الجميع، لكن السؤال الذي يمكن طرحه هنا هو كيف يمكننا أن نرتفع بأفق الآيديولوجيات من مستوى الإختلاف الهدام المثير للشحناء والتفرقة إلى مستوى التقبل والإحتواء في إطار الحوار والمحبة؟

1/ الآيديولوجيات بين المنبت التاريخي والتطور الضروري

يرى العديد من الباحثين أن الأسباب الأولى لظهور الآيديولوجيا كان من خلال الصراع بين جماعات بشرية من أجل المصلحة الإقتصادية، أو الخلاف العنصري الإثني، أو الخلاف في العقيدة << ففي الحرب العالمية الأولى كانت المصلحة الإقتصادية هي وحدها ما يدور حول النزاع وفي الحرب العالمية الثانية، كان الأمر يتعلق بالمصلحة الإقتصادية وبالعقيدة، وفي الثالثة إذا نشبت، سيلعب كل من المصلحة الذاتية والعقيدة والجنس دوره >>[1].

(1) برتراند راسل: أمال جديدة، ترجمة عبد الكريم أحمد، القاهرة، آفاق للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص120.

هكذا يرى برتراند راسل أسباب ظهور الآيديولوجيات تاريخيا في كتابه آمال جديدة، وهو أمر أقرب إلى المنطق والإقناع ،لأن القوى المحركة للحروب والصراعات في العالم شغلها الشاغل منذ البدء هو الكسب والربح وإمتلاك كل سبل القوة والهيمنة والتفوق، ولكي يحصل هذا كان لزاما عليها أن تمارس مثل هذه الممارسات اللاأخلاقية في البحرية من قتل وتنكيل وتعذيب، حتى تكون آيديولوجيتها هي الغالبة والمنتصرة دائما.

لكن بالعودة قليلا إلى الوراء، وبالتحديد إلى نقطة الضبط والإنبثاق، نجد أن أول من إستعمل لفظ آيديولوجيا كان نابليون بونابارت(*) Napoléon Bonaparte (1769-1821) في فرنسا حيث سمى كل من كان يعترض من الجمهوريين بالآيديولوجيين، المعارضين لحرية أفكاره، ثم إنتشر خارج الحدود الفرنسية ليأخذ معان كثيرة مختلفة.

إن الآيديولوجيات تختلف من مكان لآخر، ومن شخص لثان، وحتى يحصل فهم وتواصل واضح وجيد بينهما، وجب حضور اللغة السلسة، وتفعيل الفهم الناعم الرحب المتراوح وهذا بسبب<< أننا نعاني الآن من التفكك المتزايد لإهتماماتنا، ونتجاهل أحيانا أهمية التعمق العقلي ونخلط بين قدرات العلم وقدرات الحواس الأخرى، وتطغى بعض ملكاتنا على بعض،... ومغزى ذلك أننا نرتعش إرتعاشا عصبيا أمام تعقيد الحياة، وعجزنا عن أن نجعل هذا التعقيد نظاما مركبا، إننا دأبنا إلى أن نتصور التحرر ثغرة لا إظافة، ومن أجل ذلك نتعرض للنقد أكثر مما نهيب من الإستيعاب والتكامل، وهذا ما ينبغي أن يؤديه فحص جديد الكلمات >>(1).

نعم إن الفحص الجديد للكلمات سيعطي ضخة جديدة لمفهوم الحياة بشتى تفاصيلها، وهذا لأن الكلام حمال لأوجه عديدة، ولسنا ندري أي الوجوه هو المقصود أو المطلوب أو

(*) نابليون بونابارت: شخصية تاريخية فرنسية من أصل إيطالي، أظهر تفوقا كبيرا منذ البدأ في العلوم العسكرية وكذا في الآداب والتاريخ والجغرافيا، كما له إطلاعات في مجال الفلسفة لكل من مونتيسكيو وروسو وفولتير.
فهو إذن قائد عسكري وحاكم فرنسا، وملك إيطاليا، حكم بصفته إمبراطورا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، فكانت لجملة أعماله ومنجزاته التأثير البالغ على السياسة الأوروبية، له هواية جمع التحف النادرة المعروف بها، فكان كثيرا ممن أرادوا التقرب إليه إهدائه بعض التحف القديمة الثمينة، توفي بسرطان المعدة ودفن في مجمع المقام الوطني للمعوقين، بباريس.

(1) مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، رقم193، 1978، ص245.

المرغوب، لأجل هذا من الضروري أن نكون حريصين على حضور الفهم الجيد، وإعطائه الوقت الكافي والتركيز الكلي، حتى نتمكن من الشطر الأكبر من المعنى.

وبهذا فإن<< موضوع الفهم ذاته أكبر من أن يهمل، لا نزال محتاجين إلى الشعور بأهمية نضج الفهم، وأهمية الحديث العلمي عنه >>(1)، حتى نفهم كل ماتحتويه كل أدلوجة جديدة أو غامضة بتعبير عبد الله العروي.

لقد تحدث لوي ألتوسير(*) Louis Althusser (1918-1990) عن الآيديولوجيا مفهوما ووظيفة، وقال بقوتها في حفظ مكانتها والدفاع عنها بشتى السبل عن طريق التغيير في ملامحها في كل مرة حتى تتجدد ولا تقع في الرتابة والملل اللذان يهددان بقائها.

إن لها حضورا إجتماعي- سوسيو ثقافي- كثيف يضمن سيطرتها على كل فرع يدعي قدرته على التحرر منها إنها في<< المدرسة والعائلة و وسائل الإتصال، وحتى النقابات والنظام السياسي هي عناصر الجهاز الآيديولوجي للدولة التي تضمن للآيديولوجيا المسيطرة الإنتشار والنوعية عبر فئات المجتمع >>(2).

إن هذه الخاصية القوية التي تمتاز بها سوف تخول لها التبوأ بمكانة صلبة وإستثنائية، وتجعلها تمارس وبكل أريحية وظيفتها الأساسية المتمثلة في<< إعادة إنتاج النظام، وتدريب الأفراد على القواعد التي تحكم النظام >>(3).

وهذا يعني السيطرة الكلية على الإنسان نظريا وممارساتيا، وتضييق فضاء الحرية عليه بالكامل تقريبا.

(1) مصطفى ناصف: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، رقم193، 1978، ص 224.
(*) لوي ألتوسير: فيلسوف وسياسي فرنسي،مولود بالجزائر، عمل بمجال الفلسفة السياسية ونظرية المعرفة والميتافيزيقا والإبستيمولوجيا وفلسفة العلوم، تأثر بمجموعة من الفلاسفة على غرار ماركس ولينين وغرامشي، باشلار، سبينوزا...إلخ، كما أثر هو الآخر في شخصيات مشهورة مثل ميشال فوكو برنار هنري ليفي، يعد من أكبر الفلاسفة الماركسيين، من أهم مؤلفاته كتاب: قراءة رأس المال، الآيديولوجيا وأجهزة الدولة الآيديولوجية...
(2) Encyclopédie, encarta, Ideologie, microso Ft 1998, P 160.
(3) بول ريكور: محاضرات في الآيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، ليبيا، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2001.

أضف إلى ذلك أن الآيديولوجيات ذات تأثير جذري وكاسح وأكثر قوة من مد الأنتليجانسيا، خاصة على الصعيد السياسي والإجتماعي، وفي مقارنة(*) بين الآيديولوجيا والفلسفة، نجد أن الأولى قد فقدت تماما الفرادة والتميز عندما فقدت الإشكالية والتعقيد، وهو الأمر الذي أدخلها في دهليز التحيز والتحزب للرأي والإنغلاق عنه بعد الإلتفاف حوله دون مراعاة للآخر المختلف، وهو الطابع الذي عرفت به- طابع العيب والنقص والوهم-.

أما الفلسفة فقد إختارت أن تطرح نظريات، وتحاول قدر الإمكان تجسيدها على أرض الواقع، في حركة جسورة منها لإنقاذ الإنسان من واقعه وعالمه دون إستثناء، لكن في ذات الوقت ننوه إلى الآيديولوجيا السياسية المرتبطة إرتباطا وثيقا بالحياة السياسية والإجتماعية، فهي تعد تصورا واضحا وصريحا للحياة اليومية الواقعية للإنسان.

وهنا نجدها تتلاقى مع المنظومات الفلسفية دون أن تستطيع التفريق في طريقة طرح كل منهما، وهذا لإرتباطهما الوثيق بالمبدأ المعرفي والمبدأ الأخلاقي.

كما أن للآيديولوجيا شحنة قوية مستمدة من الجانب الأسطوري العالق في أذهان البشر، و<< لأن الأسطرة والتأليه اللذان يتخللان الآيديولوجيا المجردة يحملان في أحشائهما الأهواء والتعنيفات، فإن قسوة المنطق الباردة وهذيان العقلنة الجليدي ستخترقهما>>(1).

وفعلا ما نلاحظه في عالمنا المعاصر، وفي يومنا هذا أن السائد القوي المتين في حكم العالم هو ذو الآيديولوجيا الأكبر والأكثر قناعة وتصديقا.

(*) لأن موران قام بمقارنة بين الفلسفة والآيديولوجيا، فقد سمحت لنفسي تحت ضغط المنطق والملائمة أن أتعرض للعلاقة بين الآيديولوجيا والواقع حيث أن هناك إرتباطا وتلاحما وثيقا بينهما،فالآيديولوجيا <<لا تعكسه فحسب بل تحاول تسويغه أيضا،والواقع ليس مجرد واقع إجتماعي مادي إنما هو واقع إجتماعي نفسي وروحي،بل إنه ليس واقع فحسب وإنما هو أيضا تطلعات وآمال>>.
أنظر إلى: عبد الوهاب المسيري: الآيديولوجيا الصهيونية، ص135.
(1) إدغار موران: النهج: الأفكار، مصدر سابق، ص216.

2/ في ملامح الآيديولوجيا في العصر الراهن

في دعوة منه إلى إرساء مبادئ السلم والأمن والتسامح والهدوء، قدر موران أن الآيديولوجيا بوجودها الفعال البناء، وكذا الفتاك الهدام إنما إذا وجدت من يهذبها ويسيرها نحو كل ما هو أنسب للبشرية، فإنها سوف تحقق الخير لها دائما، وسيزول الجانب البائس منها، وهذا لأن البشر بشتى طوائفهم وفرقهم ومذاهبهم، يمثلون آيديولوجيات مختلفة، تعبر عن إنتماءاتهم الثقافية والوجودية والقيمة...إلخ، وعلى هذا الأساس<< يجب العمل على تفادي صراع الحضارات، كما تعلمون أن المتطرفين في العالم المسيحي والإسلامي ينسقون فيما بينهم، ويدفعون في نفس الإتجاه ألا وهو الحرب والصراع، لا يوجد اليوم تنسيق شبيه بما يقوم به المتطرفون فيما بينهم، لذلك ينبغي لنا تشجيع قيم التفاهم والتسامح >>(1).

هذه هي الوسيلة الوحيدة برأيه القادرة على التصدي لكل ماهو سيء صادر عن التطرف، فالعلاج إذن هو مبدأ الحوار والتفاهم والتسامح، والتسامح هنا يقصد به التغاضي عن كل ما حدث في الماضي، من ذكريات أليمة عايشتها البشرية من أطراف مختلفة وسببت لها الرعب والذعر والألم، ليس ثمة من حل لتجاوز الأزمة أفضل من التناسي والتسامح، إنه السبيل لبلوغ مرحلة جديدة يسودها الوئام، وتتلاقى فيها الأجيال الراهنة وهي لا تحمل لبعضها أدنى ضغينة أو حقد أو كراهية.

كما أن كل الآيديولوجيات التي سادت في التاريخ، والتي هي سائدة الآن تقوم على منطق الوعد، هذا المبدأ الذي نجده مجسدا وبقوة على سبيل المثال في الماركسية، فهذه الأخيرة حين ظهرت كنظرية رفضت تماما أن تدرج ضمن خانة الفلسفة، وأرادت بصرامتها أن تكون علما، وتؤسس لمنهج جديد فدخلت في خانة المذهب، وعندما إدعت لنفسها إمتلاك الحقيقة والقدرة على تخليص البروليتاري من كل مشاكله خاصةالإقتصادية منها، وقعت في الدوغما وتأدلجت.

---

(1) حوار مع الفيلسوف وعالم الإجتماع الفرنسي، إدغار موران على الموقع الإلكتروني:
https//:www.aMP-dW.com بتاريخ: 2018/12/23 على الساعة: 09:15

ولأن لها مرتكزات معرفية تعول عليها كالمادية الجدلية والتاريخية والبروليتاريا، فقد أعطت وعدا كبيرا وخطيرا للآخر بتخليصه، فأضحت بذلك إحدى أعظم الآيديولوجيات(*) التاريخية على الإطلاق.

لقد تحدثنا سابقا عن موضوع الأنثربولوجيا، وأنا الآن أستحضره مرة أخرى لاعتقادي أن الأنثربولوجيا هي الموضع الأكثر ترجمة لمسألة الآيديولوجيا وهذا لأنها علم يختص بالأناسة في كل تفاصيلها وتقاسيمها، وهناك تسكن الآيديولوجيا وتعشش.

والأنثربولوجيا لها نواة تحكمها شروط أساسية وتسيرها وهي ثلاث، الشرط الأنثربولوجي للمعرفة، الشرط التاريخي والإجتماعي للمعرفة، والشرط المنطقي للمعرفة، وهذا الأخير الذي له القدرة على تنظيم المعارف والمجتمع على حد سواء بطريقة تداولية << وهو النواة لما أنها تتخطى أنثربولوجيا المعرفة وسوسيولوجيا الثقافة ويكون معهما نوعان من القطب الثلاثي >>(1).

معنى هذا أن كل هذه العناصر المجتمعة والمعقدة في تجاذب وتفاهم تارة وتنافر وتخاصم طورا أخرى تؤسس لمنطق خاص يحكم البنى البشرية ويؤسس لقواعدها الدائمة والداعمة، إنها المترجمة لحقيقة الآيديولوجيات المختلفة فيها، التي تفرزها عن بعض مرة، وتواشجها مع بعض في مرات كثيرة.

لقد إستطاعت الآيديولوجيا التي كونت السوسيولوجيا، والتي بدورها كونتها فيما بعد أن تكون قوة كاسحة تقوي المجتمع عن طريق تغذيته بشتى أنواع الأفكار والحيل والممارسات، ثم إن هذه السوسيولوجيا قد حضيت بمكانة وهيبة مرموقة في الأوساط الإنسانية المختلفة، حيث كان يرجع إليها لفرز الأمور وفهم الشؤون وإصلاح

(*) لقد إرتبطت الآيديولوجيا تاريخيا بالميتافيزيقا، وبقت لصيقة بها فترة طويلة ومعتبرة من الزمن، لكن مع تطور العلوم والتقنيات وأهميتها، قررت الإنظمام إلى مظلتها المشهورة، الأمر الذي غير من نمط خطابها وجعلها تدعو إلى التحرر من كل القيود وإلى الإلتفاف على مختلف اشكال الحريات بل وإلى التخلص من براثن الميتافيزيقا نفسها كسلطة تفرض على العقل كل ماهو جاهز ومقولب ومتحجر، ومن ثم إتباع منهج أكثر سلاسة ومرونة يمكنها من الإبتعاد عن<< الأحكام المسبقة التي يعتقد الطغيان أنها لازمة لحمايته ودعمه >> .
انظر إلى: عبدالله العروي: مفهوم الآيدولوجيا، بيروت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط7، 2003، ص23.

(1) Edgar Morin, introduction in Nsonsissa Auguste trausdisa plinarité et transeversalité epitémologique chez edgar morin paris edition L'harmattan, 2010, p p 09-10.

الإعوجاجات الإجتماعية وفي الوقت الذي كانت السوسيولوجيا تصبح فيه أسطورة إجتماعية، كان إستخدام الخبير السوسيولوجي في أجهزة الخطة والإدارة والمشروع يتزايد تبجيلا وشرعية.

إذن نفهم من هذا أن تطور السوسيولوجيا أدى إلى تطور وظهور قبل ذلك فروع ورتب ومسميات جديدة على غرار الخبير السوسيولوجي الذي يعنى بالدرجة الأولى بالإهتمام بهذا الشأن وتتبعه، ومعرفة كل ما يحيط به، هكذا تنمو الآيديولوجيا وتتضخم وتميز كل مجتمع عن آخر.

إن الآيديولوجيا قادرة على فتح آفاق عظيمة لنا، وهذا لأن تصوراتنا المشكلة لها المتسمة بالتعقيد هي المحرك الأول والفعال لها، وبالتالي فما نريده نحن كمقصد نهائي وينبغي الوصول والحصول عليه هو الحال الذي سيترجم أي نوع من الآيديولوجيات نحن، هذا لا يعني تماما أن نتعصب لرؤانا، وأن نقصي أو نحتقر آيديولوجيا الآخر المختلف الذي يعيش معنا في نفس الكوكب ويتقاسم معنا نفس الخصائص، كلا << يجب أن يكون تصورنا للذات معقدا، وأن يكون المرء ذاته تابعا ومستقلا في الوقت نفسه، وأن يكون فردا عابرا ورفرافا ومحتارا، أي أن يكون كل شيء تقريبا بالنسبة إلى ذاته ولا شيء بالنسبة إلى الكون >>[1].

وعليه فإنه من الضروري أن نتساءل عن أماكننا ووضعياتنا في هذا الكون، هل هي وضعية مريحة وفي علاقة فضفاضة ومتراوحة مع الآخر، أم أنها مكانة يسودها الإضطراب والإنطواء والتقوقع؟ إن الوعي بهذا السؤال سيمكننا من معرفة أحوال آيديولوجياتنا، وهل نحن في وضعية مرضية أم وضعية مرضية- من المرض والرضا-.

* ولأن الآيديولوجيا هي خطاب مجسد في طرائق ورؤى شتى، فإن هذا الخطاب ينزع دوما إلى الإختلاف مشيرا في ذلك إلى << الفروق النوعية ويؤسس للهويات >> التي تزيد من زخم وكثافة الآيديولوجيا المميزة للإنسان.
أنظر إلى: ديان مكدونيل: مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عز الدين إسماعيل، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ط1، 2001، ص75.

(1) Edgar Morin, introduction à la pensée complexe, paris edition du seuil 2005, p 89.

ثالثا/ في توطين الأخلاق المركبة

إني أعتبر أن الحديث عن الأخلاق هو الأرقى والأفضل على الإطلاق، لا لشيء سوى لمكانتها وفاعليتها وقدرتها في تقوية وإضعاف الفرد والمجتمع على حد سواء.

إنه من اللازم والمؤكد الوقوف عند هذه الهالة العظيمة التي يعتمد عليها حاضر الإنسان ومستقبله، فهي من الأسس الخالقة والداعمة للمشاريع الفكرية لدى أي فيلسوف وإنني أكاد أجزم أنه يستحيل على أي عالم أو مفكر طرح قضية أو نظرية معينة ألا يستند عند عرضها والرغبة في تثبيتها وتقويتها إلى الأساس الأخلاقي.

لذا إقترحت مجموعة من العناصر المعرفية التي تعالج هذه المسألة بالضبط، وتقف على إعتماد إدغار موران عليها، وكيف عانقها وإحتواها رغبة منه لبناء صرح معرفي متين، وعليه حق لنا قبل البدء أن نتسائل:
أيعقل أن تكون الأخلاق حقا أكبر الدعائم وأقواها في تأسيس النظريات والتوجهات؟

كيف فهمها إدغار موران ووظفها، وقبل ذلك ماهو مرماه في التعويل عليها في عملية بناء مشروعه؟ ثم أتستحق الأخلاق كل هذا الإلتفاف والإهتمام خاصة في مغامرة معرفية كنظرية التعقيد؟

1/ المسعى الأخلاقي بين شولتي التنظير والتطبيق

كنا قد نوهنا سابقا إلى الإهتمام الكبير الذي حظيت به الأخلاق من طرف الجميع دون إستثناء عربا كانوا أم عجما، مسلمين أم غير مسلمين، فنجد على سبيل المثال أبو حامد الغزالي(*) قد تطرق للموضوع بنوع من التفصيل، وذلك في كتابه الميزان، حيث جاء في تعريفها أنها << إصلاح القوى الثلاث، قوة التفكير، وقوة الشهوة، وقوة الغضب

(*) أبو حامد الغزالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري (1058م -1111 م): لقب بالعديد من الألقاب منها حجة الإسلام، شرف الأئمة، العالم الأوحد...إلخ هو فيلسوف ومتكلم وعالم عقيدة كتب الفارسية والعربية، له مجموعة مؤلفات قيمة منها 228 كتابا و رسالة أشهرها تهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين.

>>[1]، أي أن الأخلاق حسبه ممارسة إصلاحية تمس الملامح المختلفة للإنسان نفسية كانت أم جسدية، وهي بهذا أداة تقويمية رادعة لكل فعل غير قويم ولا منضبط.

كما نجده أيضا في موضع آخر يعرف حسن الخلق بأن جعله << يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها، ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات، وأن يتعود العادات الحسنة، فيشتاق إليها فيؤثرها فيتنعم بها >>[2].

صحيح أن التعريف الثاني لا يبتعد كثيرا في معناه عن مدار التعريف الأول، لكننا نلاحظ في هذه المرة أنه ألصق بالأخلاق صفة التنقية والتنظيف، بمعنى محاولة الإنسان الدائمة والدؤوبة في التمشي وفق المسار المستقيم الذي رسمه له الشارع الحكيم- الله- بفعل أوامره وإجتناب نواهيه، فيكون بذلك على خطى الخلق الحسن المليح.

لقد طرح سؤال جذري حول الأخلاق ينم عن صعوبته وسهولته في ذات الوقت<<ماهو شكل الإنسان الذي نريد الوصول إليه؟ كيف نطور معنى النحن ضمن الإطار الأخلاقي؟ أي ضمن معنى المجموعة؟ ثم ماهي أحسن علاقة أخلاقية مع الآخر؟ >>[3].

وهنا نجد مقاربة الإجابة باستحضار مفهوم الفكرة، حيث أنه يجب الإشتغال على الفكرة، لأنها في المشكل الجوهري للأخلاق، نحن نجد أمامنا دائما علوما كثيرة ومختلفة أقصت الأخلاق من ساحتها، بينما كان من اللازم أن تحتضن كل الفروع والتخصصات هذا الفعل- الأخلاق-.

والإنسان منذ ولادته أي منذ البدء لديه مبدأ ثان بالإضافة إلى مبدأ الحياة الأول، وهو مبدأ النحن أو الجماعة، الذي يتضمن الأنا داخله، وبهذا المعنى يضحى مستعدا للتضحية

(1) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، بيروت، لبنان، دار الجيل، ط1، 1988، ص 152.
(2) المرجع نفسه، ص 152.
<< Ethique adj qui concerne la morale, nf sience de la morale. >>
Voire: La Rousse: dictionnaire de Français, la presente edition, 2008, p158.
(3) Edgar Morin/ Tariqu Ramadan : L'ethique Aujourd'hui entre theories et pratique youtube 29/10/2013.

بنفسه لأجل أسرته ومجتمعه ووطنه وغيرها من الدوائر الهامة بالنسبة إليه، هذا النشيء يتطور ضمن مبدأ التفكير والعمل كما قال باسكال، ثم إن الأخلاق ليس لها وجود إذا لم يكن مبدأ النحن متطورا في أذهاننا، بمعنى أنه ناضج كفاية حتى يفعل ويكون له التأثير والوزن المرغوب، ولكي يحدث هذا لا بد من تفعيل منطق العفو أو التسامح (La teleranse) النابع من القلب، والذي يتطلب فهما قويا جدا فالأخلاق يجب أن تكون لها الغلبة.

وبالتالي فالأخلاق عند موران، رهان مستقبلي ملح على عكس طارق رمضان(*) الذي يجدها ضرورة ملحة حالية(**).

أما عن غاية الأخلاق عنده فهي المتعلقة بسعادة الآخرة، لأن كل ما عداها من المرتبطات بالحياة الدنيا هي مسماة بالسعادة على سبيل المجاز فقط، وهذا لأنها لا تعين على خدمة يوم الحق.

ولكن إذا وقفنا على نظرة الغزالي للأخلاق بهذه الكيفية، فإننا سنجدها مختلفة تماما عن الشكاك(***) أو دعاة المدرسة الشكية الذين تناولوها من زاوية مختلفة، تجعل الإنسان أو الفرد هو المسؤول الأول والمباشر عن جملة أفعاله، وبالتالي عليه أن يفعل ما يشاء ويهوى دون تدخل أي إرادة أو قدرة مخالفة لفعله وهذا راجع إلى أن الأخلاق حسبهم وهم زائف لا أساس له، وأنه قد وضع من طرف الحكام رغبة منهم في السيطرة على المحكومين، وتوجيه سلوكاتهم بما يخدم مصالحهم ومنافعهم الخاصة.

(*) Tariqu Ramadan (1962- ?) Islamologue, theologien, philosophe suisse, égyptien son ouvrage, l'urgence et l'essentiel, avec Edgar Morin Don quichotte octobre 2017 Au périle des idées avec Edgar Morin, 2015.

(**) في حديثه على ضرورة الأخلاق محاججا موران الذي قال برهانها كقادم آت، تحدث طارق رمضان أيضا على علاقة الأخلاق بالذات وبالجانب الروحاني بوصفه مفكرا مسلما متدينا، إذ لا يجب أن يخلوا كل فعل خلقي من الجرعة الروحانية حتى لا يقع الإنسان والحضارة في الفراغ والخواء المؤدي إلى عواقب وخيمة نفسيا وإجتماعيا وعلى جميع الأصعدة، وهو الأمر الذي أكده موران من الحال الذي تمر به الحضارة الغربية لولا تدخل النفحات الروحية للحضارة الشرقية فيها ومنحها معنا جديدا.

أنظر إلى:

Edgar Morin/Tarique Ramadan: op cit.

(***) الشكاك: هو توجه فكري يتردد صاحبه بين إثبات الأمور ونفيها وهذا الشك غير منهجي ولا يوصل معرفة حقيقية، أشهر الشكاك عبر التاريخ هم السفسطائيون اليونانيون وكذا مؤسسها بيرون الإيلي متبني مذهب الشكية العملية (360 ق م- 270 ق م) منكرا في ذلك إمكانية المعرفة والدعوة إلى تعليق الحكم من أجل راحة وسكينة العقل.

وأما هيوم(*) David Hume (1711-1776)، فيجد أن << السلوك الأخلاقي يجب أن يعتمد على شيء لديه قوة تحريك أو دفع الإنسان على الفعل>> [1]، أي أن جملة الممارسات الأخلاقية حسبه مربوطة بقوة محركة ومسيرة لأفعال الإنسان، ولا يهم كيف يكون صانع ومالك هذه القوة، فقد يكون إلاها، وقد تكون رغبة داخلية، وقد تكون دافعية خارجية، إذن هي جملة من العوامل المساهمة في إحداث الفعل الخلقي وإخراجه من حالة السكون إلى حالة الحدث والفعل، ضف إلى ذلك أن مصدر الأخلاق عنده- هيوم- هو الإحساس المباشر.

لقد لاحظنا جيدا مما سبق أن الأخلاق تأخذ مفهوما مختلفا حسب توجه ومشرب كل فيلسوف فبعد الغزالي والشكاك مع هيوم سنجدها قد إختلفت قبلا مع أفلاطون والمسيح، وبعدهم كلهم مع نتشه، حيث قال المسيح إن الأخلاق هي إبداء اللطف نحو الفقراء، وقال نتشه إنها شجاعة القوي، وقال أفلاطون هي الإنسجام الفعال للكل، ربما يجب جمع هذه المبادئ الثلاثة لإيجاد أخلاق كاملة.

إذن فالأخلاق كعلم يبدأ حسب الجميع من الإجتماع والتنظيم، أي إجتماع الآراء والقرارات حول ما يخدم الإنسان وأحواله وما يحقق له الصالح العام، وذلك بالإلتفات إلى كل الخصائص والتفاصيل المؤدية لذلك، وكل خاصية ينتبه لها فيلسوف ما بحسب توجهه، وطريقة حكمه، ولمها جميعا سوف يكون لنا جماع أخلاق مهذبة ومفيدة وصالحة للجميع، أما مسألة التنظيم فهي في غاية الأهمية، حيث يهدف هذا الأخير إلى قيام كل شخص بالشيء الذي يريده ويجيده خدمة لحياة المجتمع الذي يعيش فيه، في المقابل يخدم المجتمع حياته بالطريقة التي يفهمها، فتكون بذلك عملية التنظيم هذه ذات مصلحة عائدة على الجميع دون أنانية ولا خداع.

(*) فيلسوف ومؤرخ وعالم إقتصاد إنجليزي من أصل اسكتلندي، أول من طرح الفلسفة الطبيعية بنظرة تجريبية، معروف بحذره وشكه في العلوم والمعارف التي يتلقاها، تأثر بمجموعة من الفلاسفة مثل جون لوك وباركلي مؤمنا بأن كل معرفة جديدة هي نتاج الخبرة، من مؤلفاته: بحث في الفهم الإنساني 1746م، بحث في مبادئ الأخلاق 1751م.

(1)محمد سيد أحمد: الأخلاق عند هيوم، مصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1992، ص45.

لقد أبدع كارل ماركس في خلق نموذج أخلاقي جديد مؤدي إلى السعادة الحقة، ولكن ذو منحى سياسي إجتماعي إقتصادي شوري، حيث << إنطلق علم الأخلاق عنده من تلك النقطة التي تتعلق بمسألة التراكم الفكري المؤسس من قبل آيدولوجية المستغلين والمضطهدين، وينحصر الأمر هنا في إظهار حيوية أفكار السعادة وتأثيرها على التربية الإجتماعية الجديدة >>(1)، ففند بذلك المنطق القائل: إما أن تقوم بدوس الآخرين أو سيقوم الآخرون بدوسك، وهو ما أنشأ هدفا واضحا وصريحا موجها لخدمة الثورة.

إن ماركس كان ذكي بحيث وضع هدفه المستقبلي في المحور التربوي الإجتماعي، وهذا للدور الفعال الذي تلعبه التربية المجتمعية في إخراج نشأ قوي أو ذليل، بحسب نوعية الأفكار التي يمتصها دماغه وإنعكاساتها على شخصيته وتصرفاته.

حيث كانت السعادة عند الطبقة الكادحة (*) في المعنى الكلاسيكي هي أن ينام العامل المتعب المعدم وهو شبعان أو معه ما يكفي من خبز حتى الصباح، أو أن يذهب للعمل وهو يعلم أن أجرته قادرة على توفير مصاريف الطبيب دون دواء، وهو مع ذلك مقتنع وراض وسعيد، وهنا نلحظ أن مفهوم السعادة يختلف باختلاف الوعي وعمق الإدراك.

وهو ما جعل ماركس يقوم بثورة لإزاحة هذا الصنم العتيق وتنظيف الرواسب الخاطئة والجاهلة بأخرى تعي معنى الحقوق والدفاع عن الأطراف المظلومة والكادحة.

لقد شدد إدغار موران في كتابه ثقافة أوروبا وبربريتها على ضرورة التسلح بالأخلاق على جميع الأصعدة والمستويات، حيث يجب التخلق من طرف الباحث العالم، وهو يقوم بدراسته وينجز مشاريعه، ويجب على الدولة التحلي بالأخلاق في ممارستها للسياسة، وكيفية التعامل مع شعبها، ويجب على الإنسانية التحلي بالأخلاق عندما تتعامل مع الآخر المختلف عرقيا ودينيا ولغويا...إلخ.

---

(1) ك، نيشيف- وفولتشنكو: أخلاقيات السعادة، ترجة يوسف إبراهيم الجهماني،دمشق، سوريا، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص 113.

(*) الطبقة الكادحة: مصطلح ماركسي يعود إلى نظرية الطبقات التي أتى بها كارل ماركس، حينما قسم المجتمع إلى طبقات متصارعة بعضها يتحكم في بعض، فأما المتحكمون فهم الطبقة الحاكمة مع البرجوازية، وتمثل طبقة واحدة برجوازية في قبال الطبقة العاملة الفقيرة الكادحة وتسمى الطبقة البروليتارية، وهذه الأخيرة هي من تصنع الثورة وتقلب الموازين وتحلل العدل والمساواة.

والأخلاق تقوم وفقط على الوعي، فإن كان الوعي ناضجا حاضرا جنب البشرية الكثير من الأهوال والويلات، ويعطي في ذلك مثالا في التاريخ عن النازية التي إنحازت إلى الجانب العرقي، وإستعبدت ما سواها من الشعوب المختلفة، خاصة الساكنة الإفريقية الذين تعرضوا للإستعباد والترحيل والنفي والقتل وغيرها من مظاهر الجور والبطش.

كما لا ننسى حركتها- النازية- الشهيرة مع يهود المحرقة الهولوكوست(*) في أبشع صورة لها، وحسب اعتقادي فإنها مؤامرة صهيونية بائسة، سعت لكسب تعاطف الرأي العام الدولي بغية تمرير سياستهم المحتلة،وبالتالي النظر اليهم كأقلية مسكينة مظلومة ومسلوبة الحقوق،فالتفكير هنا خبيث واحتيالي من عدو أذى بمخططاته البشرية قاطبة.

كل هذا حدث بسبب الإنغلاق داخل فكر ثنائي << أي فكر ملبد بقطب إهتمام واحد على حساب الأقطاب الأخرى>> (1)، وبالتالي فالجانب الأخلاقي ضروري قيامه، وضروري وجوده وضروري تقويته حتى يضحى من الأسس المتينة التي تقام عليها المشاريع والنظريات الحقة.

إنه لمن الأخلاق المطالبة بإنسية جديدة تتعرف على أشكال البربرية الكاسحة فتبيدها، إنسية مختلفة تعانق ثقافة الإعتراف، وبلوغ الوعي المخبوء أو المتخاذل، إنه لمن الأخلاق لكي نعالج الأزمات والمحن، أن نعرف ماذا حدث حتى نتجاوز ونتصالح.

2/ من أجل أخلاق كونية مركبة

إن ممارسة أخلاق الفهم أمر ضروري حتى يتوضح المعنى ولا يبتر أو يشوه، ذلك أن << أخلاق الفهم هي عبارة عن فن العيش الذي يتطلب منا أولا أن نكون قادرين على

(*) الهولوكوست : وتعني باليونانية المحروق، وبالعبرية الكارثة، وهي عبارة عن حادثة في شكل إبادة جماعية لليهود الأوروبيين- حوالي ستة ملايين شخص- أثناء الحرب العالمية الثانية، من طرف النظام النازي بقيادة أدولف هتلر، وذلك كان في ليلة التاسع من نوفمبر عام 1938، وفي الحقيقة هناك من يرى بأن الهلوكوست لم تكن خطة لإزالة الجنس اليهودي فحسب، بل شملت معها أجناسا آخرين كالغجر، والسوفيات والسود وكذا مجموعة من المعاقين وغيرهم.
(1) إدغار موران: ثقافة أوروبا وبربريتها: مصدر سابق، ص 56.

الفهم بشكل نزيه، إنها تتطلب مجهودا كبيرا لأنه لا يمكن أن ننتظر من الآخر أن يعاملنا بالمثل >>[1].

إن الدعوة هنا واضحة وصريحة، إنها تقر بأن الآخر حتى وإن كان مختلفا عني، وغير قادر على تمثل تنوعي وقدراتي، فأنا يجب أن أتميز عنه وأصنع لنفسي مساحة واسعة كافية لكي أفهمه من خلالها جيدا عن طريق الإعتماد على ميتازوايا نظر، ولذلك قرر موران بأنها عملية صعبة وليست هينة، ولكن مع تعلم هذا النمط من السلوك، سوف نرتفع بمستوى تعامل البشرية مع بعضها من حيز الضيق إلى أفق تحقيق الإنفتاح والإحتواء.

إن من متطلبات أخلاق الفهم المحاججة والحوار عوض عزل الآخرين ولعنهم، وتوصيفهم بكلمات بذيئة لا تليق بالرواق الأخلاقي الراقي على شاكلة الخيانة والعجرفة والغباء... وغيرها الكثير، لأن هذا الفعل يمارس زيفا وعتمة وتضليلا كبيرا عن الذات مما يمنعها فيما بعد عن الإعتراف بخطئها عند إكتشافه.

ولذلك << علينا أن نربط أخلاق فهم الأشخاص لبعضهم البعض بأخلاق العصر الكوكبي(*) الذي يتطلب عولمة الفهم >>[2].

ومن ثمة كان لزاما ملحا على الثقافة الغربية المتكبرة التي سوقت لنفسها صورة براقة وأسطورية تظهر فيها أنها النموذج المثالي والرائع، والذي يجب أن يحتذى به، وأن يتعلم منه جل الثقافات عبر العالم، وبالنسبة لها فهي لا تحتاج للأخذ والتعلم من أي ثقافة أخرى لأنها متشبعة ومكتفية بما تزخر به من خيرات وثراء.

وهذا في الحقيقة فهم خاطئ ويؤدي إلى كوارث تاريخية لا قبل للبشرية عليها، لأنه حسب تصريحاتها تكون الثقافة الغربية بعيدة تماما عن ممارسة الفهم الصحيح- المبني

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص 93.

(*) العصر الكوكبي: مصطلح مركب نحته إدغار موران، يفيد أن العصر الحالي الذي تعيشه البشرية جمعاء يمتاز بمصير مشترك واحد، وتفاعلات واحدة، وتقنية وتواصل واحد، وأكلات وملابس ومظاهر واحدة، وعليه أضحى عصرا واحدا يجمع مصير سكان الكوكب في مصير واحد، أين أصبحوا أكثر قربا وأكثر إلتقاءا.

(2) إدغار موران: المصدر السابق، ص 96.

على التعلم من الآخر وتبادل الخبرات والمعارف معه-، لأن الصواب يسكن في الجميع على إختلاف عناصرهم وتفاصيلهم، وبالتالي تكون أخلاق الفهم حسبه هي القدرة على التعلم وإعادة التعلم من جديد من أي طرف أو في حالة نسيان القديم المقترح.

و في كل ثقافة تكون العقليات متمركزة حول العرق أو حول المجتمع، وبالتالي تمجد داخلها، ومنغلقة تجاه الثقافات الأخرى.

<< وترتبط الأخلاق بالرفاه البشري، فكل المثل الأخلاقية مثل العدالة والجمال والرحمة والفضيلة والتسامح والحرية والحقوق مصدرها إنشغالنا البشري الجوهري بما هو أجود وأصلح لنا، وكيف ينبغي أن نعيش>>(1).

يمكننا أن نعرف المنطق الذي تشتغل به الأخلاق من خلال العلم المعرفي والدلالة المعرفية الذين سوف يجعلاننا نحلل وبعمق تصوراتنا الأخلاقية، هناك الكثير من النقاط التي يجب أن نتعرض لها في سياق حديثنا عن الأخلاق، إننا نجدها مبثوثة في كافة الثقافات المختلفة على سبيل المثال نظرية الكارما(*) البوذية(**) Karma التي تقوم على المحاسبة الأخلاقية مع الكون، حيث أنك لن تأخذ من هذا العالم إلا ما تستحق بحسب العمل والنية والإقدام.

فهناك إذن منطق توازنات بين الأشياء الحسنة والأشياء السيئة التي تحدث لك، والأخلاق كذلك تقوم وفقط إذا حدث توازن بين الحقوق والواجبات الخاصة بالإنسان، وإن أي إختلال أو فوضى تطرأ عليهما، فإنه بالضرورة ستطرأ على الأخلاق نفس الفوضى، فيختل بهذا الفعل نظام الكون.

---

(1) جورج لايكوف ومارك جونسون: الفلسفة في الجسد،ترجمة عبد المجيد جحفة، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2016، ص 391.

(*) الكارما Karma: هو مفهوم أخلاقي في المعتقدات الهندوسية والبوذية واليانية والسيخية والطاوية، ويعني الفعل أو العمل، وهو مرتبط بالنوايا الفردية حيث أن كل نية حسنة أو جيدة تجلب كارما حسنة أو جيدة والعكس صحيح، وهي مرتبطة أشد الإرتباط بالمستقبل من حيث السعادة والتعاسة، فالأفعال الأخلاقية التي يقوم بها الكائن الحي وما يترتب عن هذه الأفعال من عواقب بحسب الفعل الأخلاقي.

(**) البوذية: ديانة دارمية، تعد رابع أكبر ديانة في العالم بعد المسيحية والإسلام والهندوسية، يصل تعداد معتنقيها إلى أزيد من 520 مليون نسمة ظهرت في البداية في شمال الهند ثم إمتدت إلى أكثر من 12 دولة آسياوية بالإضافة إلى أقليات في عدد من الدول الغربية، تتمحور البوذية حول جواهر ثلاث هي:الإيمان ببوذا كمعلم مستنير، والإيمان بدارما وهي عبارة عن تعاليم بوذا، ثم أخيرا الإيمان بالمجتمع البوذي.

ثم إن للأخلاق سلطة مبنية على الهيمنة الموجودة في العالم الفيزيائي والتي تتجسد في أشكال عدة كسلطة الأم والأب، وسلطة العدالة وسلطة المعلمين...إلخ.

عندما نقفز إلى سلم آخر من سلالم الأخلاق الكثيرة وخاصة ما تعلق منها بالدين، نجد أنها في الديانات التوحيدية (الإسلام، المسيحية، اليهودية) تعود إلى مصدر الإله الواحد المشرع الذي يبين لعباده طرائق الخير وكيفية قطفه، وسبل الشر وكيفية إجتنابه، فالإله إذن هو الدليل الأعظم والكلي على الأخلاق في العالم.

لقد فسرت الأخلاق في المذاهب والأنساق الفلسفية المختلفة، كل بحسب ميولاته المعرفية، وإيمانه الفكري بقوة طرحه، كإرتباط الأخلاق بمذهب المنفعة وجعلها شرعية حين لا يضر الأمر بالآخرين، ولا شرعية حين يحضر العكس، وكذا مذهب الفضيلة الذي تحدث عنه أرسطو وكانط[*] Immanuel Kant (1724- 1804) كثيرا في أنها مبنية على سلطة الواجب وقوة القرار، مع ضرورة ذكر أن أرسطوا قد تناول الموضوع بنوع من التفصيل والأريحية أكثر من كانط الذي جعل مجالها ضيقا ومحصورا عندما أرجعها لفكره الواجب العقلي المنزه من كل غرض، وكذا نجدها في المذهب الوجودي الذي يعنى بأهمية الإنسان وقدره، وغيرها من المذاهب والرؤى الكثيرة التي لن تكفيها ورقة أو مبحث ولن نفيها حقها.

لقد حدث أن صادف جون جاك روسو، إعلانا نشر بأكاديمية ديجون بمجلة ميركور دي فرانس في عددها الصادر عام1749، يتحدث عن مسابقة لأفضل مقالة مجيبة عن سؤال:هل يساهم إحياء الفنون والعلوم في تهذيب الأخلاق؟.

وإن الإجابة التي منحها روسو لهذا السؤال كانت تمثل المنطلق الأقوى لجملة أفكاره ومطارحاته التي قدمها فيما بعد، صحيح أنه قد إعترف أنها كانت مقالة رديئة، وتحوي الكثير من الضعف والوهن بشهادته وشهادة الكثير من نقاده لأنها مبنية على معطيات

(*) كانط: فيلسوف وفيزيائي ورياضي وتربوي وكاتب ألماني، تخصص في نظرية المعرفة، وما وراء الطبيعة، والأخلاقيات، يعد آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة، تأثر بأفلاطون، وديكارت، جون لوك، سبينوزا...إلخ، وأثر هو الآخر في مجموعة كبيرة من الفلاسفة مثل فيخته، هيجل، والكانطيون الجدد...، له مجموعة أعمال بارزة مثل، نقد العقل الخالص1781، نقد العقل العملي (متعلق بالأخلاق) من أجل سلام دائم...

بعيدة عن المنهجية والترتيب والتنظيم المنطقي، لكنها الدافع الأعظم والبصيرة الأولى لكل منجزاته المعرفية، لأنها كشفت له الغطاء عن الكثير من الرؤى الثاوية، وكانت بمثابة المفتاح الذي إحتاجه حتى يخرج الكثير مما كان مسبورا.

لقد جاء في هذه المقالة << كيف للفنون والعلوم أن تكون مسؤولة بشكل شامل هكذا عن الإضمحلال الأخلاقي للإنسان؟ من ناحية رأى روسو أن كل العلوم تشكلت بسبب التكاسل حيث إنبثق كل تخصص من الرذائل التي يتسبب فيها التكاسل>>(1).

إنه يقر بأن الحضارات القديمة كالفارسية مثلا نجحت لأنها إعتمدت على الفضائل،فإستطاعت هزيمة أقوى الجيوش وغزو آسيا، وكذلك الصينيون حين هزموا التتار، وأيضا الألمان عن طريق برائتهم وروحهم الوطنية.

إذن فالعلوم والفنون في أغلب الأحيان مفسدة للأخلاق لأنها تجعل الإنسان يعول عليها فيفقد بذلك قوته وجرأته وشجاعته، الأمر الذي يسبب الخوف والجبن والدياثة.

ربما هناك ما يقال بالنسبة لوجهة نظر روسو في جانب من جوانبها، إذ لا ينبغي أن ننكر فضائل العلوم والفنون في حياتنا وكيف ساهمت هي الأخرى في تهذيب أخلاقنا الإنسانية ونشرها، ولكن في جانب آخر كان محقا فيما نرى الآن، لأن العلوم التي خلقت لنا التكنولوجيا أضحى مالكها يعول على قوتها عن طريق الضغط فقط على زر من الأزرار فيبيد به عدوه دون أن يحتاج إلى رفع معنوياته أو تدريب جسمه أو قراءة الكثير من فنون الحروب والشجاعة وقوة النفس.

لقد وضع موران جملة من الأهداف الأنثروبوأخلاقية(*) بغية إستثمارها في فهم الإنسان و الوجود بكل مايحمله، فكانت هذه الأهداف هي الأخذ بعين الإعتبار الشرط الإنساني:الفرد، المجتمع، النوع البشري في إطار وجودنا المركب.

(1) روبرت ووكلر: روسو، مقدمة قصيرة جدا، ترجمة أحمد محمد الروبي، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2015، ص ص30 ،31.

(*) الأنثروبوأخلاقية Enthropo-éthique: مصطلح مركب من لفظين هما الأنثروبولوجيا والأخلاق، وقد إستعمله إدغار موران في هذا الشأن بكثرة ليدلل على العلاقة الوطيدة والمتلاحمة بين السلوك الأخلاقي للإنسان وعلاقته بالخصائص الأنثروبولوجية التي تسيره، وتؤثر فيه من جهة، ويؤثر هو عليها من جهة أخرى، فالأخلاق عنده في نهاية

وجعل الوعي الإنساني متدفقا صوب إكتمال الإنسانية << مع الأخذ بعين الإعتبار المصير الإنساني في تناقضاته وفي إمتلائه>>[1].

ثم مراعاة الخصائص الجديدة للألفية الثالثة على غرار دفع العجلة إلى الأفق الأمامي الأقصى لفرض أنسنة الإنسانية، ثم محاولة معرفة الطريقة الأنسب لقيادة الكوكب عن طريق إعطاء الفرصة للحياة بأن تتسيد تارة، ونتسيد عليها بالسيطرة والتحكم تارة أخرى حتى لا تختل الموازين.

بالإضافة إلى العمل على تكريس مفهوم الوحدة الكوكبية دون إلغاء التعددية والإختلاف، وكذا العمل على تحسين وتطوير خلقي التضامن والفهم هكذا فالأنثروبوأخلاقية تتضمن الأمل في إكتمال الإنسانية، بما هي وعي ومواطنة كوكبية، إنها تتضمن إذن كباقي الأخلاقيات تطلعا وإرادة، ولكن تتطلب أيضا حضور المراهنة داخل اللايقين، إنها عبارة عن وعي فردي يتجاوز النزعة الفردية[2].

إن الأخلاق كفعل ممارس عند كانط مرتبط في نهاية المطاف بنتائجه الخارجية دون مراعاة المنافع واللذات التي تأتي من ورائه، إنه << يستمد قيمته من كونه صادرا عن الفاعل بدافع من الإحساس بالواجب العقلي في ذاته، وإمعانا في هذا ينفي صفة الخيرية بمعناها الحقيقي عن كل شيء عند الإرادة الخيرة التي تعد شرطا ضروريا لكي يكون الفعل الأخلاقي خيرا، فالفعل يكون خيرا فقط إذا لازمته إرادة خيرة [*]، كما أنها هي الشرط الذي لا غنى عنه لكي يكون الإنسان خليقا بالسعادة >>[3].

ثم إن كانط قد تحدث في نفس السياق عن مسألة المبادئ الأخلاقية بوصفها المظهر الأساسي والكلي للقانون الأخلاقي، إذ أنها المحرك الفاعل لإرادة الإنسان الحرة والواعية،

المطاف هي نتاج لمرتدات الخصائص الإنسانية الخاصة بالفرد والذي ينتمي هذا الأخير إلى بيئة معينة تحمل ثقافة خاصة، بها تنوع وتناغم مختلف، فالأخلاق إذن سلوك أنثروبولوجي بإمتياز.

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، المعارف الضرورية السبع لتربيةالمستقبل، مصدر سابق، ص100.

(2) المصدر نفسه، ص 100.

(*) الإرادة الخيرة: نجد هذا المصطلح بكثرة في المتون الكانطية دون أن نقصد بهذا أنه حكر لديه ولم يتجرأ على لفظه أو توظيفه آخر غيره، وهو ما يعني أنه بفعل إرادة الإنسان الحرة التي يصنع بها ما يشاء وفق قرار واع ومسؤول، فإن هذه الإرادة أيضا فيها نوع خير قادر على العطاء الإيجابي والتغيير البناء نحو الأفضل، فهي إذن إرادة مقترنة بكل سلوك خير معطاء يضيف للإنسان والعالم.

(3) روبرت ووكلر: المرجع السابق، ص 05.

وكذا نوعية إختياراته المرتبطة وغير المرتبطة بالفطرة الإنسانية الأولى،فتكون بهذا هذه المبادئ مصبوبة على ذات الإنسان المنتمية لعالم المعقولات وفي الآن نفسه مربوطة بالإرادة المطلقة اللامتناهية له، فيكونان << هذان المصدران بإعتبار كونهما فطريين مكنونين في النفس الإنسانية مسبقا، يوجدان لديه إيديولوجيا أخلاقية شمولية خالدة >>[1].

إذن فالأخلاق وفق ما يرى كانط هي << علم العمل بالمعنى الموضوعي لهذه الكلمة، من حيث إشتمالها على جملة القوانين المطلقة التي ينبغي أن نعمل بمقتضاها>>[2]، أي أنها فعل مجسد في الواقع يمكن مشاهدة ملامحه ووصفه ونقده بكل سلاسة دون لبس أو تعتيم.

إنها بلغة فوكو مبثوثة في شتى الأجساد التي نعيشها ونعايشها، إنها المشروع والأمل في السياسة بكثرة حسب كانط وفي الإقتصاد بوفرة حسب ماركس، في المجتمع حسب دوركايم(*) David Emile Durkkeim (1858-1917)، وفي علم النفس حسب جاك لاكان(**) Jacques Lacan (1901-1981)، وفي التجارب الحية حسب كلود برنارد(***) Claude Bernard (1813- 1878)، والقائمة طويلة وقد لا تنتهي.

و بالتالي على الفرد والجماعة على السواء نشرها وممارستها والتحلي بها حتى نضمن أخلاقا موضوعية كونية توحد أفراد الكوكب، وتسهم في إبعاد مظاهر التبعية والكره والحروب الفساد، بالأخلاق فقط حسب إدغار موران نصل إلى وحدة كوكبية كونية متآزرة ومتفاهمة ومتفهمة في الآن معا، تنبذ الطائفية المفرقة، والعرقية والطبقية والراديكالية ساعية إلى إحداث توازن سلس خفيف متناغم ومتجانس.

---

(1) أمير عباس صالحي: إيمانويل كانط الجزء الثالث- فلسفة الأخلاق- الحداثة، إيران، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط1، 2019، ص 54.

(2) إيمانويل كانط: مشروع السلام الدائم، ترجمة عثمان أمين، القاهرة،مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1952، ص87.

(*) دوركايم: فيلسوف وعالم إجتماع وكاتب فرنسي، أحد مؤسسي علم الإجتماع الحديث، وضع منهجية مستقلة تقوم على التنظير والتجريب معا، تأثر بأوجست كونت، ومنتسكيو، وسبنسر...إلخ، لديه مجموعة من الأعمال أهمها: قواعد المنهج في علم الإجتماع (1895)الإنتحار(1897)...إلخ.

(**) جاك لاكان: هو طبيب وكاتب ومحلل نفسي فرنسي تأثر بيسيغموند فرويد وفيرديناند دي سوسير، ينتمي إلى التيار البنيوي، كتب بالفرنسية والألمانية، أبرز أعماله كانت عبارة عن حلقات مجموعة في شكل كتب.

(***) كلود برناند: كاتب وطبيب وسياسي وعالم نفس فرنسي، مؤسس المدرسة التجريبية العلمية، له مجموعة من الإكتشافات العلمية الطبية، له عدة جوائز منها وسام جوقة الشرف من رتبة قائد، له مؤلفات عدة أشهرها مدخل لدراسة الطب التجريبي1865.

و عليه فهي الحل للخروج من شتى الأزمات التي يعاني منها الكوكب، وهي الحل الوحيد والأخير في التعلم من ماضينا، وتنتج لحاضرنا، ونرتاح في مستقبلنا.

لكي تكون للجنس البشري أخلاق سامية وراقية، ينبغي أن يمتلك بادئ ذي بدء أخلاقيات التواصل من حيث المفهوم والأدبيات فأخلقة(*) التواصل الإنساني، أمر في غاية الأهمية، وهو الشرط الذي تتحقق به هويتنا الكوكبية(**)، من خلال تقبل الغير المختلف عنا في كل شيء << نحن نتعلم بموجب الثقافة الخاصة لكل منا، ومن منطلق إنتمائنا لهذا الكوكب- كوكب الأرض- وبه نحن في حقيقتنا لا ننتمي إلى ثقافة واحدة معينة، بل لثقافات عديدة، وتجعلنا نشعر بوجودنا ككائنات أرضية >>(1).

وعليه تكون الأخلاق أحد الأسس الفكرية الضرورية لنظرية التعقيد، وطرحها وتفعيلها ضمن المضمار الإبستيمولوجي البناء للقيم الإنسانية ولملمة العلاقات البشرية المشتتة واجب ولازم، لا يمكن أن نصوغ أدنى فكرة في أي حقل من الحقول المعروفة والشاذة بعيدا عن إرتباطاتها بمنظومة الأخلاق، فهي السبيل الوحيد الذي يسمح لنا بتقييم المسألة من حيث التقبل والنفور، وكذا من حيث الأخذ والترك، فالأخلاق دين الإنسانية الذي يوحدها ولا تجد حولها أي إختلاف.

رابعا: نحو ثقافة قاعدية كوكبية

<< الإنسانية واحدة ومتعددة معا، إن ثرائها في تنوع الثقافات >>(2).

إن الثقافة هي متنوع وضخم وهائل إنها عندي المبدأ - المنطلق- وهي كذلك الملمح الذي يرسم المنتهى.

(*) أخلقة التواصل: يدعو موران بل ويشدد على ضرورة حضور الأخلاق عن تواصل البشرية المختلفة الميراث والخصائص عن بعضها البعض، ومهما كانت المسافات بعيدة، والإختلافات كثيرة فإن التواصل بين هذه الشعوب والأمم لا يحدث بطريقة سلسة ومريحة إلا من خلال التحلي بالأخلاق التي تضمن الإحترام المتبادل وتقبل التمايز والتحاور والتبادل دون عنصرية ولا إقصاء ولا إختزال للهويات المختلفة عند تواصلها مع بعض.

(**) الهوية الكوكبية: مصطلح من نحت إدغار موران يفيد التأكيد على أن البشرية قاطبة يجمعها مصير واحد، بحكم عيشها داخل كوكب واحد هو كوكب الارض، هذا الأخير خلق لها هوية خاصة تميزها عن بقية الكائنات الأخرى، إنه يدعوا إلى الوحدة واللحمة مع الحفاظ على الإختلاف وضرورة التواصل بكل أخلاق.

(1) Edgar Morin : Les Sept Savoirs Nécessaires à l'education du futur, organisation des nation unies pour l'education, la sience et la culture (UNESCO) 1999, p41.

(2) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، مصدر سابق، ص105.

وبهذا يمكننا أن نطرح جملة من الأسئلة التي نجدها لازمة ومشروعة على غرار: <<ما الذي تعنيه الثقافة؟ وإلى أي مدى يمتد نطاقها؟ هل للثقافة أي حدود؟ وهل بإمكانها أن تخبرنا أي شيء مهم عن أنفسنا؟ وما المتعة التي يجب أن تقدمها لنا؟ >>[1].

1/الثقافة بين المفهمة والمرتبة

إن الحديث عن الثقافة[*] سيقودنا بالضرورة إلى الإنطلاق من نقطة المعنى ووضع تعريف يحددها ويوضحها، وإن البحث في هذا الإطار يجعلنا نقف على مستويين من التعريف لها، أحدهما هو التعريف الإنجليزي المتفق تماما مع التعريف الفرنسي Culture، ذو الأصل اللاتيني الذي يعني العناية بالأرض أو زراعتها والآخر هو التعريف الألماني Kultur الذي يأخذ وجهة مغايرة تهتم بالمعارف والفنون والآداب.

<< وبناء على ذلك عندما كتب ماثيو آرنولد[**] Matthew Arnold (1822-1888) في كتابه ذائع الصيت "الثقافة والفوضى"، الذي يعد بمثابة رسالته العلمية حول هذا الموضوع أن رجال الثقافة العظماء هم أولئك الذين يرغبون في نقل أفضل معارف زمانهم وأفكاره من أحد طبقات المجتمع إلى أخرى>>[2]، فنفهم منه أن الثقافة عنده رقي فكري وفني، إنها فعل إنساني هادف ومبدع وواع لا يشمل حلقة المتعلمين والمثقفين فحسب، بل يتسع ليمس كل من له إضافة بناءة وذات معنى.

إن الهدف الأساسي الذي وضعه المثقفون على عاتقهم في كل الميادين التي يشتغلون بها هي صبغ أعمالهم بالصبغة الأخلاقية، فالثقافة كمنتوج بشري خارج نطاق الأخلاقي هي ثقافة الفوضى غير الخلاقة، أي الفوضى المؤدية إلى العدم والدمار.

---

(1) كاترين بيلسي: الثقافة والواقع، ترجمة باسل المسالمة، دمشق، سوريا، منشورات الهيأة العامة السورية للكتاب، 2017، ص17.

(*) الثقافة في الألمانية بالرغم من أن لها الجذر اللاتيني نفسه مع الثقافة في الإنجليزية، إلا أن معانيها ومضامينها تختلف عن الأخرى، حيث أن هذه الكلمة أضحت تعرف في كثير من الأحيان بالوجدان للألماني Germannes، ولها علاقة وطيدة بفكرة روح الشعب الهيجلية، والتي تعني الثقافة التي تطورت عبر التاراريخ.
أنظر إلى مارك غوديل:الإستسلام للمثالية، ترجمة هناء خليف غني، منشورات الإختلاف، ط1، 2015، ص131.

(**) ماثيو آرنولد: شاعر وكاتب وناقد ومصلح تربوي إنجليزي، كما كتب في التاريخ والسياسة واللاهوت والفن ...إلخ، ركز دراسته على واقع الإنسان الغربي المعاصر الذي يواجه الحياة من غير دين، إشتهر بترجمته لأعمال هوميروس أما أعماله المشهور بها هي كتاب الثقافة والفوضى وكذا مقالات النقد 1865.

(2) مارك غوديل: المرجع السابق، ص130.

وعليه يمكننا القول << أننا في الوقت عينه منتجات ومنتجون، وينسحب الأمر كذلك على علاقتنا مع المجتمع، فنحن نتاج المجتمع والثقافة، وفي الوقت نفسه نحن منتجو هذا المجتمع، وهذه الثقافة، لأن التفاعلات المتواصلة في الأفراد هي التي تنتج المجتمع>>[1].

أجل إننا كذلك، الفاعلون والمنفعلين في الآن معا فالعملية إذن هي عملية توليدية توالدية دينامية مستمرة ومتكررة.

لأجل فهم الثقافة، ولأجل تأسيسها قبل فهمها، إقترح إدغار موران أن نأخذ التفاصيل الجزئية التي تبنيها، والمساعدة في وجودها ونموها، ويطرح رؤية تقسيم الثقافة إلى قسمين هما ثقافة الطبيعيات أو الثقافة العلمية، والثقافة الإنسانية، أو ما يصطلح عليها بالإنسانيات وهما ثقافتان يكملان بعضهما البعض، ويصنعان نموذج الثقافة المركبة البعيدة عن الإختزال والإقصاء، وبهما يتم التعرف على ذاتية الإنسان بطريقة أفضل وأعمق، وهذا التعرف سوف يتيح للإنسان العارف نفسه فهم الآخر بوصفه غيرا غير الأنا، إنه الإنسان الشبيه، ومعه يلتقي في الوجود والمصير، وبالتالي فإن الثقافة الإنسانية الواعية التي يدعو لها تحمل رسالة ذات نقاط ثلاث أساسية هي:

<< أ. تشجيع القابلية على التشكيك بهدف التوصل إلى المعقولية.

ب. القدرة على طرح التساؤلات ومناقشتها مع الآخرين والقدرة على تضمين المفاهيم.

ج. الإحساس بالقدرة على مواجهة التحدي الأكبر إزاء التعقيدات التي تطرحها الدنيا، هذه الدنيا هي اليوم وستكون غدا دنيا الأجيال الجديدة القادمة !!!

لهذا علينا أن نتسلح بصبر جميل راسخ>>[2].

إن المعرفة البشرية دائما يكون منطلقها عالم الحياة البيولوجي نظرا لإرتباطها الشديد بالحياة الطبيعية الجسمية التي لولاها لما صنع الإنسان المعارف.

(1) إدغار موران: أزمة المعرفة، عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، مجلة الإستغراب، العدد(1)، السنة الأولى، 2015.

(2) إدغار موران: تحديات القرن الحادي والعشرون، مصدر سابق، ص28.

إن أول تعريف علمي للثقافة Culture (*) كان عام 1871م من طرف الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد تايلور الذي رأى << بأنها مجمل العادات التي إكتسبها الإنسان بصفته عضو في المجتمع وضمنها إذن كافة الكفاءات التقنية والرمزية والإجتماعية التي طورتها المجتمعات البشرية، وإقترح تصنيفها تبعا لسلم تطوري>>(1).

أما إذا إنتقلنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فنجد المعنى مختلفا تماما حيث الثقافة هناك هي من تصوغ الشخصية وتحددها، وأن النزعة الثقافية في البدء كانت المتسبب الأول في ظهور مقاربة سيكولوجية للثقافات باعتبار أن إندماج الأفراد في مجتمعاتهم لا يتحقق إلا من خلال سماح الثقافة بذلك، وعليه فاحتمال توافق شخصيات أساسية مع كل ثقافة أمر وارد وممكن.

لقد أضحت الثقافة أكثر رواجا من أي وقت آخر، حيث أن كافة الفروع المعرفية إعتمدت عليها في نهوضها، مما خلق تخصصا جديدا وهو الدراسات الثقافية الكلية.

إن الثقافة تمارس أدوار مختلفة إيجابية بناءة تارة وزائفة كاذبة طورا أخرى، حيث يذهب الكثير من المفكرين والأنثروبولوجين إلى الإصطفاف مع الرأي القائل أنه << يقع على عاتق أولئك المشتغلين بالدراسات الثقافية تبعة تقويض وكشف غطاء، والطعن في ودحض شرعية، والتدخل والنضال ضد ذلك>>(2).

(*) << On façonne les plante par la culture, les hommes par l'education >> , dit rousseau au debut de l'émile présentant ainsi conjointement deux sens du mot culture, dans un sens géneral, culture du latin colére, signifié « Mettre en valeur » par exemple un champ, mais aussi bien l'ésprit, cependant, chez rousseau, ce rapprochement recéle une critique de la civilisation sens du mot culture: pour lui le processus de civilisation ne s'identifie pas a un progrés, l'onthropologie coutemporaine de claude levi-strauss se situe dans la lignéé de la pensée romsseauvise, dans la mesure ou la rupture entre nature et culture danxelieu à l'epanonissement de formes multiples de civilisations les cultures dites primitives n'etant pas ,en dépit de ce que suggére ce mot.
Voir : La philosophie AZ : Elisabeth clément et autres, paris, edit Hatier, octobre, 1994, p 73.

(1) نيكولا جورنه: بين الكوني والخصوصي، ترجمة إياس حسن، دمشق، سوريا، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2014، ص22.

(2) آدم كوبر: الثقافة : التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة تراجي فتحي، عالم المعرفة 349، 2008، ص 249.

وهذا لأن أغلب أشكال الممارسات والأنشطة الثقافية لها ملامح كاذبة ثاوية ورائها أفكار محجوبة لا نكاد نفهمها أو تم فهمها، فهناك إذن إمتهان للتحريف والخداع داخل القالب الثقافي، فمن يمتلك القوة مثلا يحاول دائما الهيمنة والسيطرة على الآخر بكل الطرائق الممكنة، مثل سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على سوق الوجبات السريعة أو الكولا (المشروبات الغازية مثلا) وأمسى العالم بأسره يستهلك هذه المنتجات إلا القلة القليلة، وكل هذا تحت منطق القوة، وأن الأقوى هو المسيطر بأفكاره والمهيمن ثقافيا.

ثم إن المفكرون الفرنسيون والألمان والإنكليز، قد ذهبوا إلى الإقرار بأنه لكي نفهم معنى الحضارة ونبنيها بسبل أقوى وأمتن كان لزاما علينا أولا أن ننظر من جديد في معنى الثقافة فلا حضارة من دون ثقافة، إنها اللبنة الأولى المؤسسة والمكونة لها، وهذا لعلاقتهما الوطيدة بمصائر الشعوب.

لقد أرادنا أن نوضح أن الثقافة في التاريخ منذ البدء كانت تعتمد في ظهورها وإنتاجها على طبقة أو نخبة محددة متشكلة تحديدا إما من الإكليروسيين(*) أو من الأنتليجانيسا(**).

إن المثقفون هم أعضاء فاعلون ومؤسسون للأنتليجانيسيا، لكن ليس بالضرورة أن يكون أعضاء الأنتليجانيسا كلهم مثقفون، ثم إن مفهوم كلمة المثقف صفة تطلق على ذلك الإنسان الذي عرف عن كل الأشياء والموضوعات شيء، وهو بصدد معالجة قضايا كبرى كقضايا الأمة الأكثر خطورة والمتعلقة بسؤال المصير، << وفي القرن الثامن عشر أسس المثقفون الحديثون أنفسهم تحت إسم فلاسفة، ولم يكونوا فلاسفة فقط بل أيضا كتابا

(*) << الإكليروسية تعني أصلا الحالة الكنسية، وفي القرن الخامس عشر، صار الإكليريكي الشخص المتعلم والأديب والعالم، ومع أنه كان ينتمي إلى الكنيسة من الداخل صار يتميز عن الكاهن، ثم ... تعلمنت كلمة إكليريكي وصارت إحترافية وأعقبت الأنتليجانسيا الإكليروسية القديمة، وحل المثقفون محل الإكليريكين >>.
أنظر إلى إدغار موران: المنهج : الأفكار، مصدر سابق، ص 92.

(**) الأنتليجانسيا: << وصلت كلمة الأنتليجانسيا إلينا من روسيا إبان القرن التاسع عشر، وتدل على الناس المتعلمين والمثقفين مقارنة بالكتلة الريفية أو المدنية التي لم تدخل إلى المدرسة، بل لا تعرف القراءة >>.
أنظر إلى المصدر نفسه، ص 98.
وبالتالي فالأنتليجانسيا حسب موران أوسع من كلمة مثقف، وهذا لأن دلالتها لا تقتصر فقط على الأساتذة والأدباء، وأهل العلم بإختلاف مشاربهم بل هي شاملة كذلك للموظفين في شتى الأسلاك والبرجوازيين وكذا المتعلمين والعارفين ليكون بهذا لفظ الأنتليجانيسيا شاملا لعدد وافر من الفئات والأطياف الإجتماعية .

وأهل علم، قرروا التعبير عن حقائق العقل الأسمى الكونية والتصدي للخرافات والظلامية>>[1]، مستعيدين بذلك رسالة الدين الإكليريكي، لتفقد بعد هذا كلمة الفيلسوف هي الأخرى معناها النضالي والكفاحي والموسوعي، وإنكمشت إلى لفظة أستاذ الفلسفة كمهنة ممارسة لها أجر مادي عند تدريسها وتمريرها للآخرين.

إن الثقافة عبارة عن تراث منظم وهي بمثابة رأسمال معرفي وتقني متصل تماما بانبثاق المجتمع البشري، كما يمكن إضافة رأس المال الميثولوجي(*) والطقسي، بمعنى ذلك المتعلق بجماع المعتقدات والمعايير والممنوعات والقيم وغيرها، وهو بهذا الشكل متصل بالذاكرة البشرية التي تعد من أكبر تجليات وتميز لجينات الإنسانية بين بعضها البعض.

<< إن الثقافة مفتوحة ومغلقة في نفس الوقت، فهي مغلقة جدا على رأس مالها التعريفي والميثولوجي المميز... لكنها ستنفتح عند الإقتضاء لإدخال إصلاح أو إبتكار تكنولوجي أو معرفة خارجية >>[2].

لقد طورت العولمة الثقافة، وجعلتها تنمو بصورة سريعة وبحجم أكبر يوما بعد يوم، وهذا لإرتباطها الوثيق بالتقنيات المتطورة المختلفة كالإنترنت، وشبكات الإتصال المختلفة وغيرها، لكن موران يؤكد في نفس السياق أن كل أشكال وتعابير الثقافة التي عرفتها البشرية عبر تاريخها الطويل لا يمكن أن تزول أو يستغنى عن خدماتها، بل بالعكس سوف تشكل تراكمية ثقافية مذهلة تضاف إلى رصيدها، ويعطي مثال عن الكتاب في صيغته الورقية أو المسرح، فمع التطورات المذهلة للتكنولوجيات من هواتف ذكية، وأنترنت وتلفزيون وألواح رقمية لم يلغ هذا تماما حاجة الإنسان للذهاب إلى المسرح أو السنما.

(1) إدغار موران، تحديات القرن الحادي والعشرين، مصدر سابق، ص94.
(*) ميثولوجي: لفظ يوناني ويعني الأسطورة أو علم الأساطير، وهو جماع الأفكار التي تعبر عن ثقافة معينة في شكل حكايات لها أبطالها ومعتقداتها في العادة مرتبطة بالدين أو كائنات غير مألوفة ومن الصعب تصديقها ومن وظائفها الإجابة عن أسئلة البشر الوجودية وإرضاء فضولهم الفكري.
(2) إدغار موران: النهج: الهوية البشرية، مصدر سابق، ص194.

وبهذا يستطيع بنو الإنسان جميعا التعرف على ثقافات بعضهم المختلفة، وإكتشافها، والإستفادة منها مع الإحتفاظ بخصوصية ثقافتهم سابقا، وهنا يقول<< إن الإنسانية واحدة ومتعددة معا، وإن ثرائها في تنوع الثقافات، لكن يمكننا وينبغي لنا أن نصل الأناسي بعضهم ببعض في الهوية الكوكبية الواحدة، فمتى صرنا حقا مواطنين عالميين نتقاسم ثقافة واحدة بمئات الورود صرنا متنبهين ومحترمين للمواريث الثقافية >>(1).

لقد كانت للثقافة مظاهر متنوعة ومتعددة، متجلية في الهندسة المعمارية كتلك التي نجدها في قصر فرساي(*) الفرنسي، كما نجدها في الفن التمثيلي والمسارح وغيرها، هذه الإضافات الجميلة في العالم قد تعرضت لأزمة حقيقية حسب تشخيص إدغار موران.

خاصة في الفترة الرومنطقية(**) التي أدخلت مفاهيم جديدة لعالم الجمال والقبح، اللذان يضلان يتصارعان إلى أن يحل أحدهما المركز، ويطرد الثاني إلى الهامش، هذه المفاهيم الجديدة المتمثلة في الصدق والوفاء والنقاء وغيرها، وهنا سيبدو النفن أنه متفوق عن الحياة << في المملكة المسحورة والسحرية، فردوس الثقافة المثقفة سطحي وعابثا، ويرجع الجمال والحياة نفسها على الفن حيث تعمل الطليعة السالبة وتيار الثقافة المضاد >>(2).

إن نمو الصناعة الثقافية مرتبط بالإنتاج الإقتصادي الذي يكون في غالب الأوقات خاضع لسيطرة النظام الرأسمالي أو البيروقراطية، ومن ثم فإن الأنتليجانسيا ستحس

(1) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية؟، مصدر سابق، ص105.

(*) قصر فرساي Château De Versailles: بني في عام 1624 من طرف الملك الفرنسي لويس الثالث عشر، في قرية الإفلين بلدية فرساي بفرنسا، صنف عام 1976 ضمن التراث العالمي المحمي، بداية كان بيتا يرتاح فيه الملك لقربه من مكان الصيد ، لكن الملك لويس الرابع عشر عند توليه الحكم قام بتوسيعه وبناه على شكل قصر وهو من أهم القصور الموجودة في فرنسا وذلك لقيمته التاريخية.

(**) الفترة الرومنطيقية: الرومنطيقية توجه إنساني يهتم بمراعاة المشاعر والعواطف والنفس الإنسانية، معتمدة على الخيال والفن والأدب والتحرر من قيود العقل والواقعية، وهي فترة ثورة ضد المرحلة الكلاسيكية، بكل ما فيها من أفكار وأساليب ومبادئ، أما أهم ماجاءت به من توجهات فهو تكريس الذاتية أو الفردانية، العفوية، الحرية، النزوح نحو الإلحاد منه إلى الإيمان، الإهتمام بنصوص الشارع والقوميات المحلية، من أبرز ممثلي الرومنطقية جون جاك روسو، لامارتين، بودلير، غوته ،وفي الأدب من النساء مادام دوستايل...إلخ.

(2) إدغار موران: روح الزمان: النخر، ترجمة أنطون حمصي، دمشق، سوريا،منشورات وزارة الثقافة، 1995، ص308.

بصورة أعمق بالعجز إزاء هذه الفوضى الثقافية التي تجسد صراع الإتجاهات النخبوية الأرسقراطية والجمهرة الشعبية المختلفة.

إن الثقافة مولودة من رحم الأزمة الثقافية نفسها، والتي ستكون هي الأخرى فيما بعد تعاني من أزمة سوف تصفيها، وتحل محلها ثقافة جديدة، وهكذا فإننا سنشهد موت وميلاد متعاقبين وفي تدفق وصيرورة مستمرة.

وبهذه الصورة تقفز الثقافة من مستوى العلوم والفنون والجمال لتعانق صميم الحياة الوجودية الإنسانية، وتستشعر معاناته وآلامه وتشاركه الحلول والمقترحات لبناء غد أفضل له داخل هذا العالم الفسيح.

إذن يجب إحياء الثقافة ودروب التنوير حتى نمنع إنتصار قوى الهمجية على قوى التحضر، يجب كذلك تفعيل القوة الناقدة الحامية للكون، والداعمة لتمظهرات الجدل المختلفة في الساحة الإجتماعية والكونية، وكل هذا سوف يعزز نمو الوعي، فالثقافة الكونية الحقة تكون وفقط بالوعي الذي يفهم وبعمق الهويات الإنسانية المشتركة والمتمايزة في الآن معا حيث نجده في هذا الصدد يقول<< في نهاية المطاف يقترن إصلاح الفكر بيقظة الروح، ويتطلب التغيير في الواقع التأثير في المجتمع والتاريخ، وذلك يثبت الهوية المشتركة وتجذر الوعي في الوطن الأرض والجمع بين التعدد والوحدة.>>[1].

و في نجد<< بأن كل معرفة فلسفية أو علمية أو شعرية تنطلق من عالم الحياة الثقافية العادي>>[2].

إذن فالثقافة مكون أساسي وقاعدي كما العالم البيولوجي تماما بنفس الثقل، بها تتأسس الحقول الفكرية وتكون، فهي الغذاء اللازم والمصدر الضاخ لثراء المعلومة وتكونها.

(1) Edgar Morin et Nai Sami, Une Politique de civilisation, édition paris arléa, 1997 , p p 242, 243.

(2) إدغار موران: المنهج : الأفكار، ترجمة جمال شحيد، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، ط1، 2012، ص 16.

كما أنها تعتبر<< خاصية المجتمع البشري تنظم وتنظم عن طريق العربة المعرفية المتمثلة باللغة، إنطلاقا من الرأسمال المعرفي الجماعي للمعارف المكتسبة والمهارات الملقنة والتجارب المعيشة، والذاكرة التاريخية والمعتقدات الأسطورية لمجتمع ما >>[1].

وبهذا فهي سوف تمسي المرآة المترجمة للتصور والوعي والمتخيل الجماعي باعتبار هذه الجماعة التي تشترك في نفس الخصائص المؤسسة لثقافة مجتمعهم السائدة، أضف إلى ذلك أن الثقافة بامتلاكها لرأسمال معرفي فهي تملك شرعية صنع القرار وفرضه على المجتمع، فتنظمه بها وتحدد سيروراته، فتتأكد العلاقة بينهما بذلك على أنها توليدية متبادلة، أي أن الثقافة نفسها سوف تولد المجتمع، الذي سوف يولد هو الآخر الثقافة - علاقة ديناميكية تلازمية بناءة-.

ومنه سوف يتضح لدينا فيما بعد أن اللغة والأسطورة هما الجزأين الأساسين المكونين للثقافة وباجتماعهما مع أطياف معرفية أخرى لا نستطيع إقصاءها ولا نجرؤ، ستتحدد لدينا رؤية جديدة للعالم يسير المجتمع وفقها ويقتنع بها.

إن ثقافة مجتمع من المجتمعات تمثل حاسوب ضخم معقد، يقوم بتخزين المعطيات المعرفية، وهي بهذا تقوم بفتح وإغلاق كل الإمكانات البشرية البيولوجية- الأنثروبولوجية للمعرفة، بمعنى أنها تقوم بتفعيلها ما يمنح الأفراد القدرة على معرفة لغتها ومنطقها ومنهجها وبراديغماتها...إلخ وفي الآن نفسه << تغلقها وتقمعها بمعاييرها وقواعدها وممنوعاتها وتحريماتها ومركزيتها الإثنية وتسييرها الذاتي وجهل جهلها، هنا أيضا ما يفتح المعرفة هو ما يغلق المعرفة >>[2].

إن الثقافة تمنح الفكر مجموعة من الشروط التي تساعد على التشكل والتصور وبالتالي تصنع له مفاهيمه، ولأن الثقافة والمجتمع المعاين هما في حقيقة الأمر داخل المعرفة للبشرية، فإنها- الثقافة- فيما بعد تقوم بطبع المعارف البشرية، ثم تتحكم بها لاحقا،

(1) إدغار موران : المنهج : الأفكار: مصدر سابق، ص25.
(2) المصدر نفسه، ص27.

فتتجلى بهذا أخيرا ظاهرة معيش المعرفي في الثقافي، والثقافي في المعرفي، في مركب تفاعلي تواشجي ليتحكم فيه المعرفي الفردي.

إن الثقافة تساهم وتشارك في إنتاج وبناء الواقع المعيش المدرك من قبل كل إنسان، لأن المدركات خاضعة بالإضافة إلى الرقابة الفيزيولوجية والنفسية أيضا إلى المتغيرات الثقافية(*) والتاريخية.

وبالتالي فإنه لا شيء يمكن أن يحرر الثقافة من المعرفة، لأن كل واحدة منهما تنتج الأخرى بصورة مستمرة ودائمة وهذا لا يعني تماما إغفالنا عن الإنفتاح الثقافي لمجتمع ما عن العالم الخارجي.

أما عن موضوع التحاور الثقافي فتلزمه شروط ليكون ويستقر ويستمر، وأول هذه الشروط هو حضور مبدأ التعدد/التنوع في وجهات النظر،لأن البشرية تحمل إختلافات وتنوعات على عدة مستويات، الجينية والفكرية والنفسية والشعورية... و غيرها، الأمر الذي سيجعل هؤلاء الأفراد المختلفين يطرحون مطارحات متمايزة تفرض نفسها، وتعبر عن توجهاتها، وإن هذه السمة نجدها متعايشة ومتفاعلة بوضوح في المجتمعات المتيحة للتواصل وتداول الأفكار.

الشرط الثاني بعد التحاور الثقافي هو التداول الثقافي، هذا الأخير الذي يقوم أساسا على مبدأ المقايضات المعلوماتية والفكرية، بالإضافة إلى الأراء والنظريات، بمعنى أن هذا التبادل يكون فقط عند تفاعل وتلاقح وتواشج أفكار الثقافات(**) المختلفة مع بعضها، مع الإحتفاظ التام لكل ثقافة بخصوصيتها وملامحها دون الذوبان في الأخرى، ومن ثم

(*) المتغيرات الثقافية والتاريخية: إن الممارسات الإنسانية التي تمثل في مجموعها ملامح مختلفة للثقافة عبر التاريخ تتغير من فترة إلى أخرى، وبالتالي فهي ليست قارة، وإن كان فيها بعض من الذي حافظ على بقائه وديمومته في الوقت، نظرا للتوصيات والحرص الذي يحضا/ تحظى بها من طرف مجتمع ما، ولكن في العموم، فإن هذه الطقوس أو الأعمال أو التجليات لها ملامح جديدة ومتجددة دائما.

(**) لقد تحدث تشارلز بيرسي سنو عام 1959 عن موضوع الثقافتان الذي كان ذا سمعة أكاديمية ذائعة الصيت، مبينا فيه أن الثقافة إنقسمت إلى إثنتين، أولاهما ثقافة الفنون والآداب والعلوم الإنسانية، والثانية هي ثقافة العلوم الطبيعية <<ومنذ ذلك الحين تزايد الإهتمام بنوع ثالث من الأنساق الثقافية أطلق عليه إسم العلوم الإجتماعية، ويشتمل على مجالات علم الإجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية، والإجتماعية والنفسية >>.

أنظر إلى: جيروم كيفان: الثقافات الثلاث، ترجمة صديق محمد جوهر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014، ص 215.

الإحتفاظ بما في كل ثقافة من أجل ضمان بقاء وإستمرارية وجودها تاريخيا وبنائها لمستقبل أفضل وأقوى وأغنى.

أما فيما يخص الشرط الموالي، وهو الثالث على التوالي، والمرتبط أساسا بالشرط السابق- تبادل الأفكار- هو ضرورة حضور المنافسة الشريفة وحسن التحدي، وهو ما سيضمن وجود نقاش على مستوى الأفكار والرؤى والمفاهيم ليليه مباشرة شرط تشييد القواعد الضامنة لبقاء نزاهة الحوار بعيدا عن مسببات العنف وبروز التجاوزات.

لقد تحدث إيريك فروم(*) Erich Froum (1900-1980) عن سيغموند فرويد(**) Sigmund Freud (1856- 1939) واصفا إياه في حديثه التضايق/الإستياء في الثقافة << بربطها في أول الأمر بما عبر عنه في فرنسا ب(مرض) أو(قلق القرن) وأقر بأن هذه المعاناة في الثقافة وفي الذات التي لا تقدم أي عرض عنها هي في العمق الشعور بعدم السعادة، ويتمظهر هذا الشعور في الشعور بالغرابة/الغربة، لا يكون للحياة أي معنى ولا ذوق، تدفع فقط...>> (1).

أي أن البشر داخل المدنية يعيشون حياة الرفاه، وتتوفر لديهم كل متطلبات الحياة والبذخ، لكنهم لا يشعرون بالرضا والفرح والسعادة، ويعايشون بإستمرار حالات الألم والضياع والسأم، وهو الوضع الذي يدخلهم في حالات مرضية كئيبة، يفقدون بموجبها الرغبة في الحياة وطعم المعنى والعيش الهنيء، فيحسون بإغتراب قاتل حتى وهم في بيئتهم وبين أحبائهم ومعارفهم، الأمر الذي يدفعهم للعلاج، والخروج من المأزق، إذن فالثقافة الغربية بوجه عام هي ثقافة تمتاز بتوفيرها لكل شيء، بيد أن الإنسان الذي نسعى

(*) إيريك فروم: عالم إجتماع وفيلسوف ومحلل نفساني ألماني أمريكي، له مجموعة من المؤلفات الهامة أبرزها الحروب من الحرية (1941)، التحليل النفسي والدين (1950)، اللغة المنسية (1951)...

(**) سيغموند فرويد: محلل نفساني وطبيب أعصاب، ومؤلف وعالم إنسان نمساوي، له مجموعة من الجوائز منها جائزة غوته (1930) لإعتباره مؤسس التحليل النفسي، إشتهر بنظريات العقل واللاوعي، وكذا إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، من أعماله دراسات في الهيستيريا(1895)، تفسير الأحلام، مستقبل وهم، قلق في الحضارة.

(1) راينرفونك: الأنا والنحن، ترجمة حميد لشهب، بيروت، لبنان، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، ط1، 2016 ، ص208.

لإرضائه مقابل الماديات قد ضاع وفقد ذاته، فأضحى يستهلك السلع دون أن يحس بطعمها ولا تذوق لذتها.

إن الثقافة كمحور جماهيري بدل مكانه من الإطار النخبوي الضيق المقتصر على أمكنة ضيقة ونخب معينة إلى مجالات أوسع وأكبر، لقد إجتاحت الثقافة كل الميادين، وسيطرت على الحياة اليومية للفرد والمجتمع<< وغدت ميتولوجيا السعادة إشكالية السعادة، وتكونت تباشير وبؤر من الثقافة المضادة، بل ومن الثورة الثقافية في الخفاء على هامش ثقافة الإستهلاك مع نفاذها إليها وريها إياها، وتنزع الثقافة الجماهيرية(*) في الوقت نفسه إلى التفكك وإلى ضم التيارات المتفسخة وإستردادها كما يقال>>(1).

وبهذا فهو يلح على ضرورة دمج كل من الثقافة الجماهيرية مع الثقافة القومية والثقافة الإنسانية والثقافة الدينية دمجا ذو طابع تنافسي تارة، وودي تراحمي تارة أخرى، وإن هذه الأنواع من الثقافات قد يخيل لقارئها أو المشتغل بها أنها منفصلة ومختلفة لكن المتبصر الجيد في ثناياها سيلحظ حجم التداخل الكثيف الذي يطبعها، ويكاد يعجز عن فصلها وفرزها عن بعضها البعض.

وبالتطرق قليلا إلى موضوع الإستهلاك المادي الذي يعد من أبرز ملامح الثقافة في الوقت المعاصر، والذي هو كذلك مدمر ومهدم لها، خاصة فيما يخص موضوع الفن والجمال والحياة، فلقد إرتبطت ثقافة العصور الحديثة والراهنة بوجود التقنية العلمية، حيث أن ظهور اللاسلكي والإختراع وبناء السنما وتفعيلها، خلق نمطا جديدا من أنماط الثقافة سريع الإنتشار والتقبل، وذلك عائد للمزايا الإيجابية الكثيرة التي يقدمها للمتعاطي لهذه الوسائل.

(*) الثقافة الجماهيرية: << هي ثقافة منتجة وفق المعايير الكثيفة للعمل الصناعي ومروجة بتقنيات نشر غزيرة (سميت وسائل الإعلام الجماهيرية) ومتوجهة إلى جمهرة إجتماعية، أي إلى تجمع عملاق من الأفراد مأخوذ من ماهو تحت بنى المجتمع الداخلية (الطبقات، الأسرة،...إلخ) ومتجاوز لها >>.
أنظر إلى: إدغار موران: روح الزمان، العصاب، ترجمة أنطون حمصي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط3، 1995، ص12.

(1) إدغار موران: المصدر نفسه، ص05.

كما أن الثقافة تتأثر أيما تأثر بنظام الحكم السياسي للدولة التي نعيش فيها، فالدول الإشتراكية مثلا << هي السيد المطلق والرقيب والمدير والمنتج، فتستطيع آيديولوجية الدولة إذن أن تلعب دورا رئيسيا، ولكن المشروع الخاص حتى في الولايات المتحدة ليس متروكا قط كليا لسيرورته الخاصة، فالدولة شرطي على الأقل >>(1).

وبهذا يمكننا أن نتوقع كيف تسري ثقافة في دولة ما بسلاسة وتنتشر بكل سرعة وسهولة، وكيف تنمو ببطء وتتفاعل وتتكيف بأقل الفرص، فالأولى سعيها الكبير للربح والمردود، ورغبتها الجائعة في المال والسلطة والشهرة يجعلها تنتج ثقافة ذات مسعى براغماتي مادي صرف، أما الثانية فاهتمامها السياسي والآيديولوجي سوف يثبط من قوة حركة المسألة.

إن الثقافة الجماهيرية بتعلقها بالإستهلاك المادي وإرتباطها بموضوعات الفن والأخبار والموضة والأزياء والسيارات... تجعلنا ندخل ونغوص في علاقة مقتلعة الجذور، هائمة مشردة حيال موضوعي الزمان والمكان، إنما نقر بأن كل أشكال الثقافة هاته التي ذكرناها والتي لم نذكر هي إسهامات واضحة في روح الزمان بتعبير موران، لكن الملاحظ لها يجدها إسهامات جوفاء وسطحية وتافهة.

إن الثقافة الجماهيرية هي ثقافة قلقة، لأنها لا تتعاطى مع موضوعات وآلام الإنسان حتى تتنفس وترتاح.

<< إن الثقافة الجماهيرية التي تقابل إنسان حالة ما للتقنية والصناعة الرأسمالية والديمقراطية والإستهلاك تجعل هذا الإنسان أيضا على علاقة بمكان القرن وزمانه>>(2).

إن ميزات هذا الإنسان أنه حبيس خصوصية فردية ضيقة، بيد أن له سمة الإنفتاح والإنوجاد داخل الكوني، فهو متقبل للغير كيفما كان إختلافه، وهو كذلك ناجح في تعاملاته مع ذاته والعناصر المختلفة التي تغذيها، وبهذا نصل إلى أن الثقافة الجماهيرية بحاجة

(1) إدغار موران: العصاب، مصدر سابق، ص21.
(2) المصدر نفسه، ص205.

شديدة إلى الأنثروبولوجيا المزدوجة والمتناقضة التي عرفتها وفهمتها وكشفتها الثقافة الساعية إلى إحتضان ومعانقة الكوني.

لقد كانت الفترة قبل 1955 تسيطر عليها السنما التي مثلت قلب ولب الثقافة الجماهيرية، فظهرت الصحافة الكبرى والتلفزيون، وأضحت المسائل الأكثر حساسية وإحراجا تطرح فيهما على غرار قضايا الضيق والقلق وقضايا الزواج والطلاق وشؤون الأسر وغيرها، ومحاولة أن تنتج نمطا جديدا من السعادة الذي لم تكن للبشرية معرفة ولا خبرة ولا دراية مسبقة به، فأضحت بهذا ثقافة السعادة بواسطة هذه الأجهزة رائجة جدا على أعقاب الموضة المعاصرة، الأمر الذي أسفر عنه<< توسيع وتعميق الأزمة التي تعرفها الهوية الثقافية والإبداع الثقافي نتيجة تطور المجتمع المعاصر>>(1).

وبالحديث عن الثقافة اليابانية نجد أنها في نموذجها التقليدي إنطوت كثقافة وطنية ذات خصوصية على جملة من المكونات الداعية تارة إلى التقدم، وطورا أخرى إلى المحافظة، لكن حدث أن عايشت اليابان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة، إحتضنت فيها الرأسمالية فتمكنت منها إقتصاديا وسياسيا وحتى ثقافيا، وأضحت الثقافة اليابانية ثقافة أوروبية طاغية بامتياز، وبهذا التحديث تمت إزالة إرث ضخم في غاية الأهمية من الحياة الروحية اليابانية، وهذا الأمر أدى بالعلماء- علماء الثقافة- والفلاسفة والمفكرين اليابانيين وكذا الخارجيين التدخل لدراسة<< إشكالية التحديث الثقافي، وتطور الفكر الإجتماعي الياباني، وبالتالي دراسة التأثيرات العديدة والمتنوعة لنمط الثقافة الأوروبية على مناحي الحياة الإجتماعية لليابانيين >>(2).

واليابانيون بهذا ينطلقون في معالجة هذه الإشكالية من مناهج ومستويات متباينة، متوشحين وشاح القومية والأصالة والمحافظة على الثقافة المحلية، ظهرت أطراف جديدة تدعوا إلى<< تجديد عناصر الأخلاق الكونفوشيوسية الإقطاعية المتمثلة في عبادة

(1) Edgar Morin : l'esprit du temps, paris edition grasset fasquelle, 1962, p p 227.228.
(2) يوري كوزلوفسكي: الفلسفة اليابانية المعاصرة، ترجمة خلف محمد الجراد، بيروت، لبنان،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995، ص63.

الإمبراطور وتأليهه، وإحياء الأساطير الشنتوية(*) المعشعشة في سيكولوجيا الجماهير>>(1).

(*) الشنتوية: ديانة يابانية تعني صوت الإله، ليس لها تعاليم محددة على غرار الديانات الأخرى، وهو ماجعلها متفتحة ومتقبلة للثقافات الأخرى دون أن تؤثر في خصوصيتها، ومبادؤها ملازمة للحياة اليومية لليابانيين ويظهر أن أول مرة أستعمل فيها المصطلح كان عام 720م لتميز العادات والطقوس التي عرفتها اليابان قبل إدخال البوذية، ثم إنها ديانة تعتمد على مبدأ التفاؤل، وأن الإنسان كائن طيب بالفطرة، ولا ينجم عنه إلا الخير أما الشر الذي نراه كممارسة فهو يكون بتدخل الأرواح الشريرة، ولذلك وجب إبعادها بتنقية النفس وتقديم القرابين للإلاه.

(1) يوري كوزلوفسكي: المرجع السابق، ص70.

الفصل الثالث
المشروع الفكري لإدغار موران

أولا: مواجهة العقل الأعمى ونقده
ثانيا: من منطق التبسيط إلى إرساء نموذج التعقيد
ثالثا: هندسة الإنسان المركب
رابعا: كوكبة الإنسانية والعالم

سنحاول في هذا الفصل مقاربة المشروع الفكري لإدغار موران من وجهة إبستيمولوجية، وذلك من خلال تسليط الضوء على جملة القواعد والبناءات التي تخدم مشروعه، أي على أكثر الموضوعات تضررا وإقتضاءا للعلاج، ونقصد هنا بالدرجة الأولى مسألة المعرفة والإنسان والعالم، هذه العناصر التي عبث بها العقل الإختزالي، وعاث فيها فسادا وتشويها، لتكون بعد هذه التوطئة المقتضية الإشكالية التي تحاول خدمة المشروع بالإستفهام هي: كيف نظر إدغار موران لمشروعه الفكري؟ وقبلها ماهي الكلاسيكيات السائدة التي ألغيت؟ وماهي خصوصياتها؟ثم ما هوالجديد الذي حضر؟ و هل فعلا يمكن لهذا العقل أن يكون بديلا جيدا يستوعب كل المشاكل والنقائص؟ وإذا كان كذلك أين نستشف الملامح والتجليات التي تترجمه بإمتياز؟

أولا: مواجهة العقل الأعمى ونقده

<<إنه بحسب ديكارت فإن النموذج التبسيطي الإختزالي غير قادر على الإنفتاح على الأبعاد المركبة للواقع،ذلك أن المعارف الكلاسيكية غير كافية لأنها متكأة على المنطق التبسيطي>>[1].

إن أي مشروع فكري يروم التفسير، أو التغيير أو التبرير أو غيرها من الأسباب، فإنه مادام ينتمي إلى حقل الإبستيمولوجيا، فيكون لزام عليه أن يتوجه صوب نقد ماهو سائد، وما إنتفض من أجله رافضا إياه، كذلك هو الحال بالنسبة لمشروع الفكر المركب عند إدغار موران الذي ثار ضد النظرة الكلاسيكية الممجدة للفكر الأحادي التبسيطي الإختزالي، ولكي نفهم هذا الموضوع جيدا يمكننا أن نطرح إشكالا فلسفيا مفاده:

كيف فهم موران الفكر الكلاسيكي من أفلاطون إلى ديكارت؟ إلى ماذا خلص بعد هذا التتبع و التحليل؟ هل يستلزم الأمر إقصاء القديم كليا عند حضور البديل الجديد أم أن الأمر متشابك ومعقد وفيه ما يقال؟

(1) Edgar Morin- Jeans Luis le moigne، l'intelligence de la compexité,edition l'harmattan, paris,edition numérique 1999,p53

1/ سلطان المعرفة الكلاسيكية

لقد قامت المعرفة الكلاسيكية منذ أفلاطون إلى غاية ديكارت على عقلية الفصل والتجزيء، تحت شعار إذا أردت معرفة حقيقة ما لمسألة من المسائل فما عليك سوى تقسيم عناصرها وفصلها عن بعضها البعض لتتضح لك الصورة.

أجل هكذا كانوا يفكرون وهكذا كانت تنتج المعارف ويتوصل إلى الحقائق، وفي الحقيقة فإن هذا الأسلوب قد مكن من خلق تطور علمي صناعي رهيب في القارة الأوروبية و العالم، لم تشهده البشرية في حقبها الماضية المختلفة، حيث تقدمت أساليب الحياة من صناعة وزراعة وعمران، وكذا من مأكل ومشرب وملبس، فاختلف معها بالضرورة أسلوب العيش والتصرف/التعامل لأن الحياة أضحت متحكم فيها بفعل تطور المجال الطبيعي والبيولوجي فقلت أعداد الوفيات، وارتفعت نسبة الولادات، وتمتع المواطن بالصحة والعافية.

لقد حدث كل هذا وأكثر بفعل هذه المنظومة المعرفية الحديثة وهي منظومة التبسيط* التي تأسست على قوانين رياضية وفيزيائية خاصة ثابتة ومطلقة وخالدة وشاملة، حيث بواسطتها أصبح التحكم في الطبيعة والبشر أمرا ممكنا ويسيرا، و أضحى التنبؤ بالمستقبل عن طريق ربط القوانين ببعضها البعض وتتبعها أمرا هينا، خاصة إذا ما تعلق الأمر بمسائل الفلك والطبيعيات.

ومنه هيمنت الرياضيات الديكارتية القائمة على فكرة البداهة والوضوح، وكذا الفيزياء النيوتينية الخاضعة لمبدأ الحتمية الصارمة والقوانين الثابتة الأبدية على العقل العلمي العالمي، وأسست لمختلف معارفها المتنوعة.

لكن في منحى آخر لم يكن الأمر بسيطا ولا بريئا ولا رائعا ولا جذابا على الإطلاق، وهذا لأن التبسيط في المعرفة، وهو المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه المعرفة الكلاسيكية

* منظومة البساطة: هي منظومة تقوم بتنظيم الكون بإقصاء الإختلال من داخله، هنا يتم إختزال النظام في قانون ومبدأ معين، إن البساطة ترى إما الواحد وإما المتعدد، ولكنها لا ترى أن الواحد قد يكون في الوقت ذاته متعددا، يكمن عمل البساطة إما في فصل ماهو مرتبط (الفصل) أو توحيد ماهو متعدد (الإختزال).
أنظر إلى إدغار موران: الفكر والمستقبل مصدر سابق، ص61.

بصفة كبرى جعله ذا خاصية << تشوه الوقائع أكثر مما تعبر عليها، الأمر الذي يجعلها تنتج العمى أكثر من المساهمة في التوضيح >>[1].

ثانيا/ ثقافة الإختزال وآليات إشتغالها

إن الجانب السلبي لمنظومة التبسيط التي عايشها العالم الغربي بكل حيثياتها خاصة منذ اللحظة الديكارتية إلى الآن كان ذو حجم واسع وهائل ذلك أن هيمنتها لم تكتفي بالإستحواذ على مجالات علمية معينة وترك البقية، بل كانت كالسيل العارم أتت على كل الحقول دون إستثناء، وهو الأمر الذي شكل العقل الأعمى بتعبير إدغار موران، وهو عقل أحادي جاف ودوغمائي، متحيز لنفسه ولمنظومته، منغلق على مبادئه وأسسه، مبتعد عن كل الموضوعات التي يراها بعيدة عن مجاله ولا تخصه.

فالعقل الأعمى يقوم بإقصاء << كل ماهو غريب عن غاياته، يحتسب الثابت والمحدد والمؤكد، ويتجنب غير اليقين والملتبس، إنه ينتج معرفة يمكن معالجتها بسهولة من أجل الفعل وبواسطته >>[2].

نعم إنه هكذا أحادي ووحيد، يكتفي بنفسه، ومقتنع بنتائجه، ومتأكد من براعته، إنه عقل أناني مشوه لا يؤمن بالتفاعل والتعامل مع البقية، لأنه لا يؤمن بنجاعتها وبحظوظها في صنع المفيد، إنه عقل مغرور بالفعل، وهذا ما يجعل تسمية العقل الأعمى مناسبة جدا له.

وللأمانة فإن موران لم يكن الوحيد الذي تفطن إلى عيوب ومطبات هذا الفكر الإختزالي، بل إن هناك مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين سبقوه، وكذا من معاصريه ممن إنتبهوا إليها، عى غرار فيلسوف العلم غاستون باشلار، وقبله الألماني هيجل في فكرة الإختزال والتبسيط.

(1) إدغار موران: ازمة المعرفة، عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، مصدر سابق.
(2) إدغار موران: النهج، معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص71.

فأما باشلار فهو الناقد الثائر ضد هذه المنظومة الفكرية المعرفية وذلك حينما صرح بأن << الطريقة الديكارتية إرجاعية وليست إستقرائية ومثل هذا الإرجاع يسبب خطأ في التحليل ويعرقل نمو التفكير الموضوعي نموا شاملا >>[1].

لقد خصص باشلار فصلا كاملا في كتابه الفكر العلمي الجديد فقط لنقد الطريقة الإختزالية في التحليل والتوليد المعرفي الديكارتي، إنه يقصد في قولته هاته أن الطريقة التي ترجع إلى تفكيك المسائل إلى عناصر بسيطة أولية تؤسسها وتقومها هي طريقة خاطئة، وذلك لأن هذا النوع من التجزيء والفصل والتفتيت، لا ينتج سوى الأخطاء والأوهام، وبالتالي عوض أن تنتفع البشرية من عالم متفتح يقارب الحقيقة بطريقة كبيرة نجدها تغرق في وهم علم متسلط، وذو سلطان مستبد.

و بهذا ف<< إن ما سينجر عن تطبيق وممارسة مبدأ الإختزال هو إختزال للمركب في البسيط، من خلال توظيف كل تطبيق آلي وحتمي مرتبط بالجمادات على الحياة الإنسانية، وهو الأمر الذي يجعل العقل الأعمى المعتمد على هذا المبدأ- الإختزال- يلغي كل أمر غير قابل للتكميم والقياس، ما سينجم عنه حرمان الإنسانية من العيش بتحرر مع مختلف تفاصيل الحياة >>[2].

والموضوع إذا ما أردنا معرفة بدايته بالتحديد يعود حينما فصل أفلاطون في نظريته الشهيرة بين عالم المثل الذي يشكل عالم الحقيقة، والعالم الزائف أو النسخة الشبيه، وهو ما أدى إلى تقسيم الوضع إلى قسمين يعنى الأول بالحقائق الفعلية التي يتوصل إليها عن طريق الوعي والممارسات العقلية الجادة، من رياضيات واجتهادات ومكافحات جسمية وعقلية وروحية، وأما الثاني فهو المتصل بالعالم المادي الزائف الوهمي، الذي لا وجود له حقيقة سوى كنسخة مشابهة للحقيقة وهو أبعد ما يكون عنها، لأنه يحجبها ويظل العقل عن التوصل إليها.

(1) غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد،ترجمة عادل العوا، مراجعة عبد الله الدايم، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983، ط2، ص139.

(2) Edgar Morin : entroduction de la penseée complexe, op cit p10.

أما ديكارت فإنه عندما فصل بين حقول المعرفة المختلفة، وذلك بعد الفصل بين الذات المفكرة(*) والذات الممتدة أدى الأمر إلى << نشوء معرفة تنطوي على الإنفصال بين العلم والوعي >>(1).

أي بين العلم المرئي الملموس الموجود كموضوع حقيقي وذو فاعلية خارج الذات البشرية، وبين الوعي الذي يشكل الذات الداخلية بكل تمفصلاتها وهو الفصل الذي يقابله فصل الجسد كمادة عن النفس أو الروح كحقيقة معنوية في فلسفته- الفلسفة الديكارتية- وهوتصرف خطير جدا على المستوى الإبستيمولوجي، حيث نجم عنه تقسيم العالم إلى ثنائيات متباعدة لا تقرب أحداها من الأخرى ولا تتفاعل معها على الإطلاق، على غرار مسألة الخير والشر، النور والظلمة، النجاح والفشل، الحب والكره...إلخ.

لأن الحياة في كل مرة تبين لنا أنه لا يوجد شيء متخصص بالمطلق، متفرد بنفسه قائم على قدراته وركائزه الخاصة دونما أدنى تفاعل ولا ترابط مع التخصصات الأخرى، ومن إدعى ذلك فلا شك أن ما سينتجه من معارف ستكون ناقصة أو مبتورة، وهذا لأن << التخصص يلغي السياق ولا يهتم بالشموليات والمركبات، وهو ما أبرز عقبات كثيرة أعاقت ممارسة المعرفة المناسبة >>(2).

هناك حقيقة في غاية الخطورة مفادها أنه << إذا كان العلم الموروث من العقلانية العلمية قام على مبدأي الإختزال الذي يقضي بإرجاع المجموع إلى أجزائه والفصل الذي يفصل المعارف عن بعضهما، فإن هذين المبدئين لم يعودا قادرين على إستيعاب التعقيد الذي تطالعنا له صيغة المعارف المعاصرة >>(3).

(*) لقد جاء ديكارت في نظريته في المعرفة بمفهوم ذو دلالة جديدة هو الوعي، الذي يقوم على فكرة الحرية، والوعي هذا هو نتاج للذات المفكرة الجاهزة المكتفية بنفسها عن كل موضوعات العالم الفيزيائي الطبيعي الخارجي أي كل الموضوعات الممتدة في الطبيعة خارج الذات، وبهذا يكون ديكارت قد فصل بكل وضوح بين هذين العالمين، لأن الأولى تنتمي إلى العقل وكل ما يتعلق بعالم المعقولات والتفكير والثانية لها خاصية الإمتداد في المكان.

(1) Edgar Morin- Jean Luis le moigne op cit, p21.

(2) Edgar Morin :Les sept Savoirs nécissaires à l'éducations, op cit, p18.

(3) عبد الرزاق بلعقروز: الفلسفة وسؤال المستقبل-أعمال مؤتمر- الجزائر، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2014، ط1،ص318.

نعم هناك عجز رهيب تتخبط فيه الإبستيمولوجيا الكلاسيكية محاولة أن تبرهن على كفاءتها وأفضليتها وكذا مكانتها السابقة، لكن شدة التعقيد الذي تعايشه عناصر العالم الحية والجامدة كانت أقوى وخرجتها كانت أثقل من أن تستطيع نظرية قديمة صادمة ومغلقة تداركه.

إنه وفق الإبستيمولوجيا الديكارتية، فإن العلم والمعارف على السواء تتقدم وفق مسار خطي مستمر، وسوف لن نفصل في هذا الموضوع كثيرا هنا، وهذا لأنني خصصت مبحثا كاملا في الفصل الأخير يتحدث حول المنهج والكيفية التي بها يسير العلم محققا أهدافه وغاياته، لكنني ساكتفي بالإشارة في هذا الإطار إلى أنه << يجب هدم فكرة تقدم بسيط، مضمون ويسير في إتجاه واحد، والنظر إلى التقدم على أنه متقلب في طبيعته متضمن لتقهقر كامن في مبدئه ذاته، تقدم يعيش اليوم أزمة على مستوى كل مجتمع، وبطبيعة الحال على مستوى مجموع الكوكب >>(1).

إذن لا نستطيع في هذه الحالة سوى الإقرار بأن خطاب الإبستيمولوجيا الكلاسيكية كان وافرا في عملية << تبديد التعقيد الظاهر للظواهر من أجل الكشف عن النظام البسيط الذي تخضع له>>(2)، وهو في هذا ماض دون توقف ظنا منه أن هذا هو الأصح والأفضل للعلم والمعرفة الإنسانية بينما كان سوءه في الحقيقة أعظم بكثير من محاسنه التي قدمها، الأمر الذي يستوجب على جناح السرعة تدخل البديل الذي يعتقد صاحبه أنه المريح والواجب تقديمه وهو الإبستيمولوجيا التعقيدية التي لا تقصي أحدا ولا تقصي الفكر التبسيطي لا على العكس، بل تقوم بإحتواءه وضمه إلى مكونات وعناصر أخرى - إبستيمولوجيات اخرى- وهذا ما سنراه في العنصر الموالي.

(1) إدغار موران: إلى أين يسير العالم، مصدر سابق، ص36.
(2) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر السابق، ص19.

ثانيا: من منطلق التبسيط إلى إرساء نموذج التعقيد

إن التعقيد << يسعى إلى إعتبار أكبر قدر من المعطيات والمعلومات العينية، ويسعى إلى الإعتراف بالمتنوع والمتغير والملتبس والصدفوي واللايقيني وإحتسابهم>>[1].

منظومة التعقيد أو نظرية الفكر المركب هي الرؤية الكونية المعرفية الجديدة التي جاء بها إدغار موران ليرسم معالم جديدة تسير دروب البشرية، إنه طموح كبير لتغيير ملمح العالم و وضعه السائد منذ فترة ليست بقليلة ولا وجيزة، والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الخصوص هو: ما المقصود بالتعقيد بادئ ذي بدء؟ ثم علاما يقوم؟ ماهي خصوصياته بالمقارنة مع الرؤية أو الرؤى القديمة؟ ماهو مسعاه الأخير في رحلة البحث والتفسير التي يخوضها؟.

سنحاول في هذا العنصر التعرض إلى مجموعة من النقاط التي قد تجيب على مجموعة الإستفهامات هذه.

1/ بدايات التعقيد كمصطلح

إن التعقيد كمصطلح ذو دلالة واضحة وصريحة ومؤسسة تماما كما أرادها موران تاريخيا لم تكن قد ظهرت عنده فقط، لكنها لم تنضج بنفس الثقل والحجم والوزن إلا معه عندما صاغها كنظرية متينة ذات أسس ومعالم.

ظهر التعقيد عند الفلاسفة والمفكرين القدامى تحت مسمى الشواش أو الكاوس أو الكاييس ليدل على حالة الفراغ والفوضى التي تعم المكان والكون، إنها حالة الخلاء حيث لا وجود لشيء، وإن وجد فإنه يعيش حالة اللانظام، هذه الأفكار والتعابير موجودة بشكل مركز في الدراسات الفيزيائية والفلكية القديمة، وكذا في الدراسات الرياضية والطبيعيات،

(1) إدغار موران: المنهج، معرفة المعرفة-الأفكار-، مصدر سابق، ص71.

أراد أصحابها أن يترجموا مراحل عيش الأجسام أو المواد المتحركة، وكيفيات حدوث الظواهر أثناء تحركات نقاط معينة في الأثير.

وبالعودة إلى مجال الفلسفة، وخاصة في الفلسفة الحديثة<< كان للتعقيد مجالا خاصا داخل الفلسفة من غير إستعمال اللفظ نفسه، وكان هذا المجال هو الجدل، وعلى الصعيد المنطقي كان هو الجدل الهيجلي مادام يقحم التناقض والتصارع في عمق الهوية >>(1).

إنه يتحدث عن الجدل الهيجلي الذي سبق وأن أشرنا إليه في موضع فائت وهو أن التركيب ينشأ من جراء الربط بين قضيتين متناقضتين متعارضتين، تحاول كل منها التعبير عن أحقيتها وكفائتها وقوتها بطرح الحجج المعززة لذلك، لينتهي الأمر بهذا الجدل إلى ظهور قضية ثالثة مركبة تجمع في الغالب بين إيجابيات ومحاسن و أفضال كل منهما، اي أن المنطق الهيجلي قائم على فكرة أن عالم المعرفة تاريخيا يتولد من خلال هذا الجدل الساكن عالم الفكر أو الأفكار، أي أن الفكر هو الوحيد القادر على تغيير العالم، العالم المادي بكل تفاصيله، ليكون هو المتحكم فيها، وليست المادة هي التي تتحكم فيه.

هكذا إذن يفهم التركيب وفق المنظور الهيجلي وهو يختلف تماما عما أراده موران ونظر إليه، وهذا لا يعني مطلقا أنهما لا يلتقيان في نقاط، بل هناك ما يجمعهما لكن في العمق و الدلالة والوجهة هناك اختلاف.

ولكي نوضح الفكرة بشكل جيد نقول << أن إبستيمولوجيا موران هي في جوهرها ذات مظهرين: نقدية وبنائية، نقدية للإبستيمولوجيات الكلاسيكية، لاسيما الديكارتية التي قامت على أفكار البساطة والإختزال والتي سادت في الفترة ما بين القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر حيث تأصل هذا الأسلوب التبسيطي الإختزالي في النماذج المادية

---

* في تقديمه للمجلد الأول من المحاضرات التي ألقيت في المؤتمر الأول حول المنظومات المعقدة في جامعة نيومكسيكو 1988، يشبه دانييل شتاين Daniél Stein التعقيد/الشواش بمفهوم غيبي، لأن الكثير من الناس يتحدثون عنه، لكن لا أحد يعلم ماهو في الحقيقة، ثمة تفسيرات متعددة لنظرية الشواش تتطلب إستخدام كلمات مثل:تركيب، تقاطع، مناهج، حافة الشواش، ديناميكيا،شبكات عصبية...إلخ، لكن هذه التفسيرات جميعا تحمل معها مفهوم المنظومات المعقدة، مضامين نظرية الشواش عويصة لأنه ليس ثمة من يستطيع معرفة الشروط المطلقة من أجل التنبؤ التام بسلوكها.

أنظر إلى: معين روميه: مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش، مقال إلكتروني على الموقع :

http://www.Maaber.50Megs.com بتاريخ: 2019/05/09 على الساعة: 11:20

(1) Edgar Morin : Entroduction de la pensée complexe, op cit, p47.

الميكانيكية التي أقرتها العلوم الكلاسيكية، وتهدف في الوقت ذاته إلى بناء أو بلورة رؤية إبستيمولوجية جديدة تأخذ التعقيد كعامل أساسي في المنظومة المعرفية المعاصرة>>[1].

وإن عملية البناء هاته ثقيلة وشاقة، ذلك أنه ليس من البساطة إطلاقا أن تلغي صرحا مجيدا ساد لقرون طويلة من الزمن، وسيطر على المخاخ والعقول في قبال إرساء نموذج آخر جديد ومختلف تماما وتطلب من الجميع تقبله، وبالتالي على التعقيد مواجهة عدة جبهات، إلغاء نقائص المعرفة الكلاسيكية والبرهنة على عدم نجاعتها دائما، وإقناع الذهنيات بضرورة التعقيد، ثم الكفاح من أجل الإستمرارية والبقاء بعد التقبل والترحيب.

وعليه نستشف دعوة إلى تأسيس معرفة المعارف المترجمة لحقيقة التعقيد المناهض للإختزال بشتى أطيافه، وهذه المعرفة << بإمكانها فهم واستيعاب المشكلات الكلية والأساسية، من خلال دمج وتفاعل المعارف الجزئية >>[12].

إن التعقيد كنظرية ورؤية جديدة مفسرة لمعنى العالم والإنسان لا يدعي مطلقا أنه الوحيد المستحوذ على الحقيقة، أو أنه الأصوب أو القادر على عرض حل كامل ونهائي لمشاكل الإنسانية المختلفة، بل بالعكس إنه يقوم على مبدأ أنه فرضية تعترف بأحقية كل الأفكار في العرض والطرح، ومن ثم تقبل تلك الأفكار لبعضها البعض في إطار متراوح وفضفاض ومريح، إن مسألة التقبل هذه ليست هينة بتاتا، إذ من الصعب أن ينفتح طرح ما على نظيره أو نقيضه ويرحب بما لديه ثم يتفاعل معه دونما مشاحنات أو صدمات.

وهذا الأمر نجده في المنطق التعقيدي الذي يقر بأن كل الفرضيات ممكنة وفيها جوانب الصواب، وسوف تكون أكثر صوابا إذا ما أتيحت لها فرصة الإلتقاء والتواشج مع فرضيات أخرى، وفي المقابل سوف تتلاشى وتضمحل إذا بقيت حبيسة نفسها، متمسكة بآرائها، بعيدة عن التفاعل والنصح مع/من الأطراف الخارجية الأخرى.

---

(1) داود خليفة : إبستيمولوجيا التعقيد – دراسة لبراديغم التعقيد والفكر المركب لدى إدغار موران-، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران2، الموسم الجامعي 2015-2016، ص276.

(2) Edgar Morin: Les sept savoirs nécessaires a l'education, op cit p4.

وبهذا نرى << أن التعقيد يمثل براديغما جديدا تولد عن حدود العلوم المعاصرة وتطورها معا، وهو في الوقت ذاته لا يتخلى عن مبادئ العلم التقليدي، بل يدمجها في خطاطة أوسع وأغنى>>[1].

إنه بهذا الفعل يقر بحقيقة خطيرة و واضحة، وهي أنه لا يوجد علم كامل، أو نظرية مستوفاة الشروط جاهزة وكاملة، بل إن الكمال مسعاها جميعا، ويجب أن تتحد مع بعضها وغيرها دون أن تقصي إحداها الأخرى، وأن تتفاعل بصورة إيجابية مع بعضها البعض، وأن تتلاقح بنية التواصل والتبادل المعرفي، وهنا فقط يتأتى لنا أن نقول أنها قاربت الكمال.

فالتعددية إذن شرط لازم من شروط الإبستيمولوجية التعقيدية وأن أي تحيز أو فصل أو إنزواء لمعرفة أو علم عن البقية يعتبر منقصة ومعيبة كبيرين، وفي هذا السياق نجد أن << الفكر المركب بتطلعه إلى تعددية الأبعاد، يحتوي في ذاته على مبدأ الإكتمال واللايقين>>[2].

أي أنه يعترف بلايقينية المعرفة، إذا كان من المتداول في المنطق الإبستيمولوجي الكلاسيكي أن المعرفة حازت على اليقين والكمال، وهو ما أكسبها النزعة الوثوقية، فأضحت مهابة بسلطان صدقها وصوابها الذي لا يخطىء أبدا، وأن كل ما يصدر عنها من مقدمات ونتائج صادقة وحقيقية ويقينية بالضرورة مادامت تعتمد على منهج وقوانين صارمة وثابتة لا تتغير.

وحينما إصطدم العالم بغير ذلك خاصة مع ما حدث للرياضيين في أزمة الأسس، والتي برهنت وبجلاء أنه لا يوجد شيء ثابت وقطعي وصحيح ويقيني في الرياضيات، وأن هذا العلم الذي كان يقسم العلماء بصرامته ودقته ووضوحه وقوته قد إنهار أمام إختبار اليقين فأمست المعادلات الرياضيات تحل بعدة طرائق وأوجه، وظهرت الإحتمالات والأعداد التقريبية، وهو أمر ألغى فكرة اليقين الرياضي نهائيا من العلم.

(1) يوسف تيس: نحو براديغم جديد للطبيعة، مجلة رؤى تربوية، العدد29، مؤسسة عبد المحسن القطان، ص119.
(2) محمد عفط: التحولات العلمية والفكرية، الإنفتاح والتركيب وتجليات النقد المتجدد، مجلة فكر ونقد (نسخة إلكترونية) ، العدد 69 على الرابط: http://wwwAljabriabed.net/n69.02afat.htm

<< إذ لا يمكن إدراك الظواهر إلا من خلال نوع من أنواع التركيب >>[1]، والتعقيد تعقيدات فهو ليس واحدا فريدا، على الإطلاق وإنما يستعمل مصطلح التعقيد كمفردة ليسهل عليه صياغة التعبير لا غير، فهناك تعقيد داخلي وتعقيد خارجي وتعقيد فيزيائي وتعقيدي شعري إلى غير ذلك من الأنواع، حتى لا يفهم من كلامه أنه حصر جملة تعقيدات العالم في معنى واحد.

وهو في هذا الشأن يقول:<< بالإمكان القول بأن ماهو معقد يرتبط من جهة بالعالم الخارجي، وباللايقين وبالعجز عن أن نتيقن من كل شيء، وعن أن نصوغ قانونا ما وعن أن نتصور نظاما مطلقا، كما أنه يرتبط من جهة أخرى بشيء منطقي نوعا ما، أي بالعجز عن تفادي التناقضات >>[2].

هناك دعوة إلى الفصل بين مسألتين حساستين قريبتين في اللفظ والنطق، ولكن بعيدتين في المعنى والدلالة، وهما مصطلحا التعقد و التعقيد وإن كانا من ناحية الإرتباط نجدهما مرتبطين بحق << فالتعقيد هو التداخل القوي للتفاعلات الإرتدادية فيما بينها، هو مظهر وعنصر من عناصر التعقيد [...] إن التعقيد والتعقد ليسا معطيين متنافرين، ولا يمكن إختزال احدهما في الآخر، فالتعقد هو أحد مكونات التعقيد >>[3].

من الضروري التفريق بين المصطلحات والحرص على عدم الخلط بينها، لأن الخلط يؤدي إلى الغموض السلبي الذي ينتج عدم فهم الرؤية التي تأخذ أعواما من عمر الفيلسوف أو الباحث وهو يدعو إليها، وبهذا الخصوص أعطى مثالا في منتهى الروعة عن بكتيريا معقدة إكتشفت في مقاطعة مونريال الكندية،وعندما جيء بها إلى مخابر المقاطعة عجزوا أن يجدوا لها تحليلا أو نتيجة مقنعة لأن حالتها أشد تعقدا من خبرتهم ومستوى تكنولوجيا المخابر، ولذا فهي تقاوم هؤلاء المخبريين الذين يعتبرون معتدين عليها.

(1) جون ليشته: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ترجمة فاتن البستاني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2008، ص25.
(2) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، مصدر سابق، ص69.
(3) المصدر نفسه، ص70.

إذن فالتعقد هو ذاته مرتبط بالعقيد الذي يسمح لها بتحمل الإختلال داخلها، فتحمي نفسها بتعقدها لتستمر بالبقاء داخل تعقيد هذا العالم.

يجب الإشارة وبمنتهى الصرامة إلى أن للتعقيد مبادئ ثلاثة يقوم بها ويعول عليها هي على التوالي: المبدأ الحواري، ومبدأ الإرتداد التنظيمي ومبدأ الهولوغرام.

فأما الأول فهو ذلك القائم على الحوار بين ثنائية متعارضة جدا، كالإختلال والإستقرار، إن هذين الأخيرين يعتبران عدوان لبعضهما البعض وكل منهما يحاول إلغاء الآخر عند حضوره، لكن إجتماعهما معا يؤسس للتعقيد والتنظيم في منظر في غاية الغرابة والجمال.

ويمكننا أن نوظف مثالا آخر يبين ما يخلق منظورين مختلفين، كحالة أنثى القرش التي تعد من الأسماك الضخمة في البحار فهي تحمل في رحمها قرشين صغيرين إثنين، لكن مع مرور الوقت، ولكي يستمر بقاء هذا النوع، فإنه من المستلزم أن يتغذى أحدهما من الآخر داخل بطن أمه، أي ان يقوم أحد الصغيرين بإلتهام أخوه داخل الرحم حتى يضمن طعامه وبالتالي يضمن بقاءه إنه منظر وموقف مريب ومخيف ومشمئز يحصل لأجل ضمان موقف إستمرارية البقاء ودوام النوع.

وكذلك نلاحظ بعض الثديات تلتهم بعض/كل صغارها بغية الإسستمرار على قيد الحياة << يمكننا المبدأ الحواري من الحفاظ على التعارض داخل الوحدة، إنه يجمع بين حدين متكاملين ومتعارضين في الوقت ذاته >>[1].

وأما الثاني من المباديء الثلاثة فهو في تقديري أعقدها وأيسرها في الآن نفسه، ذلك أن الإرتداد التنظيمي يعني أن الحياة اليومية تحمل أفكارا وموضوعات نعتقد أنها قد جاءت بطرائق وكيفيات معقدة ومبهمة، بينما في الحقيقة هي منبثقة عن مسببات معينة، لتعود فيما بعد هي السبب في انوجاد عناصر أخرى، ولكي نفهم بوضوح سنستدعي مثالا عن الفرد والنوع والتوالد وكذا مثال الفرد والمجتمع، حيث ينتج الفرد المجتمع عن طريق

(1) إدغار موران: المصدر السابق، ص75.

الولادات وإجتماعها، فيقوم المجتمع المؤسس من طرف الأفراد بإنتاج الأفراد- أفراد آخرين جدد- من خلال تلقينهم جملة من العادات والتقاليد والقيم، من لغة وثقافة ودين وطقوس ومعاملات، فيضحى العامل المنتج منتجا فيما بعد بهذا قد عاش الدورين معا، وكذا سأدعم بمثال الأنثى التي تكون في البدء مولودة منتجة من قبل أمها، لكن سرعان ما تمسي شابة ناضجة فإنها ستنقلب أما منتجة للأطفال، وهو فعل إرتدادي منتظم.

ولهذا أمكننا القول أن الفكرة الإرتدادية تشكل << قطيعة مع الفكرة الخطية(*) القائمة على ثنائية العلة/النتيجة، النتيجة/المنتوج، والبنية التحتية/البنية الفوقية، بما أن كل ما يتم إنتاجه يعود على ما ينتجه داخل حلقة هي ذاتها تتشكل وتنتظم ذاتيا وتنتج ذاتها ذاتيا>>(1).

أي أن الإرتداد التنظيمي يتطور ليرتد إلى السبب الذي أوجده فيكون فيما بعد هو هو بكل تفاصيله، فيحدث بذلك إنتظام للحادثة أو الظاهرة بطريقة إرتدادية خلاقة جميلة.

ويأتي المبدأ الثالث ليدلل على قوة وكثافة الهولوغرام، ويقصد به أن الكل يوجد داخل الجزء الذي يوجد بدوره داخل الكل، أي أن مجموع العناصر التي تشكل كلا كبيرا ومتحدا كما الكون مثلا، كقوة عظيمة كبيرة كلية يضم بداخله الجزء أو مجموعة الأجزاء الصغيرة المختلفة مثل الإنسان، فيكون هذا الكائن الأخير بدوره حاملا داخله- داخل فكره وكيانه كل الكون- من معارف ومعلومات وقصص وتفاصيل حوله إذن فليس الكل فقط هو ما يحمل الجزء، بل وفي ذات الوقت يحمل الجزء ذاك الكل بكل حيثياته.

كما أن هذا المبدأ يحضر في العالم البيولوجي كما يحضر تماما في العالم السوسيولوجي، وفي الحقيقة فإن تأثيرات هذه الفكرة جاءت من توجهات باسكال الفكرية، الذي سبق وأن ذكرناه بأنه من بين أهم الفلاسفة الغربيين الذين أثروا في طريقة تفكيره من خلال مطارحاته المنفتحة والمتراوحة، باسكال الذي دعى إلى ضرورة الأخذ بعين

(*) الفكرة الخطية: هي فرضية قائمة على التقدم المستمر نحو الأمام في شكل خط منتظم، ويكون عن طريق إلتقاء عناصر مختلفة أو متشابهة، الأمر الذي يتولد عن هذا اللقاء بروز ممشى أو مسلك ثابت ومحدد ومستقيم ويقيني يستبعد كل الإحتمالات الخارجية عن منطق عادته.

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، المصدر السابق: ص75.

الإعتبار تمثل الجزء في الكل وتمثل الكل في الجزء، في معادلة متقلبة ومحتضنة للمجموع وتفاصيله/أجزائه.

فنلاحظ من خلال هذا المنطلق أن هذا المبدأ هو الآخر كما الإرتداد التنظيمي مناهض لفكرة المنطق الخطي، الذي يتقدم دون الإلتفات إلى البدايات الأولى، التي في الغالب يتخطاها ويتفاعل مع عناصر أخرى مختلفة لينتج عناصر جديدة كليا.

<< إذن فالفكرة الهولوغرامية هي ذاتها مرتبطة بالفكرة الإرتدادية التي ترتبط بدورها جزئيا بفكرة الحوارية >>(1).

هذه هي مبادئ التعقيد وهذه هي الأفكار التي تقومه وتكونه، ولكي نخرج من هذا العنصر نستطيع القول أن<< إجتراح الفكر المركب مع إدغار موران يحرر العقل والفكر والمعرفة من الإنجذابات نحو الإختزالية والتبسيطية، ويجعل العقلانية أكثر تواضعا، وإعترافا بقيمة الوجدان والتوبة والعاطفة، وفوق هذا أكثر إستفاقة ووعيا بحدود المنطق والنزعة والحتمية والنزعة الآلية، وأن الحياة حبلى بالألغاز والثغرات والأسرار>>(2).

وكملاحظة أخيرة أقول أن موضوع التعقيد يحوي تفاصيل هائلة لا تسعها أوراق مبحث أو فصل، ولكن إكتفيت بهذا القدر ظننا مني أن كل ما سيأتي فيما بعد في هذا البحث سيسهم في الإجابة عن إبهامات التعقيد وخباياه.

ثالثا/ هندسة الإنسان المركب

<< إنه من اللازم إعادة دمج الإنسان ضمن الكائنات الطبيعية بهدف تطويره و تمييزه عنها لا إختزاله فيها، وهو أمر يتطلب وبجدية تطوير نظرية ومنطق وإبستيمولوجيا للتعقيد تلائم معرفة الإنسان >>(3).

معروف أن الفلسفة المعاصرة قد توجهت وببالغ الأهمية إلى دراسة الإنسان كموضوع في منتهى الحساسية، بطريقة مختلفة معرفيا ومنهجيا عن الطرائق التقليدية السابقة، لقد

(1) إدغار موران : المصدر السابق: ص76.
(2) عبد الرزاق بلعقروز: مرجع سابق، ص226.
(3) Edgar Morin : Entroduction de la pensée complexe, op cit, p 25.

توجهت إليه كذات مشخصة و فاعلة ومولدة، ذات تحرك وتتحرك، صانعة ومقدمة...إلخ، وسنجد أن نظرية الفكر المركب قد إحتضنته في الإطار التعقيدي الذي أصبغه صبغة خاصة، وكشف عن وجود ثنايا وأبعاد جديدة، ربما لم ينسبه إليها من قبل، خاصة بهذا المستوى من الطرح والتحليل.

وعليه يكون المبحث أو هذا العنصر كاشفا عن الكيفية التي رأى بها التعقيد الإنسان، وطموحه في هندسة إنسان مركب متجانس مع عالمه وواقعه، ناجح في إختياراته وإستثماراته وقراراته مع شتى تمفصلات الحياة.

ليكون الإشكال الإبستيمولوجي الذي تحاول الأوراق الآتية معالجته هو:

كيف نظر إدغار موران للإنسان المركب في إطار الرؤية التعقيدية؟ بأي مسألة يتقوم ويتقوى؟ وما خصوصيات وضعه النهائي المرسوم له؟ ثم ماذا سيقدم هذا النموذج عند المنتهى للإنسانية والعالم؟

1/الإنسان في الإبستيمولوجيا التقليدية

لقد تناولت الفلسفات الإنسان بالدراسة، لكن بصفة جزئية ظرفية تقطيعية، بمعنى أنها عالجته على مستوى الفكر أو الفعل أو التجريب أو الصناعة، أو المعاملة...أو غيره من الأوجه الكثير، وحتى مع مجيء الفلسفة المعاصرة وظهور أفكار جديدة تهتم به لوحده باعتباره الكائن المشخص والمصورن الموجود أمامنا القادر والفاعل، وأعطي من الأهمية والأحقية الكثير، ولكنها مع ذلك ما تزال هذه المقاربات تعالجه بصورة فيها فصل وعزل وإختزال.

* من النماذج المعاصرة التي أبدعت في تقديري في دراسة الإنسان من جوانب كثيرة وبطريقة جديدة وغير معهودة هي الفلسفة الوجودية بشقيها المؤمن والملحد، ذلك أنها قد مجدته ووضعته في المركز ثم سلطت الضوء على مجموعة عواطفه وكياناته، وأهوائه وإنفعالاته، وحالاته الوجودية الكثيفة والخفيفة التي يعايشها بصفة مؤقتة أو مستمرة في واقعه اليومي، إن الفلسفة الوجودية تهتم بالإنسان بوصفه الكائن الإستثنائي الوحيد في هذا العالم المليء بالطاقة والمحرك للوجود ككل .

ولذلك فإن << مصطلح إنساني غني ومتناقض ومزدوج، إنه في الواقع جد معقد بالنسبة للأذهان المجبولة على إحلال الأفكار الواضحة والمميزة >>[1]. وفي هذا ضرب واضح للإبستيمولوجيات التقليدية الأرسطية وقبلها الأفلاطونية، والديكارتية ثم الكانطية والهيجلية، ولكنه المرتكز بشكل صريح على الفلسفة الديكارتية التي قطعت الإنسان بطريقة وحشية وفض يعة ملغية شتى مظاهر التفاعل الخلاق والروابط الزاخرة بالثراء والقوة بين كيان الإنسان الواحد، نحن هنا نتحدث عن الفصل الواضح بين الروح والجسد، الذي جعلهما ديكارت يسكنان مكانين بعيدين ومختلفين عن بعضهما البعض، لا يلتقيان ولا يتواصلان نهائيا باعتبار إختلاف خصوص يات كل منهما وكذا المناهل والمآلات، وهو فصل في غاية الخطورة.

إن نموذج الإنسان الذي يطمح إلى هندسته وبنائه، لن يكون ويوجد إلا عن طريق التربية، إذ التربية هي الوحيدة الكفيلة بالقيام بهذه المهمة منذ الصغر، فطفل اليوم هو رجل/إمرأة الغد، لذا على البيت والمدرسة بالخصوص القيام بهذا الدور المعقد والنبيل والخطير في الآن معا.

و لإحقاق هذا يجب حضور جملة من المبادئ أو الخطوات الضرورية التي يجب تلقينها لكل طفل، ويجب أن يتشبع بها من أولى مراحل تعليمه المدرسي وإلى غاية أعلاها، ونقصد هنا الطور الجامعي، فالموضوع إذن موضوع تغيير شامل وجذري في محتوى المعارف المقدمة في المدارس.

أجل فالمعرفة الحاملة للأخطاء والأوهام والإنحرافات، معرفة ينبغي أن تزال وتستبعد تماما من الأوساط التعليمية حتى لا تنشىء ثقافة ذهنية مبنية على الخطأ، وهو ما

(1) إدغار موران: النهج إنسانية الإنسانية، الهوية البشرية، مصدر سابق، ص23.
* يقول موران << هذا ماجعلني أدعوا منذ عشرين سنة، إلى أن يدمج في مدارسنا إبتداءا من نهاية التعليم الإبتدائي وفي الثانوي تدريس ماهية المعرفة، أي تدريس مسببات أخطائها وأوهامها وإنحرافاتها، ذلك أن إحتمال الوهم والخطأ يكمن في طبيعة المعرفة نفسها، فالمعرفة الأولى التي تعتبر إدراكية تتم دائما من خلال ترجمة تأثير المثيرات على أعضائنا الحسية على شفرات النظام الثنائي داخل شبكاتنا العصبية، وبعدها تتم عملية البناء الدماغي، الكلمات ثمرة الترجمة إلى اللغة، بينما تمثل الأفكار إعادة بناء الأنساق >>.المصدر نفسه ص23.

سوف يؤدي فيما بعد إلى كارثة إنسانية حتمية سواء على مستوى التعامل أو الفهم أو التطبيقات العملية داخل التخصصات، لذلك وجب الحذر تجاه هذه الظاهرة الخطيرة.

ولقد سمى إنتقاء المعارف الصحيحة البعيدة عن المطبات والأخطاء بمعرفة المعرفة، قاصدا من خلالها أن المعرفة بدورها يجب أن تؤسس لنفسها حراسا يحرسونها ويحمونها من غدر تسللات الأغلاط والأوهام، ويجب الفرز والتمحيص دائما فالمسألة ليست هينة على الإطلاق، إنها مرتبطة بمصير هندسة إنسان كامل ذو كفاءة عالية قادر على تحمل شتى تحديات التعقيد في العالم، لأن الإنسان الفارغ الذي نشأ على ثقافة البساطة والإختزال عاجز تماما عن مجابهة كل تحديات الواقع المعقدة.

وفي هذا الإطار<< يجب أن تدرج معرفة المعرفة في التعليم من المرحلة الإبتدائية إلى الجامعة، من أجل تمكين التلاميذ في سن المراهقة، حيث يتشكل العقل من تمييز الإنحرافات، ومخاطر الوهم ومقابلة الإختزالية، والمانوية والتشيء بمعرفة قادرة على الربط بين جميع جوانب الواقع حتى المتعارضة منها >>(1).

إن تحديد مصادر الوهم الثلاثة له مايبرره، فأما الإختزالية فقد أتينا على ذكرها وشرح أسبابها ومخاطرها سابقا حتى لا تتكرر، وأما المانوية، فهي نزعة منتشرة في العالم، وقد إنتشرت مؤخرا في فرنسا كديانة جديدة تقوم على مبدأ النزاع بين الخير والشر وقوى الظلمة والنور منفصلة عن بعضها البعض بشكل مطلق وقطعي فلا يوجد ما يجعل أحدهما يستفيد من الآخر، فهو منطق خاطىء لأنه يوجد دائما تبادل وتفاعل داخل المتخاصمين، يخدم هذا الإلتقاء جانبا ما من جوانب الحياة التي قد لا يلحظها الإنسان للوهلة الأولى، لكنه سيستشف تأثيرات تلك العلاقة كبعد من الأبعاد في مكان ما.

وأما التشيء، فهو الآخر نزعة جديدة ظهرت بشكل واضح في العالم الغربي، والمقصود منها أن طغيان المادة على مناحي الحياة المختلفة قد سلب كل ماهو روحي وجميل، فأضحى الإنسان يعمل بجد فقط حتى يحقق حاجياته واغراضه المادية التي يعتقد بعمق أنها ضرورية ضرورة الحياة، وبالتالي طمست القيم والمشاعر والعواطف والأهواء

(1) إدغار موران: النهج إنسانية الإنسانية، الهوية البشرية، مصدر سابق.

الإنسانية وتشيئت أي أنها أمنت مجرد أشياء لا معنى لها، بل إن الإنسان نفسه قد تشيء وصار إلى حالة اللامعنى وهي في نظري أخطر المآلات التي وصلها الإنسان على الإطلاق.

وبالعودة إلى موضوع المدرسة كقوة حاضنة للمشاريع التربوية بامتياز فإنه يلزم عليها << التوفيق بين ثلاث مهام أساسية: أنثربولوجية، مدنية ووطنية [...] حقا على المدرسة أن تسمح لكل واحد بإمكانية تحقيق تطلعاته، لكن دائما بين طيات جماعة لذلك أقول بأنها تشغل تماما وظيفتها حينما يتأتى أن تلقن في ذات الآن فكرة المسؤولية الشخصية والتضامن مع الآخر>>(1).

واضح أن المبتغى من دمج الخصائص الثلاث هو تخريج إنسان مركب من شقين أساسين والأهم من هذا أنه واعي كل الوعي بهذا التركيب، الأول هو المتعلق بتحمل مسؤولية الذات بكل تفاصيلها مسؤولية شخصية خاصة تجعل الإنسان فردا محترما ومواطنا صالحا للغد، قادرا على مواجهة أعباء الحياة، وأما الشق الثاني فهو قوة التعامل والتفاعل مع الآخر/الغير، إذ لا يتحقق شرط الكفاءة والصلاح والجودة التربوية مالم تكن هناك علاقة جادة ووطيدة تجمع الإنسان بالإنسان الآخر وتقوي مفهومه بذاته وبالغير/الجماعة وبالعالم ككل، فهو بالتالي شرط تركيبي لازم وضروري لكي يتغير فكر الإنسان وتوجهه في هذا العالم متخليا عن المجموعة المرضية الكلاسيكية التي أسسته ومتوجها صوب نمط جديد ومختلف كليا، فيه الكثير من الحركة والسكون معا، وفيه الكثير من الصخب والهدوء معا، فإنه يكون من الأولى تغيير التقسيمات التقليدية التي وجهت له أي << إحلال محل الإنسان العاقل الصانع للأدوات Homo Faber Sapiens المفرط في البساطة والإختزال بمفهوم الإنسان المعقد Homo Complexus>>(2).

(1) إدغار موران وجان ميشال بلانكير: كيف نغير المدرسة؟ ترجمة سعيد بوخليط، مقال إلكتروني على الموقع: http://www.HEKMAH.org بتاريخ: 12/01/2018 على الساعة 15:40
* لقد نوه موران إلى ضرورة <<إستعادة الثقة، أي أن نعطي المدرسين الثقة في أنفسهم وسلطتهم ودورهم ليسوا فقط مجرد اساتذة مكلفين بتلقين مادة معينة بل لهم مهمة جوهرية أكثر عظمية وجملية كتلك التي يؤديها الأطباء>>.
أنظر إلى: المرجع نفسه.
(2) إدغار موران: نحن نحمل فينا كل قصة الكون، مصدر سابق .

والإنسان المعقد الذي المقصود هنا هو ذلك الذي يحمل في داخله كل الملامح والتمظهرات فهو ليس إنسانا صانعا وعاقلا فحسب، بل وكذلك هو الإبن والوالد والمعلم والمربي، وهو المساعد والكاتب والمزارع وهو أيضا الشاعر الحساس، والحزين البكاء، والسعيد الضاحك...إلى غير ذلك من التوصيفات المختلفة التي تشاركه في تعقيده.

وعلى هذا الأساس فإنه لا داعي للتعامل مع فرد ما على أنه وفقط يملك تلك الميزة كأن نقول للقاتل مثلا ذلك القاتل أو أيها القاتل مختزلين كل شخصيته الإنسانية في صفة واحدة متناسين أنه الأب والمعيل، وأنه الفكاهي والعامل الكادح، وكذا هو التلميذ يوما كان، وهو الشاقي لعائلته...إلخ.

وللأمانة فهذه الفكرة في حقيقتها إستقيتها من مثال لهيجل حين دعى هو الآخر إلى عدم إختزال الناس في سمة خاصة، كوصف المجرم بالإجرام، ونحت نظرتنا تجاهه على أنه مجرد مجرم وفقط ولا يملك أدنى صفة أخرى في حياته سواها.

في موضع آخر أعلن موران قائلا:<< لقد طورت كل أبحاثي في إتجاه معاكس للتجزئة وتقطيع المعرفة، مدافعا من أجل إمكانية إعادة تجميع المعرفة، وذلك في الربط بين العلوم الفيز- رياضية، والعلوم الإنسانية، والعمل على إدماج الإنسان كموضوع للمعرفة، وكعضو في نظام الطبيعة والكون>>[1].

لقد أدان بشدة موضوع قيام كل معرفة وعلم بحد ذاته غير مستفيد ولا محتاج إلى غيره من المعارف والعلوم،مبينا بوضوح كيف انه حدث في الإبستيمولوجية التقليدية وأن تكبرت الفيزياء والرياضيات على العلوم الإنسانية- ولا تزال ليومنا هذا- بحكم إمتلاكها لمنهج علمي صارم ومتين يخولها أن تستحوذ على الدقة واليقين، كما أنهاعلوم تطبيقية نفعية/براغماتية، يمكن رؤية ثمارها بعكس العلوم الإنسانية التي هي أقرب ما تكون إلى العلوم المعيارية ولها منهج هش-حسبهم طبعا- ولا يمكن أن تقدم ذرائعيا الكثير للإنسانية.

(1) إدغار موران: حوار لمجلة علوم إنسانية الفرنسية، ترجمة عمر بيشو، مجلة فكر ونقد الإلكترونية على الرابط http://www.Aljabriabed.net/h89-09bichou-htm بتاريخ:2018/08/12 على الساعة: 11:00

* فيما يخص المرجعيات الفكرية في المجال التربوي الخاصة بإدغار موران نجدها كثيرة ومتنوعة، فهو معجب بكل مفكر وفيلسوف ذو عقل منفتح أو حامل لفكرة متراوحة وسلسة على غرار مونتين الذي أعجب به كثيرا في مسألة

إذ أن هذا النوع من الفصل والتكبر والعناد كانت عواقبه وخيمة على المستوى المعرفي والوعي البشري والممارسة الواقعية، ولا يزال هذا الوباء حاصل ليومنا هذا فمتى ستدرك البشرية أنها تتخبط في مأزق لابد من إيجاد حل للخروج منه، وهذا الحل لا يكون إلا بدمج بين التخصصات المختلفة، لأنه سيخلق وعيا متطورا وقويا ونبيها وعيا لا تخفى عليه المطبات والمنزلقات المعرفية حتى يتأتى له إجتنابها.

إن << التخصصات خصبة جدا حينما تنفتح، بالتالي هناك موضوعات مشتركة التخصصات، وأخرى ليست كذلك، وأكرر تتجلى أمام بصري موضوعات كبيرة مثل: ماهو الإنسان في هذا العالم؟ والتي تقتضي تكوينا جديدا متعدد التخصصات >>[1].

إذن تكون الإجابة عن سؤال كبير على شاكلة ماهو الإنسان في هذا العالم؟ كبيرة جدا ومعقدة هي الأخرى، ذلك أنه ليس من اليسير إعطاء معرفة بسيطة وسهلة وجاهزة ومن منهل معرفي أحادي أو ثنائي أو حتى ثلاثي فقط، ثم تقدم بكل أريحية على أنها الرد المناسب والكفؤ.

أبدا فالموضوع يقتضي بالضرورة إستحضار كل التخصصات المعروفة والموجودة وتفعيلها بشكل ملائم ثم جعلها تنفتح إلى الزاوية القصوى مع بعضها البعض، هذا الأمر سوف يضمن لنا الزخم والغنى في النتيجة.

وهو هذا الفعل سيكون بمثابة توجه جديد كلية غير معهود ولا مسبوق ومتعدد التخصص والتفرع يلملم الجميع في إطار حواري تقبلي، ولا يلغي أو يقصي أحد،بهذه الطريقة وفقط سنكون أكثر اريحية وثقة في عملية هندسة الإنسان المركب، أي في عملية تشكيل لبناته الولى، حتى يتأسس على قاعدة ثرية وكثيفة ومتنوعة من العلوم والمعارف التي تبصره بحقيقته والكون معا.

النظام والتوظيب حيث يذهب إلى أن حالة النظام والتوظيب في التعليم أفضل من حالة الفوضى والتشويش، فأنا في الظرف الأول مدرك تماما أن معارفي التي قدمتها قد وصلت بالكيفية اللازمة، بينما لم أضمن في الظرف الثاني حالة ذهنيات المتعلمين في خضم هذا الموضع المختل، كما يضيف شخصية جان جاك روسو خاصة ماجاء في كتاب إميل من مبادىء في التربية، وكذا دوستويفسكي في الأدب فمشاربه متعددة وثقافته الواسعة هي ما أدت إلى نضج مجموعة أفكاره المكونة فيما بعد للمعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، كطلب ملح من طرف هيئة اليونيسكو حتى تدعم وتنهض بالتربية العالمية إلى مكان أفضل.

(1) إدغار موران وجان ميشيل بلانكير: مصدر سابق.

في مكافحته لإرساء نموذج الإنسان المركب يجد صاحبه أن هناك رؤية إختزالية للإنسان والطبيعة تقوم على أساس الفصل الكلي بينهما أو ذوبان أحدهما في الآخر بحيث يصبحان شيئا واحدا، وبمعنى آخر<< إختزال الإنساني في الطبيعي أو الفصل بين الإنساني والطبيعي، وهما تمنعان من رؤية الوحدة والتداخل >>(1).

إن تقديم نظرة بهذه الكيفية تفرض وحدة وجودية وحلولية بين الإنسان والطبيعة بحيث يصيران واحدا، أو أخرى تقسم بقداسة الإنفصال الذي يلغي إمكانات الإقتراب والتواشج والعطاء، إنما هي نظرة تتم عن أزمة فعلية على مستويات عدة، المستوى الفكري والمعرفي والعقائدي والإبستيمولوجي النقدي...وغيرها، والسؤال الملح الذي يطرح ويفرض نفسه هو لما هذه المبالغة في الغلو أو الإنحياز إلى جهة أقصى الطرف إما إختزالا، أو فصلا؟ لما الخوف من إحتضان الكل تحت سقف الحوار والتفاهم والإنفتاح على البعض.

يوجد أمل جميل يطل في الأفق يعد بإحقاق هذه الرؤية وتعميمها ولو بعد حين، رؤية تقول للإنسان تعالى إلى حضن يضمن لك وجود كل معرفة أنت متوجه إليها أو الباحث عنها أو لم تعرفها، تعالى أنسيك بفكر معقد منفتح ومتفهم حيث لا تنسى فيه الخير والأفضل لنفسك ولغيرك ولعالمك الأرضي والكون الفسيح.

ما يمكن أن نفهمه إستخلاصا من كل ما تعرضنا إليه في هذا المبحث هو أن << رؤوسنا شبيهة بمزبلة كبيرة، ونحن في حاجة إلى الكثير من المساحين والشاحنات لتنظيفها وتطهيرها مما فيها من نفايات >>(2).

بمعنى أن جملة المعارف التي تعرضنا لها مصادفة أو بحثا في حياتنا وتحمل أخطاء وأوهاما- ونحن هنا لا نعمم كل المعارف- إنما وجب إعادة ترتيبها فيما يصلح منها للبقاء بعد المعالجة يكون جيدا، وما لايصلح علينا إزالته وإستبداله بالأفضل كلية.

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص27.
(2) المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى: مصر، مكتبة الشروق، البورصة الجديدة، قصر النيل، ط1، 1995، ص173.

كما أنه علينا مراعاة خصوصيات الإنسان، إذ يختلف من منطقة لأخرى ومن ثقافة لثانية، فحتى نهندس للإنسان المركب في إطار الرؤية التعقيدية، يتحتم علينا مراعاة مزايا تنوعه وثرائه الإثنولوجي والسوسيولوجي والأنثربولوجي... وغيرها، ما يجعل الوضع يتوضح جيدا عندما ندرك أنه << يختلف العقل المجتمعي باختلاف المجتمعات، فكل مجتمع يحمل عقله الخاص المتميز عن عقول المجتمعات الأخرى >>(1).

إذن الإنسان هو واقع تربية، ونتاج تربية، ولا يكون إلا بالتربية وأن تحقيق مشروع الدوغما/الوثوقية، واليقين، والبساطة، والفصل والإختزال والإقتراب من موجبات الحوار والتفاهم والتفتح على الآخرين، وعلى التأكيد بأن لا شيء ثابت ولا يقيني في هذا العالم، وأن كل موجود متغير وغير منتظم وغير عذري وخالد، هكذا فقط نؤسس لأفق الإنسانية الرحب وهو المبحث القادم بعد هذا.

رابعا/ كوكبة الإنسانية والعالم

<< مع الفلسفة المعاصرة إتخذ سؤال الغيرية إستشكالا مغايرا أخذ طابعا مركبا ضمن علاقات معقدة يتشابك فيها ماهو فردي وجماعي ووجداني وعقلي،نفسي وإجتماعي، إقتصادي وسياسي، وأيضا من خلال إعتبار هوية الإنسان هوية عالمية و كوكبية >>(2).

لاشك أن أي مشروع فكري لأي فيلسوف إنما أخرجه لكي يكون ذو تأثير كبير سواء على الصعيد المخصوص المحدود، أو الواسع الكوني الممدود ومشروع إدغار موران يصب في المنحى الثاني، فهو لم يكتسبه تنظيرا وبمحاولات تطبيقية حتى يؤثر به على الجغرافية الفرنسية أو القارة الأوروبية فحسب، بل جاء مترامیا يسع الإنسانية بمعارفها جمعاء.

في هذا المنحى سنصطدم بسؤال ضروري الطرح ألا وهو: بأي معنى يمكن فهم المشروع التعقيدي في الإطار الكوني الذي ينشده؟

ماهي القواعد اللازمة الحضور حتى يستوي الطرح ويجهز للتعولم؟

---

(1) علاء الدين الأعرجي: أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل، لندن، مطبوعات- إي-كتب-2005، ط5، ص197.

(2) داود خليفة: خطاب الغيرية، من الفكر الإختزالي المركب، مقال إلكتروني عن موقع http://www.hwamsh.net بتاريخ: 13/02/2019 على الساعة 12:35.

هل لهذا المسعى شرعية تسنده أم أنه مجرد توصيف لحالة وأمل بعيد عن معطيات الواقع؟ سنحاول في هذا المبحث الإجابة قدر الإمكان عن جملة هذه الإشكالات.

في البدء يجب أن أشير إلى قضية خاصة، وهي أنني في هذا العنصر بالذات أردت أن أركز بشكل كثيف على موضوع الفهم فيأخذ منه حصة الأسد إن لم تكن كلها، وهذا لإعتقادي أن الإنسانية لا يمكنها أن تكون/تعولم أخلاقيا وإجتماعيا وثقافيا ودينيا وتاريخيا... إلا من خلال حضور الفهم كقاعدة أساسية تبنى عليها عناصر البناء المختلفة.

ويمكن تخيل الموضوع بالمثال التالي: عندما يعقد المرء العزم على بناء بيت ما فإنه بلا شك سيفكر في الأول بتدبير شؤون القاعدة من حفر الأساس وصب وتحديد وصقل لها، ثم ما إن يتأكد من صلابتها ومتانتها حينذاك سيعول عليها في حمل ما تبقى من التصميم من أعمدة وجدران ثم سقف والكثير من التفاصيل وصولا إلى الديكور بأذواقه الجميلة المختلفة.

وإسقاطا على هذا النحو، أحصل من موضوع الفهم بعد إحقاقه قاعدة صحيحة وفسيحة يبنى بموجبها مشروع عولمة الإنسانية كفقه منفتح ومستقبل للآخر المختلف تحت سقف الأخوة والتشابه مع بعض، وكذا تحت مسلمة نحن البشر كلنا متشابهون في الشكل والخلقة مختلفون في المضمون والثقافة فلنتعايش في كوكبنا الأم الذي يجمعنا ولنتواصل ونتواشج مع بعض، وفي ذات الوقت فليحافظ كل منا على خصوصياته ومزاياه داخل هذا التلاقي والتلاحم.

* هذا هو المستقبل الآتي في دهر العولمة والتقدم والمنطق، وما يقابله من نزاعات في الإنتماء والهوية، حيث لا تلغي الهوية الشخصية الآخرين بل تعرف ذاتها بمقدار ما تعرفهم، وتبلور ذاتها بمقدار ما تفهمهم، الطريق اليوم إلى تأكيد الذات ليس الإنتماء الموروث المغلق الطائفي إلى دين دون سواه، بل هو بناء الذات إنطلاقا من الدين والمذهب والثقافة الموروثة بإتجاه الثقافة والدين كحياة بشكلها المنشود، وهذا الشكل الأخير لا يأتي من قراءة الذات فقط بل من فهم كل مطلق وخير في خبرات الآخرين، بحيث يحافظ دين المستقبل على الهوية ويلاقي بالمقدار ذاته الأول بالآخرين في قبلة السلام.
أنظر إلى: بولس يازجي، دور الأديان في مستقبل الحضارات أي دين وأي دور، متروبوليت حلب، إحتفالية حلب عاصمة للثقافة الإسلامية 2006، ص09.

1/ نحو إحقاق الفهم

يذهب إدغار موران إلى الإقرار بإنبجاس أشكال متعددة ومتنوعة من الفهم حاولت بكل ما أمكنت أن تشرح وتوضح مختلف المسائل الغامضة والمتشابكة بطريقة مريحة وسلسة، تجعل المعنى على ضوئها ينكشف بجلاء أكثر، ويكون في الوقت ذاته ملائم الكيفية لمختلف العقليات، وأنماط التفكير، مراعيا ما أمكن وبصورة تركيبية تفاعلية إيجابية التباينات الفكرية للشعوب على كافة المستويات الأنطولوجية، الإثنية، الثيولوجية، الآيديولوجية...إلخ.

ولكن في ذات الوقت يجد أنه بالموازاة مع تقدم عمليات الفهم يتقدم بصورة مرعبة وسريعة اللافهم، تغذيه تيارات ومشارب مختلفة، ينتفخ ويتضخم ويتقوى في كل وقت وحين ليقضي على ضده- الفهم بصورة بسيطة منظمة-، إختزالية وكاسحة وتذريرية، إنه <<بالتأكيد حصل ثمة تقدم بأشكال كبيرة ومتنوعة في مجال الفهم، لكن بالموازاة مع ذلك يبدو أن اللافهم لازال يعرف تقدما كبيرا >>(1).

واضح إذن أن اللافهم وباء مقنع يعيش مع عالم الفهم في صراع دائم، والأسوء أن الإنسان لا يعي مطلقا خطره الحقيقي، وهذا راجع إلى أنه مخفي تحت مسميات مسالمة وآمنة، لا يتفطن العقل الواعي بخطرها الحقيقي مادام قد تربى على مبادئ محددة تمجد كل ما هو منطقي وبسيط وواضح وبديهي ومعتاد وسهل.

والفهم منقسم إلى قطبين إثنين، كوكبي يربط بين مختلف العناصر المتباعدة، وقطب فردي يربط بين العلاقات القريبة، الأول يتجسد مثاله في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان بالمعنى الإتيقي الأنطولوجي في نقطتين متباعدتين جغرافيا وحضاريا... والثاني نجده في مختلف العلاقات التفاعلية بين أفراد الأسرة الواحدة.

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص87.

وللفهم كذلك مستويات، الفهم العقلي أو الموضوعي، وهو ما يتعلق بالتفسير، ونجده بصورة واضحة أكثر في المجال العلمي الدقيق الصارم، الذي يكون في غالب الوقت معتمدا على المنطق والعقلانية، ويحتكم إلى نظام التفسير بالأسباب الواقعية.

وهناك الفهم الإنساني النسبي الذاتي، وفيه نجد أن التفسير لا يكون كافيا، فيعمد فيه إلى الإجتهاد والإبداع والخيال والتحليل المجرد، وهو فضاء خصب تتفاعل فيه الآيديولوجيات بمختلف أشكالها، وتتواشج بطرائق ملونة ومرحة.

وبهذا يكون الفهم في معركته الدائمة والمتواصلة بحثا عن السيادة والعموم يتعرض لشتى أنواع المعيقات الإبستيمولوجية، لعل أبرزها هو اللافهم في مختلف أنماطه وتجلياته، وعلى كل المستويات والسياقات.

يقول موران:<< بإصلاح المعرفة نوفر لأنفسنا الإمكانيات لكشف مصادر العمى الذي تؤدي إليه روح الحرب لدى المراهقين، وكذلك الوقاية جزئيا من العمليات التي تؤدي إلى التعصب في أوساطهم، يجب أن يضاف إلى هذا كما أشرت (في دراسة المعارف السبع الضرورية لتربية التعليم لفهم الآخر، والتعليم لمواجهة اللايقيني>>[1].

والإنسان في محاولاته المضنية للوصول إلى كنف الفهم تعترضه جملة من المعيقات، التي تجعل الصورة تصل بطريقة مشوشة ومشوهة ومهمشة، وفي أحيان أخرى لاتصل بتاتا، وفي العموم فإن هذه المعيقات منقسمة إلى قسمين خارجية وداخلية، فأما الأولى فهي التي تكون بسبب كل ما هو خارج عن الذات كالزيف الإعلامي مثلا، ونقل معلومة معدلة ومغلوطة، ومن ثم إيصالها إلى المتلقي بهذه الشاكلة المسخة أو ان يكون هناك صخب أو ضجة أو فوضى خارجية كصوت السلاح أو المدافع في الخارج مما يعيق عملية الإلتقاط الممتاز للمعلومة من فهم المحاضر داخل المحاضرة عبر الأذن

(1) إدغار موران: التربية من أجل السلام لمقاومة روح الإرهاب، مصدر سابق.

وتخزينها بالطريقة الصحيحة مثلا، وأما الثانية- على الصعيد الداخلي- فنستشفها بجلاء في نزعة التمركز حول الذات والعرق والمجتمع، وبالتالي إقصاء الآخر المختلف(*).

وعليه فإن عدم فهم الذات ينجر عنه عدم فهم الغير، لأن الإنسان عندما يمارس مع ذاته خاصية إخفاء عيوبه عنها، وعدم توجيه النقد لها ومعاتبتها، وأن كل خطأ ترتكبه يتم إما تغطيته وإقناعها بعدم وجوده، وإما تجاهله وتهميشه وكأنه لم يوجد البتة، وفي كل الأحوال فإن هذا النمط من الزيف يشكل هالة سديمية كاذبة تمنع الذات من فهم ذاتها.

ثم ينتقل العجز والعرج والعوز إلى عدم المقدرة على فهم الآخر، وهنا تظهر المشكلات أسرابا فيشكل حينذاك ثقافة الكراهية واللاتسامح، فاللافهم نتيجته المؤكدة هي اللاتسامح مع ذواتنا أولا ومع الآخر المختلف ثانيا، وهذا ما يشير إليه بإلحاح في قوله: << عدم فهم الذات مصدر هام لعدم فهم الغير، فنحن نخفي عن ذواتنا عيوبنا ونقاط ضعفنا الشيء الذي يجعلنا غير متسامحين مع عيوب ونقاط ضعف الغير>>(1).

2/ أخلقة الفهم لتواصل إنساني أقوى

إن للفهم أخلاق من اللازم معرفتها والإحاطة بتفاصيلها منها ضرورة فهم عدم الفهم كخلق أساسي لفهم الفهم، لأن فهم النقيض بشكل جيد ومتوازن سيؤدي حتما إلى فهم المصطلح المنطلق منه.

فثقافة الإقصاء أو الإختزال لا تقدم للمعنى شيء، ولا تضيف للمعرفة أدنى تطور، ومنه يجب إحتواء الأضداد والمتناقضات في جهازنا الفكري، ويجب إستحضارها كلما دعت الحاجة إلى ذلك حتى نصل إلى كنهها المطلوب دون خوف وتردد، بل إن هذه العملية تقتضي المواجهة والشجاعة في عرض الأفكار المتضاربة والمتصارعة، وستكون

(*) لقد تحدث عن هذه النقطة بإسهاب في مؤلفة ثقافة أوروبا وبربريتها وفصل فيها مؤكدا أن أكبر عماء يمارسه الإنسان ضد نفسه، وفي حق الآخر هو تمجيده لذاته، وجعلها مركز كل شيء، وإقصاء كل الدوائر التي تتضمن ذاته وتحتويها، مسببا ما يعرف بالبربرية والعنجهية، وهو المأزق الذي وقعت فيه أوروبا عندما مجدت ذاتها وتعالت عن كل ثقافة غيرها، معتبرة نفسها الأفضل والأرقى والأقوى، بل هي الحضارة الفضلى والأعظم على الإطلاق وهو توجه متقوقع لا يخدم مسار كوكبة الإنسانية بأخلاقها أبدا.

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص90.

الغلبة في نهاية المطاف للذي غذي بشكل أفضل، وتمتع بإتساع أكبر في الأفق الإبستيمولوجي الإيجابي البناء وهذا لأن << أخلاق الفهم تتطلب منا عدم الفهم >>[1].

كما أن هناك جملة من الأشياء التي من شأنها أن تعزز الفهم وتنميه، منها التفكير الجيد، والذي يقصد منه أنه كلما كان الإنسان متخذا طريقة إيجابية ومنفتحة ومتقبلة للغير دون بتر ولا إستخفاف، فهو بهذا يكون في الفلك المطلوب، والمؤدي إلى النقلة الفضلى والتطور المرغوب، فالتفكير الجيد هو ذاك الذي يستوعب الفهم واللافهم بصداماتهما المتكررة والدائمة، هو ذاك الذي يصبر على مطارحات العمى العلمي، ويستطيع بعد إنتهاء تحدثها معالجتها بالكيفية الحكيمة الهادئة الهادفة، وينقيها من نقائصها، وأخيرا فإن التفكير الجيد هو الأساس القاعدي الذي به يتوصل إلى فهم متين ودقيق للتواصل واحتضان الإنسانية وتحاورها وإنفتاحها على بعضها.

ثم إن هناك معزز ثان هو الإستبطان(*)، ويقصد من وراءه المحاولة القصوى للولوج إلى عمق نفسية الآخر، وفهم باطنها وهذا لأن الطبيعة البشرية معقدة، وأن الجانب النفسي الكثيف هو الذي يتحكم في توجيه سلوكيات الإنسان ومنع أو إحقاق الفهم، فمن أراد أن يتوسل فحوى الفهم بكل حمولته من الآخر/الإنسانية قاطبة، فلابد من إستحضار هذا المبدأ وممارسته بالكيفية اللائقة معه.

كما نؤكد على أهمية الوعي بالطابع المركب للإنسان، حيث ان الكائن البشري غني ومتنوع، ويزخر بالتعقيد، ولا يمكن على الإطلاق حشره فقط في جانب احادي فهذا يعتبر إنتهاك لحقيقة وجوده، وخسف لقواه وقدراته، و أن هذا الوعي يكون من خلال تجسيد نقطتين إثنتين هما في غاية الحساسية، الأولى تكمن في الإنفتاح الذاتي على الغير، فمتى وعى الإنسان أنه لا يملك العالم وحده، وأن هناك من يشاركه فيه، ويتفاعل معه سلبا أم إيجابا تحرر وقتذاك من أغلال النرجسية والعنجهية والعجب، وانتقل إلى مرحلة فضفاضة مريحة، وتقبل قولة الغير المختلف ورحب بها تطابقت مع منطقه أم إختلفت.

(1) المصدر نفسه، ص93.

(*) الإستبطان هو منهج تابع لعلم النفس، من خلاله يقوم المعاج النفساني بالإستعانة بجملة من الأسئلة المنتقاة بعناية، وتوجيهها للراغب في العلاج/المريض، فتتيح له أن ينزل إلى باطنه، ويفهم جملة الأفكار التي يخفيها أو يكبتها، ومن ثم يفتح لها باب المخرج، لتتسلل إلى العالم البراني.

وأما الثانية التي فهي إدراج التسامح، بمعنى أن البشرية في تعاملاتها الدائمة والمختلفة مع بعضها البعض لابد من حصول صدامات ومشاحنات وحتى معارك وحروب بينها، وهذا ما أثبته الواقع والتاريخ، الأمر الذي ولد عداءات وأحقاد وكراهية بين بني البشر، وسيبقى بمرور الزمن اللافهم سائدا بينها، حتى وإن كانت المرامي التي تقررها وتنشدها أي الأطراف المتناحرة قديما طيبة وإنسانية، فالإرث الأسود يبقى عاجزا معيقا للفهم الصحيح، ومن هذا المنطلق تجب الدعوة إلى أولوية التسامح وغفران مافات حتى تتحقق كوكبية الفهم والأخلاق والثقافة المؤسسة لإنسانية متسامحة ومتلاحمة ومتحاورة، دون أن يكون أحد هؤلاء الثلاثة حكرا على جهة أو منطقة أو دولة(*) معينة.

فالأنثربولوجيا الإجتماعية والثقافية تبين وتؤكد بأن لكل شعب تاريخه وخصوصياته، ولا يجب أن يرشح أي أحد نفسه ليكون سيدا عليها ومعلما لها، عملي ثقافته ويصيبها تعسفا، بل وأن تتعلم الثقافات المعلمة هي أيضا من الآخر.

وفي هذا المسلك نجد<< إن الفهم هو في نفس الوقت وسيلة وغاية التواصل الإنساني، فلا يمكن أن يكون هناك تقدم في مجال العلاقات بين الأفراد والأمم والثقافات بدون فهم متبادل، ولفهم الأهمية الحيوية للفهم يجب إصلاح العقليات، الشيء الذي يستلزم بطريقة متناظرة إصلاح التربية >>(1).

يجب أن نعلم أن الفهم والفهم الجيد ضروري لتأسيس الفكر المركب، وفي ذات الوقت يكون الفكر المركب الذي ينشأ بعد حين ضروري لفهم جيد للمعرفة والمسارات والإنسانية والعالم والكون ككل.

إن الفكر المركب هو محاولة جسورة لا تدعي النهائية والمطلقية، إنما تبتغي الوصول إلى أقصى مراحلها وتجلياتها، إلى الفهم الصحيح، وتحقيقه وتعميمه على أوسع نطاق، ولهذا فإن فكرة التعقيد:<< كانت شائعة في المعجم الدارج أكثر من المعجم العلمي،

(*) في إشارة منه إلى الثقافة الأوروبية التي فرضت بمنطق القوة والقتل والدمار نفسها وفهمها وأخلاقها على كل الأراضي التي إحتلتها، فأضحت تابعة لها في كل شيء إلى يومنا هذا، في إعتقاد نرجسي منها بأنها الأفضل والأجدر لكي يتعلم منها، وأنها في غير الحاجة إلى أن تأخذ منهم أدنى شيء.

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص97.

كانت تحمل دائما بشكل ضمني نسبتها للفهم، وتحذيرا من التوضيح والتبسيط والإختزال السريع بشكل مفرط>>[1].

نفهم من هذا أن مصطلح التعقيد- وقد أشرنا إلى ذلك سابقا- كفكرة كان متواجدا على المستوى الدارج الشعبوي يستعمل في سياقات الفهم ومحاولة الوصول إلى الصحيح والمضبوط منه، مع الإحتراس من فخاخ البداهة والوضوح والبساطة والسهولة، لأنها مضامين براقة تبدو آمنة ومسالمة، ولكن في المآل الأخير هي نفس نوافذ اللافهم التي لطالما هابها الإنسان، أما التعقيد كممارسة فإنه لم يظهر ويصقل على المستوى العلمي والأكاديمي إلا مؤخرا.

وفي نفس السياق توجد فكرة الإنسجام والإنفتاح الإبستيمولوجي، متعددة ومختلفة، متباعدة حينا ومتقاربة أحيانا أخر، قادرة على مقاربة المعرفة البشرية بطريقة إحتوائية تقبلية إنفتاحية، وهو ما أسماه بميتازاويا نظر:<< إن الإبستيمولوجيا في حاجة إلى إيجاد وجهة نظر تكون قادرة على النظر إلى معرفتنا الخاصة كموضوع للمعرفة أي ميتازاويا نظر>>[2].

إن الموضوع يأخذنا بعنوة للحديث عن علاقة الفهم بالمعرفة، فنحن لا نستطيع أن نعرف دون فهم، ثم ماذا سوف يفهم البشر غير المعرفة، هذا وغيره من الأسئلة الكثير طرحها الفيلسوف اليوناني القديم سقراط:<< كيف ينبغي للمرء أن يحيا >>[3]، وللوهلة الأولى قد يظن القارئ أن السؤال المطروح عملي براغماتي منهجي، لكن الأمر سيتوضح وينجلي عندما أضاف سقراط << ما إستحقت الحياة أن نعيشها ما لم نتأملها جيدا>>[4].

هذه الرؤية تؤكد أن الإنسان في محاولاته الجسورة والدؤوبة لكي يعرف ويحصل المعرفة قدر المستطاع،إصطدم/يصدم بحاجز اللافهم، فليس كل من نعرفهم نفهمهم، فنحن نحاول ذلك، وقد نحصل منه الشيء الكثير وننجح، وقد لا يتأتى لنا الأمر ولو بالشيء

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص36.
(2) المصدر نفسه، ص36.
(3) مايكل كارنيدس: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ - الثقافات البشرية نشأتها وتنوعاتها، ترجمة شوقي جلال، القاهرة، عالم المعرفة 299،2001، ص19.
(4) مايكل كارنيدس: المرجع السابق: ص19.

الضئيل فنفشل، وبالتالي فالطرح القائل بأن الفهم ملازم للمعرفة طرح يجب إعادة النظر فيه، ففي هذا العالم الكثيف والمتشابك والمعقد لا يمكن أن تمنح درجة اليقين لأي مسألة، فكل شيء في حركة وتفاعل وتغير مستمر، ومن تراه ملازم للآخر لا يعني بتابا أنه متواشج معه، ومتصاف وإياه في المنطلق والمسعى.

ولحل هذا اللبس ترجح فكرة الجمع بين مفهومين خصمين للوصول إلى كنه الحقيقة الواحدة، فلكي نفهم مثلا حقيقة الحب في الوجود، يجب الجمع بين حقيقة المطلق (الله) وفكرة الشيطان، ونظرية الصراع الأبدي بينهما على المستوى الأنطولوجي والثيولوجي والميتافيزيقي، ومن ثم ستترائى لنا فكرة الحب بفهم جملة التفاعلات والعلائقيات الكامنة والثاوية وراء هذه الثنائية في معادلة طويلة ولكنها مجدية وفق المنطق التعقيدي:<< لفهم حقيقة واحدة ينبغي الجمع بين مفهومين خصمين، سيبدو بأن هناك صراع بينهما بينما في الواقع أنه لا يمكن فصلهما، وهما ضروريان لفهم حقيقة واحدة>>(1).

و في ذات الوقت يجب إدراك حجم المعادلة التي طرحها بليز باسكال حين قال:<<ضد حقيقة ما صحيحة ليس الخطأ، بل حقيقة أخرى مضادة >>(2)، أي أن معيار قوة الطرح والتأثير والبرهان هو الفيصل في ترجيح رؤية/نظرية معرفية ما عن أخرى.

وهو نفس التوجه الذي قال به نيلز بوهر(*) Niels Henrik David Bohr (1885-1962):<< ضد حقيقة مبتذلة خطأ أحمق أو سخيق، لكن ضد حقيقة عميقة هو دائما حقيقة ضعيفة أخرى>>(3).

بالعودة إلى المخطط الأول الذي إبتدأ منه الإنسان، نجد أن أسمى غاية للعلوم هي الوصول إلى نتيجة تساعد الإنسان/الإنسانية على الوحدة والترابط، تضيء سبيله، وتقدم

(1) جون فرانسوا دورتي: فلسفات عصرنا، ترجمة إبراهيم صحراوي، منشورات دار الإختلاف 2009، ط1، ص386.
(2) المرجع نفسه، ص386.
(*) نيلز بوهر: فيزيائي دانماركي أقام في العديد من الدول كالسويد وإنجلترا والولايات المتحدة، درس في كامبردج وتحصل على دكتوراه في الفلسفة، مجال عمله بالتحديد يكمن في الفيزياء، والكيمياء والفيزياء النووية والذرية، تحصل على مجموعة من الجوائز ابرزها جائزة نوبل في الفيزياء عام 1922، أهم أعماله نموذج بوهر عام 1913.
(3) جون فرانسوا دورتي: المرجع نفسه، ص386.

له الأفضل في إطار التناغم الكلي، لكن الذي حدث كان العكس تماما، إذ توسعت الهوة وتقوت النزعة الفردانية، وسيطر حب التمركز حول الذات وغيرها من السلبيات الكثير.

ولنخرج من هذا المبحث سنقول أن الفهم عند موران مبدأ وغاية قصوى اسمى ذات أولوية ملحة، إنه الخطوة الضامنة للسلام والهدوء في حياة البشرية، وهو الملاذ الأخير الذي به يحدث الإنسجام وتتناغم الإختلافات والمتناقضات.

الفهم طبيعة غائبة ربما تكون مخبؤة، ربما مهمشة، ربما مشوهة، والأسوء أن تكون مقتولة، إن دعوة إدغار موران دعوة صريحة، وصرخة مدوية لتحصيل الفهم وإحقاقه على السريع العاجل، فبالفهم الصحيح نكون وبه نعيش حالة الأتراكسيا، فلا مستقبل للبشرية في معانقة حلم الإنسانية المتناغمة إلا بتطبيق التعقيد الموصل إلى الفهم الوقور، والمؤدي أخيرا إلى عمق السلام.

وكمخرج من هذا، وبعد التعرض لأبرز وأهم النقاط التي أتى بها المشروع التعقيدي، نقول أنه مهما خضنا ومهما فصلنا ومهما تطرقنا من عرض وتحليل لجملة الأفكار المؤسسة لهذا المشروع نكون قد قصرنا، وذلك لأن هذه النظرية ثقيلة وشيقة ولم تكتمل بعد مادام صاحبها يضيف لها كل يوم شيء جديد وبالتالي لا يمكن ان نستوفيها حقها في بضع أوراق داخل مبحث صغير محدود، ولكن لأملي أن الأوراق السابقة والأخرى اللاحقة في هذه الرسالة سوف تساعد في تغطية النقائص الموجودة هنا،وستكشف عن بعض الخبايا التي لم يتعرض لها فيه، أقول نسبيا وفقط.

وبهذا يكون قد عمل على خلق وإنشاء نظرية حرة ومنفتحة محاربة لكل ماهو تبسيطي واختزالي، تبحث عن المعنى وتصوغه بكيفية تركيبية معقدة، حاملة في ذلك ما أمكن من الذخيرة العلمية المعرفية من شتى التخصصات، وهو بهذا التوجه أراد أن يقول أن الرؤية التعقيدية أو نظرية الفكر المركب طموح فكري معرفي يسعى لضم المركز والهامش من العلوم والمعارف دون إستثناء، بغية الوصول للمحطة بأقل الأضرار الممكنة، وبهيئة تقارب الكمال والإكتمال، بعيدا عن التسقيف والتحديد، مهندسة لإنسان مركب واعد يعي كل هذه الأبعاد ويحملها، متوجها نحو أفق الحضارة الإنسانية الراقي.

الفصل الرابع
المنطق الإبستيمولوجي لبراديغم التعقيد ومآلاته

أولا: الجهاز الإصطلاحي للمشروع التعقيدي

ثانيا: في المنهج المركب للرؤية التعقيدية

ثالثا: جدل الحداثة والتعقيد

رابعا: التطبيقات النقدية للتعقيد على الصعيد العربي والإسلامي ومآلاته

<< إن الإبستيمولوجيا التعقيدية جد متطورة، وهذا لتجاوزها حدود الإبستيمولوجيا الكلاسيكية ومتضمنة لها في الآن عينه >>[1].

يتفق معظم الدارسين والمفكرين في مسألة تعريف البحث العلمي بأنه << المحاولة الدقيقة الناقدة للتوصل إلى حلول المشكلات التي تؤرق البشرية وتحيدها >>[2].

إن أي رؤية أو مشروع فكري/علمي/معرفي، يستند في بناه وتمشيه إلى منطق خاص يدعمه ويحكمه، إنه العضد الذي يشدد عليه في الإختلاف والتميز عن باقي الرؤى الأخرى.

وعليه فإننا سنحاول في هذا الفصل الرابع أن نتعرض إلى مكونات هذا المنطق ومقوماته، سنبحث في أسباب وجوده، وغاياته المنشودة والمقصودة، ذلك من خلال التعرض كخطوة أولى إلى الجهاز الإصطلاحي الذي يؤسس ويهندس للمشروع ككل ويفرزه عن غيره كسمة خاصة به، لأنه الحمولة المفاهيمية التي تتعلق بهذا الإنتاج الجديد، وهي المسيرة له وفق مخطط خاص.

فإرتأيت بذلك أن أتعرض له تحت ضغط الضرورة وأبتدأ به، أما الأمر الثاني وهو في غاية الثقل واللزوم فالمنهج، وسنرى من خلاله أننا قد مهدنا له بطرائق مختلفة فيما مضى من عرض في الفصول والمباحث الفائتة، ولكن فيه سنغوص هذه المرة بشكل أعمق، حتى يتبين لنا وبجلاء معالمه وقبلها ماهيته، وآليات إشتغاله، أما المبحث الثالث فقد جعلته يتحدث عن جدل الحداثة والتعقيد باعتبار الحداثة وما جاءت به من أفكار ومشاريع وما خلفته على المستوى التطبيقي الواقعي بالتحديد أمر يدعو وبحتمية إلى الوقوف عنده لرؤية تأثيراتها على ظهور ونضج الفكر التعقيدي، وكذا ما ألحقه بها فيما بعد من تأثيرات.

(1) Edgar Morin : La Methode, la connaissance de la connaissance, op cit, p24.
(2) ديوبولد ب فان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفلو وآخرون، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 2008، ص93.

أما آخر عنصر- الرابع- في هذا الفصل هو سؤال المآلات، أي جعله يكشف كنظرة إستشرافية مستقبلية مصير المشروع التعقيدي بمنطقه الذي يحكمه، إذن هو سؤال المصير، ثم أدرجت بعض القراءات الناقدة له- باقتضاب- حتى نرى مدى تفاعل الأفكار الأخرى معه، وهل إستطاع النفاذ من الحرج والبتر، من هذا المنطلق يحق لنا التساؤل:

أي منطق يحكم الرؤية التعقيدية ويحددها؟ هل هو منطق جديد خاص لا قبل للرؤى التقليدية عليه أم أنه فكرة قديمة إستحدثت بلمح متجدد اللون؟ كيف أعد له موران ونظر؟ ماهي عدته وعتاده؟ ماهي مكاسبه ومنزلقاته؟.

كل هذا وأكثر سنحاول الإجابة عنه في هذا الركن/الفصل

أولا:الجهاز الإصطلاحي للمشروع التعقيدي

<< سبق لي أن أشرت في الجزأين الأوليين من كتاب المنهج إلى بعض الأدوات المفهومية التي يمكننا إستعمالها بناء عليه، ينبغي إستبدال منظومة الفصل/الإختزال/إضفاء البعد الأحادي، بمنظومة التمييز/الوصل التي تسمح بالتمييز من دون الفصل، وبالتجميع من دون المطابقة أو الإختزال>>(1).

لقد سبق وقلنا أن الجهاز المفاهيمي/الإصطلاحي، يعد من المحددات الضرورية لأي مشروع فلسفي، وهو يتطلب نوعا من الجدة والإختلاف والتميز والأصالة، وهذا راجع لكون الفلسفة في أعين الكثير من المفكرين والنقاد المعاصرين هي صناعة وإبداع للمفاهيم.

وقارئ النص المواراني ومتتبعه، توقفه دون أدنى شك جملة من الألفاظ والمصطلحات والتراكيب الجديدة، التي لم يعهد قراءتها في متون أخرى، وهي ما يمكن وصفه بلغة دولوز صناعة وإبداع للمفاهيم الإبستيمولوجية الخادمة لفكرة التعقيد بحق، وسنقتصر في هذا العنصر/البحث، على ذكر بعضها من باب الإشارة، والتدليل على أصالة الفيلسوف وتميز نصوصه، لأن الموضوع في الحقيقة يحتاج إلى كتاب أو قل ربما مجلدا ضخما حتى يسع كل مصطلحاته التي أنتجها ونحتها، وهذا إنطلاقا من الأصل

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل: مصدر سابق، ص18.

اللغوي اللاتيني للمفهوم والذي يعني << فعل الإحتواء >>[1]. مرورا بالتفاصيل، ولكن على العموم فإنني حاولت تقسيم هذه المفاهيم/المصطلحات إلى قسمين، الأول وهو الذي يظم تلك التي تنتمي إلى عالم توصيفاته للمعارف التقليدية، والثاني هو الخاص بمصطلحات الرؤية التعقيدية ومشروع الفكر المركب، فالتقسيم هنا إذن هو لغاية الترتيب والتنظيم لا غير، وليس له علاقة بأبعاد أخرى.

1/ الترسانة المفاهيمية التوصيفية لحالة الفكر الكلاسيكي

لقد ربط الفكر التبسيطي الإختزالي بمجموعة من التوصيفات التي تعبر عن حقيقته، وتعطيه حجمه ومكانته الأصليين، ومن هذه التوصيفات العقل الأعمى، العقل الإختزالي، منظومة البساطة، إبستيمولوجيا الفصل، نموذج البساطة وما أنتجته من حقول دلالية متشعبة ومتشابكة مثل خلق نزعة التمركز حول الإنسان، الحرية من أجل عولمة بديلة، البيروقراطية، الحقيقة العميقة والحقيقة المبتذلة، التقدم الأعمى، العقل الأعمى، وإننا نرى أنه لا << يمكن الإستغناء في تعريف المفهوم عن الأسماء الخاصة أو عما يكافئها من الدلالات والإشارات >>[2].

ومن بين الجمل المعبرة عن موقفه الناقد هذا<< إننا نحيا تحت سلطان مبادئ الفصل والإختزال والتجريد التي تشكل في مجموعها ما أسميه بمنظومة التبسيط >>[3].

نجد أنفسنا فعلا عاجزين عن الحكم على القدرة التفسيرية أو التعبيرية لهذه الرزم من المفاهيم والتراكيب << فلكل مفهوم سياقه ولا يمكن محاكمته في شكله الأصم هذا، فكل حكم له أو عليه ينبغي أن يستند على السياق والموضوع الذي طرح من خلاله، لكنه في

(1) كارل بوبر: منطق البحث العلمي، ترجمة محمد البغدادي، فرنسا، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007، ص99.

(2) Sous la direction l'andré Akoun et pierre Ansart Dictionnaire de sociologie, le robert /swil, 1999, p100.

(3) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص15.

المقابل، من الواضح أننا أمام إرادة حقيقية للإمساك المحكم بالتصورات، وقدرة كبيرة على نحت/الحدود الملائمة >>[1].

إن الذي سيأخذ الحظ الأوفر في هذا المبحث سيكون الجزء الثاني المتعلق بالمشروع ذاته من حيث النحت والإرساء.

2- الحمولة الدلالية للمفاهيم التعقيدية

إن الوضع هنا مختلف تماما، إنه كبير وكثير ومتشعب وشائك إذ أن موران قد تفرد ببضاعة معرفية جديدة، وبمفاهيم مختلفة لم تعرف النور قبلا.

إننا نجد في نهاية كل مؤلف من مؤلفاته جدولا أو قل جداولا مرصوصة لمختلف المصطلحات الواردة في متنه، والتي تحتم عليه أن يذكرها بالوضع والشرح والإفهام، وهي في غالبية الوقت مصطلحات/مفاهيم مركبة تجمع ماهو علمي مع ماهو ثقافي وإجتماعي ونفساني وبيئي...إلخ أي أنها نابعة من عمق ثقافته الدسمة، وإطلالاته المتعددة على مختلف التخصصات.

إذن سنأتي على ذكر مجموعة من المفاهيم التي ضمتها كتبه منها المفهوم المركز وهو الإبستيمولوجيا التعقيدية، وهاته سوف لن نتطرق إلى شرحها في هذا المقام، لأننا عرضناها سابقا وتعرضنا لها بالتحليل والتفصيل.

الإستقلالية النسبية: ويقصد منها أنه لا وجود لشيء جامد أو حي مستقل في حركته وأفعاله ومقدراته بصفة مطلقة وكاملة، بل إن هناك حدودا لقواه، تكون بفعل تدخل مؤثرات إما داخلية أو خارجية تمنع تحقيق الحرية الكاملة النهائية.

العلمعقلية: هو مصطلح مركب من كلمتي العلم والعقل، اراد به إيضاح فكرة أن إتحاد العقل بالعلوم المختلفة سيجعله يخضع لخصائصها وعواملها، وما يطرأ عليها سيطرأ عليه بالضرورة، وفي المقابل نجد<< أن وجهة النظر العلمعقلية يجب أن تأخذ بعين

(1) فارح مسرحي: النقد في كتابات، عبد الرحمان بوقاف، مجلة دراسات فلسفية، الجزائر، العدد 05، نوفمبر 2015، ص12.

الإعتبار إستقلالية الفضاء العقلي في علاقته التنظيمية التشاركية مع منظوماته البيئية الذهنية والثقافية >>[1].

مبدأ اللايقين: هو مفهوم تكرر كثيرا في هذا المبحث ربما من أولى صفحاته وصولا إلى هذه الكلمات، وأعتقد أنه فيها قد تم الكشف عن معناه وما قصد موران من وراء نحته، وهذا لأن<< مبدأ اللايقين ومبدأ التساؤل يشكلان كلاهما أوكسجين كل مسعى إلى المعرفة >>[2].

إنه مفهوم أساسي وضروري لقيام المعارف الصحيحة المعانقة لثقافة التعقيد، والمناهضة لشتى أشكال العمى التبسيطي الإختزالي الذي يقوم على الثبات والخلود واليقين القطعي والصحيح دائما ، وهذا الأمر يؤدي حتما إلى تشوه الصورة المنشودة والمقصودة وبالتالي إلى معرفة وهمية خاطئة.

التظيم التوليدي: وهو مصطلح مركب من مفهومين هما المبدأ التوليدي والمبدأ الظواهري، الأول متعلق بمستوى البراديغم المتعلق بإمكانات الخطاب في اللغة، والثاني متعلق بمستوى التركيب أي متعلق باللقطة الفعلية للملفوظ أو للخطاب، وباختصار فإن هذا المفهوم له مجاله الخاص، وهو عالم اللغة واللسانيات وتحديد الخطاب الذي عرف به مجموعة من الفلاسفة والعلماء على غرار نعوم تشومسكي، وفرديناند دي سوسير.

حساء الثقافة: تعبير مجازي جميل يفيد بأن الثقافة لتنمو وتستمر لابد من أن تتغذى على نوع ما، وهذا الغذاء قدره موران بأنه التحاور والحرارة، أي أن انعدام وجود حوار بين الأفراد والجماعات يعني انعدام وجود ثقافة حية متنقلة ومتفاعلة ويشترط في هذا الحوار الثقافي حضور الحرارة، وهو الأمر الذي يشكل تعقيدا ثقافيا كبيرا يطور العقل ويساهم في إستقلاله.

(1) إدغار موران: المنهج – الأفكار-، مصدر سابق، ص189.
(2) المصدر نفسه، ص359.

النوولوجيا: وهو علم العقل، وفيه تنتظم المعرفة في منظومات فكرية أي على شكل نظريات ومذاهب.

العصر الحديدي الكوكبي: هو مفهوم في منتهى الأصالة يعبر عن حالة العصر الراهن الذي تعيشه البشرية، إذ بعد أن كانت في السابق تعيش متفرقة عن بعضها البعض، في مناطق جد بعيدة، اليوم بفضل التقنية ووسائل التواصل أضحت متقاربة جدا، لكن ما يميز هذا العصر كذلك هو طغيان الآلات الحديدية على كوكب الأرض، إذ لا تخلو منطقة من مناطق العالم من وسائل النقل والمواصلات الحديدية وهذا ما جعل إدغار موران يتخذ هذه التسمية لهذا العصر.

منظومة التعقيد: هي منظومة مركبة صيغت في شكل نظرية مناهظة للمنظومة السائدة- منظومة البساطة- ومن خلالها << لا يجب أن نعتقد أن سؤال التعقيد يطرح فقط اليوم بسبب حصول تطورات علمية جديدة، يجب رؤية التعقيد حيث يبدو أنه غائب عموما، كما هو الحال مثلا في الحياة اليومية >>(1).

الإستقلال: إن هذا المصطلح/المقولة، من أعقد مصطلحات موران على الإطلاق وذلك لإرتباطها بشروط ثقافية وإجتماعية ومعرفية، وهذه الثقافة يجب أن تكون غنية ومتنوعة حتى تسمح لنا بالإختيار والتفكير بشكل مستقل، وإن هذا الإستقلال يكون من خلال تفاعل ثنائية الحرية والتبعية، حيث يشكلان خليط يتصرف فيه الوعي واللاوعي معا المشكلان للتعقيدات الإنسانية الهائلة.

الآلة غير العادية: وهو توصيف للكائنات البشرية من أفراد ومجتمعات وهذا لأنها في غالبية الوقت تقوم بأفعال لا يمكن التنبؤ بها، أي أنها خارجة عن إمكانية دراستها

---

* تجدر الإشارة هنا إلى أنه من الضروري أن يقوم الباحث بتوضيح المقصود من بعض المصطلحات والمفاهيم المستعملة في بحثه حتى لا يساء فهمها أو تفسيرها، فمصطلح التحصيل الأكاديمي مثلا له عدة دلالات ويساعد تعريف المصطلحات في وضع إطار مرجعي يستخدمه الباحث في التعامل مع مشكلة البحث، وقد يتبنى الباحث أحيانا تعريفا لبعض المصطلحات مستعينا بمرجع معين أو دراسة سابقة، وفي هذه الحالة يجب الإشارة إلى ذلك بطريقة واضحة...
أنظر إلى: ربحي مصطفى عليان وآخرون، مناهج وأساليب البحث العلمي، النظرية والتطبيق، عمان، دار صفاء، ط1، 2000، ص171.

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص59.

والتحكم بها، وفي نفس الوقت أثبت العلم الحديث- علم النفس خاصة- أن السلوكات البشرية يمكن التنبؤ بها، والتحكم فيها بصورة دقيقة جدا فنكون بهذا كائنات عصية عن الفهم يمكن التحكم فيها وإخضاعها تارة، وهي تنزلق وتكون عصية عن المراقبة والسيطرة طورا لأخرى أخرى.

هجرة المفاهيم: << إن المفاهيم تسافر، ومن الأفضل أن تسافر مع علمها أنها تسافر، من الأفضل ألا تسافر بشكل سري، من الأفضل أيضا أن تسافر دون أن يكشفها حراس الحدود >>(1).

إن مقصده من هذه المقولة واضح جدا، وهو أن الواقع المدرب بترسانة وأسلحة خاصة على محاربه كل صيغة أو مفهوم جديد مخالف لمنطقه، سيكون كحارس الحدود الذي يمنع الفرد/المواطن من عبورها، صحيح أن المفاهيم تهاجر ولا تبقى حبيسة مكان ميلادها، وإنها تسعى لاحتضان كل فرد منفتح ومريح يفهمها بعد أن ينصت لها جيدا.

الملائمة في المعرفة: صيغة/تركيب قصد بها/به أن المعارف المفيدة والجيدة التي تخدم البشر على المستوى الفردي الخاص الشخصي أو المستوى الجماعي التكتل العام، هي تلك المنتقاة بعناية فائقة والتي تبتعد كل البعد عن الثقافة التبسيطية الإختزالية المنغلقة، وتدعوا إلى أفق مركب رحب منفتح وحواري لا يستبعد أحد ويحتضن الكل المفيد بعد نزع شوائبه، وهذه المهمة الجميلة والنبيلة هي من ستقوم بها التربية، وتختار النوع المناسب والصحي والملائم من المعارف.

الشرط الإنساني: وقد تحدثت عنه في عنصر كوكبة الإنسانية والعالم، ونجده هنا بنفس المعنى من خلال مقولته:<< من المفروض أن تشمل التربية على تعليم أولي وكوني يختص بالشرط الإنساني، لقد دخل البشر تجربة العصر الكوكبي خصوصا وأن مغامرة

(1) إدغار موران: الفكر والمستقبل، المصدر السابق ، ص 116.

مشتركة توحد بينهم أينما كانوا، عليهم أن يتبادلوا الإعتراف بإنسانيتهم المشتركة كإطار موحد لهم >>[1].

الإنسان المركب: وهو الآخر تعرضت له في عنصر هندسة الإنسان المركب، ولكن لأهميته القصوى، أحببت أن أتناول مقولة لموران تقر<< بأننا كائنات طفولية وعصابية وهذيانية بقدر ما نحن كائنات عاقلة، وهذا ما يشكل النسيج الإنساني بإمتياز>>[2].

في قلب اللعبة المتناقضة للممكنات: في هذه الصيغة التركيبية يتحدث عن موضوع العولمة والعصر الكوكبي وكيف سيطرت الآلة/التقنية على الإنسان فعوض أن تكون خادمة له، ملكته واستعبدته وانقلبت الأدوار بالعكس، هذه الحالة المشكلة لوضعية أزمة حقيقية أصبح فيها المستحيل ممكنا، وظهرت التناقضات، وفرض اللايقين والإحتمال نفسيهما بحجم أكبر، فبات الوضع غير مفهوم وغير متوقع المآل، لكن سنبقى دائما متشبثين بالأمل مادام الفكر البشري هو المتصرف ولم يستنفذ طاقته بعد.

الإسلام: << لا يمكن إختزال الإسلام هو الآخر في رؤية أحادية، فلقد علمنا تاريخ الماضي بوضوح أن التسامح الديني كان يأتي من جانب الإسلام في حق المسيحيين وفي حق اليهود [...] ولقد أنجب لنا الإسلام أعظم حضارة عرفها العالم زمن الخلافة في بغداد>>[3]، أردت أن أبين مفهومه للإسلام لعدة أسباب منها إنتمائي لهذا الدين، وفضولي لأعرف ماذا يقول صاحب نظرية التعقيد عنه ، وكيف أسس وروج لهذه المسلكية العالمية.

الكون السري:<< فيما سبق أن كل كائن بشري، كما النقطة المميزة داخل كل يحمل الكون في داخله، ويمكننا القول أيضا أن كل فرد حتى الذي يحيا أكثر أشكال الحياة بساطة يشكل بحد ذاته كونا>>[4] ، وهي الفكرة الشبيهة بمبدأ الهولوغرام السابق.

(1) إدغار موران: تربية المستقبل، مصدر سابق، ص45.
(2) المصدر نفسه، ص55.
(3) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية؟ مصدر سابق، ص115.
(4) إدغار موران: المنهج إنسانية الإنسانية، الهوية البشرية، مصدر سابق، ص115.

الميثاق السريالي: وهوحالة غريبة الحدوث عجيبة العرض والممارسة وهي تحدث يوميا عندنا، وفيها يلتقي تصرفان مختلفان ببيئتين متناقضتين من طرف الشخص الواحد وفي وقت واحد كان يرافق أحضان الشوق لغائب لمدة طويلة ضرب مبرح على كتفه أو صفعة مؤلمة، وهو ما نسميه باختلاف المشاعر، وكذا نجده عند الأطفال كما عند صغار الحيوانات كالجراء مثلا حينما تشعر بنوع من الرضى والحميمية مع صاحبها تقوم بعضه بطريقة مؤلمة مسببة له جروح وكدمات، إذن فهو تصرف عنيف وعدواني في لحظة فرح وسلام ورضا، وبهذا يحضر التناقض في التصرف في نفس الوقت من ذات المصدر.

يجب أن أعيد وأكرر الملاحظة الأولى التي إنطلقت منها في بداية هذا المبحث، وهي أن إدراجي لهذه المفاهيم/المصطلحات بالتحديد في هذا العنصر، لا يعتبر أبدا فعلا من باب الحصر، بل هو على سبيل المثال فقط، وهذا لأن الترسانة المفاهيمية التي تقوى بها مشروعه، والتي تعد أحد الركائز الأساسية لمنطق الرؤية التعقيدية كبيرة وكثيرة ومترامية الأطراف.

ومن الشاق والمحرج أن نأتي عليها كلها في أوراق طوال هنا بل إني إرتأيت أخذ ما أمكن من المصطلحات الأكثر غموضا والأقل عرضا في مؤلفاته أحيانا، والتركيز في أحيان أخرى على تلك التي تكون ذات وزن وأهمية أكثر حتى أوازن في الموضوع ما أمكن. لنصل في النهاية إلى أن إدغار موران يطالعنا << في نصوصه بجملة من المصطلحات التي يمكن وصفها بالمصطلحات الإحتجاجية، والمنذرة بمصير مأزوم، كالإحتضار والموت والكارثة، والولادة، التحلل،المستقبل بما هو فناء، وهيمنة قوى التبليد والإستعباد والموت، وهذا ما يدفع بالعقل المتسائل إلى إفتحاص هذه الحزمة من المصطلحات والتنقيب عن المسوغات التي جعلت موران يقر بها الواقع والحدث >>(1).

(1) عبد الرزاق بلعقروز: مرجع سابق، ص318.

ثانيا/ في المنهج المعرفي للرؤية التعقيدية

<< يجب أن تكون معرفة الإنسان أكثر علمية، وأكثر فلسفية، وأخيرا أكثر شاعرية في الوقت نفسه مما هي عليه>>[1].

إن التعرض لموضوع المنهج في هذه الدراسة، وبالضبط في فصل المنطق الذي يحكم الرؤية التعقيدية له مبرراته ومسوغاته، ذلك << أن السير الصحيح والنظر المتوازن، والحكم العادل على الظواهر يستلزم المنهج المعين على ذلك ، وبغيره لا يقال إن المعرفة تحمل مقدرة على مطابقة الظواهر أو تفسرها بما يمكن في نهاية المطاف من التحكم فيها، وإستغلالها لصالح البشرية، درء لكل ما من شأنه الإفضاء إلى أوضاع التنازع والإهتلاك الوجودي الشامل >>[2].

ومن هذا المنطلق يكون السؤال الذي سوف يحاول مقاربة هذه المسألة- المنهج- بالكيفية الملائمة هو:

ماهو المنهج الجديد الذي قدمه موران كمقترح يدعي الأصالة والفاعلية؟ هل هو كذلك فعلا؟ بمعنى هل هذه التوصيفات السابقة متحققة فيه، أم أنه لا يعدو أن يكون فكرة سابقة لمسمى حديث؟ هل سيتمكن من مجابهة المناهج السائدة وإظهار فاعليته؟ وماهو التغير الذي سيحدثه على مستوى عالم المعرفة والإنسان والعالم؟

سنثابر بكل ما أمكن لتقديم إجابات ممكنة عن هذه الحزمة من الأسئلة.

1/ المنهج بين المفهمة والسياق

كثيرا ما يبرر المفكرين والفلاسفة إهتمامهم بموضوع المفهمة بالضرورة أي أن ضبط المفاهيم في الدراسات والمشاريع الفكرية حتمية لازمة حتى تتوضح الرؤى والنظريات، وأنه من غير الممكن تناول موضوع في غاية الضخامة والحجم بمستوى الفكر المركب وإبستيمولوجيا التعقيد ولا نتعرض فيه إلى ضبط للمفاهيم والتراكيب.

(1) إدغار موران: النهج إنسانية الإنسانية، مصدر سابق، ص24.
(2) حاج أوحمنة دواق: الإبستيمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي- قراءة في مشروع محمد أبو القاسم- حاج حمد، عمان، الأردن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2015، ص111.

إذ يقوم الفهم على قاعدة البيان والتوضيح حتى يحدث الإستيعاب ويكتمل المعنى.

وإن للمنهج تعريفات جمة، صاغها كل خبير وفق شروط وآليات خاصة تخدم مقام توجهه ومبناه، ولكن في العموم نجد أن هناك إتفاق نسبي حول جعل << المنهج أو المنهاج هو الطريق الواضح [...] والسلوك البين والسبيل المستقيم >>(1).

وإذا كان المنهج هو السبيل أو الطريق السوي، فواضح انه ذاك المؤدي إلى المآل الصحيح، أي صوب معرفة جيدة، ونحو رأي صائب، ونحو ممشى طيب، ومقصد معين، وإذا كان هكذا فواضح أنه لازم الحضور في وعي كل دراسة ومشروع وإشتغال.

لذلك نجد جميع الفلاسفة والمفكرين والعلماء، المشتغلين في الحقل العلمي والفلسفي/المعرفي، يتسلحون بهذا السلاح، حتى يضمن لهم سلامة البقاء في المسار الصحيح، فهو كالشمعة في الليل الحالك التي تضيء وتنير أماكن خطى صاحبها.

ومثل كل هؤلاء فعل إدغار موران، وتزود بمنهج خاص جاء به من بنات أفكاره، وقام بتفعيله على مستوى الواقع حتى يكون مفيدا وخادما للإنسان والمعرفة على حد سواء.

هذا المنهج يمكن أن نطلق عليه إسم المنهج التعقيدي أو المنهج المعقد، الذي يكون بمثابة القنديل الموجه للرؤية التعقيدية أو نظرية الفكر المركب، وهي في مرحلة النمو والنضج والمكافحة ضد العقبات المختلفة لأجل البقاء والسيادة.

ولأن المنهج هو<< مجموعة منظمة من العمليات تسعى لبلوغ هدف معين [...] والمنهجية مجموعة المناهج والتقنيات التي توجه إعداد البحث وترشيد الطريقة >>(2)، فإننا نلاحظ وبجلاء الفرق بين المفهومين، أي بين المنهج وبين المنهجية، والتي تعني هذه

---

* ورد في لسان العرب لإبن منظور في معنى المنهج: << منهج طريق، نهج بين واضح، وهو النهج [...] والجمع نهجات، ونهج نهوج: طرق نهجه، وسبيل منهج، كنهج ومنهج الطريق وضحه، والمنهاج كالمنهج [...] المنهاج الطريق الواضح، وإستنهج الطريق صار نهجا [...] ونهجت الطريق المستقيم، نهج الأمر أنهج: لغتان، إذا وضح >>.
أنظر إلى: جمال الدين محمد بن مكرم إبن منظور، لسان العرب، الجزء2، تحقيق عامر أحمد حيدر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003، ص447.

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء2، مرجع سابق، ص435.

(2) موريس أنجرس: منهجية البحث العلمي، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر، دار القصبة، 2004، ص98.

الأخيرة في عمومها مسلكية خاصة بالبحث العلمي الأكاديمي المضبوط والخاص، وهي تضم في فحواها مجموعة مناهج مختلفة تقوم بالتعرض إليها بالدراسة والبيان قصد تطبيقها على المستوى الواقعي.

إذن فالتفريق بينهما مهم لأنه يمنع الخلط بينهما لمن يظن أنهما واحد، وتبقى السمة المميزة للمنهج من خلال تعريفه الفائت أنه رهان له هدف يسعى بطموح شديد إلى الوصول إليه.

وكذلك المنهج المعقد، له طموح قوي بأن يعين الرؤية الأم التي أوجدته في الإقتراب من مرماها وهو محاولة تمثل التعقيد الذي يحيط بالعالم، من خلال إستعاب كل الممكنات المعرفية المتاحة.

لأن الوصول حسبه لا يتم بوجهة معينة أو إثنين أو ثلاث، بل يستلزم حضور الكل(*) المختلف والمتباعد في إطار الوحدة المتعددة، متعايش هذا الكل مع بعضه في إطار فضفاض بناء ومتراوح.

إذن فالمنهج المعرفي مزيج كثيف من تدخل أنماط المعرفة وكيفياتها، إنه متسلح بإيجابيات كل المناهج السائدة، والتي كانت من قبل ثم إختفت، كما أنه في ذات الوقت حذر من سلبياتها متجنبا لها قدر الإمكان لأنه تعلم من أخطائها وعثراتها، وإن هذه الفكرة هي الشبيهة إن لم نقل متطابقة مع فكرة المقاربة العبرمناهجية(**) الداعية بنفس النبرة إلى ذات الهدف.

(*) يقتضي كل حدث معرفي تظافرا في العمليات الطاقوية والكهربائية والكيميائية والفيزيولوجية والدماغية والوجودية والنفسية والثقافية واللغوية والمنطقية والفكرية والفردية والجمعية والشخصية التي تتواشج معا، المعرفة هي ظاهرة متعددة الأبعاد أي أنها بشكل متلازم فيزيائية وبيولوجية ودماغية وذهنية ونفسية وثقافية وإجتماعية في الآن نفسه.
أنظر إلى: إدغار موران، المنهج، معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص24.

(**) العبرمناهجية هي إحدى الطرق الموصلة إلى معرفة متساوقة مع تفتح العقل الإنساني، إنها نقطة للإنطلاق نحو تفكير قادر على تمثل القيم وإدراجها في المنظومة الفكرية للإنسان، ثم إبراز الفوارق ونقاط الإلتقاء، العبر مناهجية هي دراسة موضوع أو ظاهرة ما عبر إجراء تقاطعات بين العديد من المناهج لإغناء النتيجة، ثم تجاوزها للوصول إلى تحليل منهجي أساسي.
راجع: بسراب نيكولسكو، العبرمناهجية والثالث المشمول- تعددية معقدة ضمن وحدة مفتوحة- ترجمة مها أحمد، مقال على الموقع الإلكتروني: www.Maaber.org بتاريخ: 2017/09/11 على الساعة: 00:10

إنها توجه يؤمن بالوحدة والإختلاف والتعدد، ويدعو الجميع إلى تملك ثقافة جديدة يكون فيها الفكر أكثر إنتفاظا وسلاسة إنها مقاربة تدعوا المعرفة إلى التخلي عن عقلية التقوقع والإنطواء، والإنتقال إلى مرحلة التعايش السلمي الملائم في إطار التبادل البناء.

إن هذا الفعل سيمكن الإنسان من إمتلاك رصيد ذو خبرة معرفية متينة وأقرب إلى الصواب من تلك المتقطعة والمجزأة، وهي في ذات الوقت لا تدعي أن العلم المنهجي يتوقف عندها بل هي دفعة صلبة نحو بناء المستقبل لما هو أفضل.

<< لا تقترح العبرمانهجية برنامجا في البحث ولا مشروع مجتمع، لكنها تحاول تعريف طريق معين>>(1).

لأن برامج البحث أو مشاريع المجتمعات، إنما هو من إختصاص الرؤى والنظريات التي تقعد لهذه المسائل بالكيفيات اللازمة والصلبة، أما المنهج فدوره أن يكون الدليل على طرائق الممشى حتى الوصول، إنه يعبد الطريق للرؤية حتى تكبر وتتقوى.

إن المنهج التعقيدي يدعو إلى السلام وينبذ ثقافة الإحتقار التي تمجد فكرة أو منهجية أو حقلا... على حساب آخر، إن ذهنية التمييز الشرانية هذه لا تعطي للبشرية سوى حقن الآلام والمشاكل والهموم، إنها تبعث لها في كل مرة حالات مرضية خطيرة وأحيانا نادرة لا تجد لها الحلول.

إن الحل يكمن في الإتحاد والمسالمة بين المعارف وأن لا يخرج بعضها عن إرادة وقرار الكل، وأن التناغم والإنسجام هو الحكم الفيصل بينهما، وهو قبل ذلك المستقبل المرحب بها، إنه يعي جيدا خطورة ألا يكون المنهج ملائما لظهور/فهم نظرية لأن هناك رؤى قامت رغم بساطتها وسادت بفعل قوة منهجها، وفي المقابل هناك أخرى كانت قوية الطرح والتوجه، لكن المنهج خانها من ناحية إيضاح المسار، والتوجيه السليم في الوقت الصحيح.

(1) Nsonsissa Augeste. Trandisciplinarité et transvarsalité épistémo-logique chez Edgar Morin, paris edition l'harmattan 2010, p19.

لقد إتخذت العلوم المختلفة مناهج جمة كل بما يخدمها ويناسبها، فنجد على سبيل المثال العلوم الفيزيائية والكيميائية والطبيعية، إتخذت المنهج التجريبي سندا معولا عليه، وإعتنقت العلوم الصورية والرياضيات المنهج العقلي، وكذا علوم اللاهوت المنهج الديني التأملي، فالمنهج مناهج إذن، كل منها يحدد طبيعة المعرفة، وموضوع الدراسة المقصود بالتناول.

حيث نصطدم بالمنهج الوصفي والتحليلي، والنقدي، والتاريخي والمقارن، والجدلي... وغيرها الكثير جدا.

وهي كلها- التي ذكرناها والتي لم نذكر- تشترك في خاصية واحدة وهي أنها تدعي قدرتها لوحدها دون أدنى مساعدة خارجية من تمثل أعباء البحث الموكل إليها معالجته وبطريقة رائعة ومذهلة، وللأمانة سوف نذكر أن الأمور إذا تطورت ومشت حسب منطقنا نحو الأفضل فإن أحد المنهجين سيتحدان لمساعدة بعضهما بإكتفاء شديد، وفي هذا إنجاز عظيم.

والحال أنه << يمكن للموضوع الواحد أن يكون موضع تناول من جوانب مختلفة وغير متناقضة، وهذا ما يسمى بتعددية المناهج La Pluridisciplinarité، ثم هناك البينمناهجية L'interdisciplinarité التي تسمح بالإستفادة من طرائق إختصاص معين لتغذية إختصاص آخر>>[1].

فأما الأول، وهو تعددية المناهج فهو بلغة موران الكل الذي يحوي الأجزاء، أي أنه منهج واحد في ثناياه مناهج مختلفة ومثاله أن تعذر الأم من ضربها لولدها بطريقة مؤلمة مبرحة بسبب غضبها الشديد من الأب الذي لم يعاملها جيدا صبيحة اليوم مما ولد لها حالة نفسية مضطربة، وحالة شاعرية منهارة، كما أن حجم المصروف الموكل إليها مسؤولية كبيرة وتسييره على تفاصيل البيت قد نفذ، وهي حالة إقتصادية مريرة.

(1) بسراب نيكولسكو: مرجع سابق.

ضف إلى ذلك الحالة الصحية الطبية فهي تعاني من آلام الضرس مدة طويلة جدا، أما المجتمع الذي تنتمي إليه فلا يعطيها الحق مطلقا عند الفضفضة والكلام، ما أريد قوله والخلوص إليه أن محاولة فهم طبيعة ومسببات فعل الأم-ضرب- سيفرض بالضرورة تدخل مجموعة من الطرائق/الأساليب/المناهج لذلك، نفسيا، إجتماعيا، إقتصاديا،... وهي نفسها مناهج لتلك المسببات، بمعنى أن مسببات الفعل قد تولد عنها أو إنبثق منها المنهج المتبع للمعالجة، تماما كما نجد الترياق في السم.

إذن فالتحاور بين المناهج ضروري، لأنه منبثق من القاعدة الأم الداعي إليها، وهي التحاور بين المعارف والتخصصات المتباينة، وأن كل هذه المعارف ترجع عند تقسيمها إلى فرعين إثنين هما فرع الميتافيزيقيا والفيزيقا، أي المعارف التي تنتمي إلى كل ماهو مذهل وغيبي ولا مرئي ويتحدى العقل مع تلك التي تنتمي إلى عالم الجمادات والموسوعات، وكل ما هو عيني محسوس متأكد منه ثم إن حرصنا الدؤوب على جعل المعارف معقدة، متلاحمة ببعضها البعض، فإنه << يجب أن يكون تصورنا للذات معقدا، وأن يكون المرء ذاته تابعا، ومستقلا في الوقت نفسه، أن يكون فردا عابرا تائها ومحتارا، وفوضويا، بمعنى أن يشكل كل الأهمية وكل شيء بالنسبة إليه/إلى ذاته، وفي ذات المقام أن يدرك أن هذا التكتل لا شيء بالنسبة للكون الفسيح>>[1].

إذن فالذالت ينبغي لها أن تكون معقدة تماما كما المعرفة، لأن الذات إن فهمت نفسها بمنطق البساطة والإختزال والتجزيء، فإن كل ما يصدر عنها من أحكام وقرارات وإبداعات ستكون بالضرورة ملوثة بالعقد والإنحرافات.

إن الذات التي تراجع ذاتها وتقدس في الآن معا ذاتها والآخر والعالم دون أن تمركز أي طرف، وهي تقرأ عن كل المعارف عن إستثناء الكثير والقليل، قادرة على خلق منهج فكري صائب، يحمل هموم الكون المعرفية، وقادر على التحمل إلى أقصى درجة ضغط

* من الإدراك إلى الفكر الواعي، يربط التحاور المعرفي شتى العمليات التماثلية/المحاكاتية، والعمليات التحليلية/المنطقية هناك نوعان متداخلان من التعقل، أحدهما فهمي والآخر شرحي، وهما متعارضان ومتكاملان (البين-البانغ) وسنراهما يعملان في المنظومتين الفكريتين الكبيرتين، وينحدران من المصدر نفسه، ويتداخلان ويتعارضان ويتكاملان، وهما الفكر الرمزي/الأسطوري/السحري،والفكر التجريبي/المنطقي العقلي.
أنظر على إدغار موران: النهج معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص227.

(1) Edgar Morin, introduction à la pensée complexe, op cit p89.

القوى الخارجية الهدامة، والداخلية المسقطة، مشكلا هوية خاصة مليئة بالتفرد والإيجابية مستعدة للخلق والإبتكار << يسمح مبدأ الهوية أيضا ببلوغ نجاعة المناهج العلمية التي تتبعه، لهذا السبب يكون من الممكن التفكير في إعادة تقسيم الكوني إلى جزئي وخصوصي>>(1).

اعتقد أن فكرة المنهج التعقيدي جيء بها من فرضية أصل الإنسان جسدا وذاتا حيث << عرفنا اليوم أننا متأصلون في الكون الفيزيائي، وفي الفلك الحي، فنحن داخل الطبيعة وخارجها في نفس الوقت>>(2).

ومعنى هذا أن تعدد تأصلنا، الذي ينتمي إلى شيء مادي صغير معروف ومعتاد عليه هو هذا العالم الفيزيائي الذي به بيتنا وحينا ومدرستنا ومحل البقالة...إلخ، وإلى الكون الفلكي الهائل والعظيم الذي يحوي مليارات المجرات التي تشبه مجرتنا- درب التبانة- التي ننتمي إليها، فالأمر بقدر ما هو محمس ومذهل، بقدر ماهو مخيف ومرعب، وخاصة إذا ماطرح سؤال المصير.

وبالعودة إلى موضوع العبرمناهجية كمقاربة جديدة تهتم بالإجابة على السؤال التالي: هل توحيد المعارف أمر ممكن في ظل تعقيدات العالم المذهلة وتجزئة الأشياء وتشعب الإختصاصات؟ كيف نصل إلى شميلة synthéze معرفية تساعدنا على فهم الظواهر والأشياء التي قد تبدو متناقضة ومتضاربة؟ باعتبارها تعددية معقدة ضمن وحدة مفتوحة (3).

حزمة هذه الإستفهامات تصب في منحى دلالي واحد، وهو الإقرار بتأسيس وتفعيل المنهج التعقيدي الذي يحمل كل هذه الأوصاف، وللإشارة فإننا قد ذكرنا سابقا أن فيلسوف العلم غاستون باشلار كان قد أكد على ضرورة بناء منهج جديد متعدد التخصصات، أي أنه يقوم على مشارب وتوجهات علمية مختلفة، وهذا لأن العلم البشري يعيش حالة أزمة حقيقية، وهذه الأزمة المعقدة يستحيل أن تحل بمفتاح واحد بسيط، فالمنطق الواعي يتفطن

(1) Nsonissa Augeste: op cit p76.

(2) إدغار موران: النهج إنسانية البشرية، مصدر سابق، ص33.

(3) بسراب نيكولسكو: مرجع سابق.

بسهولة إلى أن المركب لا يمكن ان يتغلب عليه البسيط الذي يعد في حقيقة الأمر جزء منه.

لكن الفرق بين المنهجين، أي بين منهج باشلار المتعدد، ومنهج موران المعقد، هو ان الأول يختص فقط بمسائل العلم، بينما تطال يدا الثاني بالإضافة إلى ما نادى به الأول، المجال الأدبي والشعري والفني والسنمائي والأسطوري والثقافي، أي أن المنهج المعقد أكثر ثراءا وإتساعا وزخما من المنهج الباشلاري، ولذا فإن المنهج التعقيدي كوجه من أوج المقاربة<<ا العبرمناهجية Transidisciplinarité يجاوز الإختصاصات الضيقة والإنفتاح على التخصصات>>(1).

إن الجهل والعمى الذي أصاب المعرفة، وكذا إتباع مناهج منزوية بنفسها ومكتفية بذاتها عن غيرها، إن كانت مسببات ظهورها منظمة في مؤسسات عليا، وهذا الذي خلق لها الشرعية والحماية والقدرة على الهيمنة والمقاومة، << في الوقت الذي تنتج فيه وسائط التجهيل الأدنى، تنتج الجامعة التجهيل الأعلى، ذلك ان المنهجية المهيمنة تنتج ظلامية متفاقمة، مادام لم يعد هناك أي تجميع لعناصر المعرفة المنفصلة، ولا أي إمكانية لتخزينها وللتفكير فيها >>(2).

نعم إن المكان الذي من المفترض أن يؤسس لمعارف متحاورة، ولمناهج متواشجة، هو نفسه وبكل جهالة وسذاجة يقوم بمهمة الخصخصة والتقسيم والفصل والتجزيء فنجده يقطع رابط كلية العلوم الإنسانية عن كلية علوم المادة، وكذا يفصل بين محتويات العلوم الإقتصادية عن قسم الحقوق...إلخ والقائمة طويلة لا تنتهي، الأمر الذي ولد مناهج متصارعة ومتقاتلة بين هذه التخصصات، وبحكم العداوة التي تجمع بين الأولى ستورث بالضرورة لكي تحملها الثانية- المناهج-.

(1) إدغار موران: المنهج معرفة المعرفة، مصدر سابق، ص353.
(2) إدغار موران: الفكر والمستقبل، مصدر سابق، ص16.

فأضحى المنهج التجريبي الإمبريقي يحتقر المنهج الوصفي أو التحليلي أو التاريخي وكل ما تعلق بالمادة الفيزيائية يقصي ما تعلق بالعالم الميتافيزيقية فحدثت الفوضى اللاخلاقة وتأزمت المعرفة من ناحية الوضعية والظرف والمآل.

ولكي نكون منصفين فإننا نعترف بأن << مؤلفي كتب المنهجية عجزوا عن إيجاد متفق بخصوص لفظ مشترك لتحديد الإطار العملي لبناء المنهج>>(1)، ولكن في لحظة وعي وتثبت، سندرك أن ما قام بإظهاره موران بخصوص المنهج من توصيفات وركائز يجعله يستحوذ على الكثير من التقبل والإقتناع من طرف الآخر.

إذن فركائز المنهج المعقد هي نفسها ركائز نظرية التعقيد القائمة على اللايقين والحوار، والإنفتاح على الآخر/التخصصات، الإختلال/الإنتظام/التنظيم، الهولوغرام، وغيرها من المقولات الجوهرية المؤسسة لحقيقة التعقيد/أو نظرية الفكر المركب.

إن ما يمكن أن نصل إليه في ختام هذا المبحث/العنصر هو أن << التفكير الصحيح مثل السير في الطريق تماما، إذ أن رجلا أعرجا يسير ببطء على طريق مبلط ومستقيم، وعداء يختار طريقا وعرا ومنحرفا ومليئا بالصخور، فمهما ركض سريعا فسيصل ذلك الأعرج إلى الهدف أسرع منه [...] وعلى هذا الأساس فإن أول مهمة للباحث هو إنتخاب أفضل منهج>>(2).

وإن أفضل منهج يراه موران مناسبا لدراسة شتى المعارف هو المنهج التعقيدي الذي يقر بأحقية الجميع في الفاعلية والمشاركة في صناعة الحدث أو الظاهرة أو المشروع الجديد، إنه يرافق كل مستوى حتى وإن كان بسيطا يستمع إليه ويأخذ منه، وهو بهذا منهج ذو أسلوب حضاري بعيد عن مظاهر النرجسية والهمجية والبربرية، إنه منهج مسالم ومتآخ لا يعلو فيه صوت على الآخر، و به نفهم الدرس الفلسفي إلى الدرس الوجودي، وبه نعي معنى الإنسان والعالم وماعداهما من الحيثيات.

(1) Marce Gorden Petry. François guid , l'alaboration d'un projet de boeck université, presses de l'université de laval 3eme edition, 2000, p51.

(2) علي شريعتي: منهج التعرف على الإسلام، ترجمة عادل كاظم، بيروت، دار الأمير، ط1، 2006، ص ص9.8.

ثالثا/ جدل الحداثة والعتقيد

<< إذا كان لدينا مذهب قائم على نموذج ميكانيكي أو حتمي فالأمر يعتبر هنا أنه متأهب لخدمة عالم معقلن وليس عالم عقلاني>>(1).

أردت في هذا المبحث/العنصر الثالث أن أتعرض لموضوع جدل الحداثة والتعقيد، لاعتقادي أن العقل التعقيدي قد واجه الكثير من الأزمات، وعانى الأمرين مع مقولات العقل الحداثي، وحمولته الدلالية/المعرفية المختلفة.

نحن نعلم جيدا أن الفكر المعقد جاءنا ناقدا لجملة الأخطاء والأوهام التي جاءت بها الحداثة، وبهذا المعنى نشأ جدل فكري إبستيمولوجي كبير بينهما حول مسألة السيادة والهيمنة والأحقية بالبقاء، وبالطبع فإنه ليس من الهين مطلقا أن يترك القديم السائد مكانه للجديد بسهولة، كل هذه التفاصيل وأكثر سنتعرض لها في هذا الجزء من الرسالة، بعد أن نطرح سؤال يخص هذا الموضوع وهو:

كيف طرق الفكر التعقيدي باب نظيره الحداثي وحاوره؟ ماهي جملة الإنتقادات التي وجهها إليه، وكيف عالج أمراضه بعد تشريحها؟ ماهو موقف العقل المركب النهائي من هذه الإبستيمولوجيا- إبستيمولوجيا الحداثة-؟ هل نجح فعلا بعد كل هذا الجدال القائم بينهما من إفهامه بضرورة الطرح وتقبله أم أنه لا يزال ليومنا هذا يكابد عناء المحاولة والتكرار؟ ماهي صورته النهائية عند سواده كبراديغم مهيمن على المعرفة والعلم؟.

1/ محطات ظهور الحداثة مفهوميا ومعرفيا

نجد على الصعيد اللغوي مصطلح الحداثة قد تناول بكثرة من طرف معاجم وقواميس وموسوعات جمة، كل منها تحاول مقاربته وفق سياق ظهوره، والحقل أو المجال الذي يختص فيه الشارح أو الفقهية، فالحداثة في اللغة ليست تماما كالحداثة في الفلسفة وإن كان هناك مايقاربها ويجمعهما، وهما كذلك مختلفين عن الحداثة في الفن وهلم جرا.

(1) Edgar Morin : les septe savoires necessaires à l’education du futur, op cit p 7.

فنجدها مثلا عند أندري لالاند: << يطلق لفظ حديث على كل ماهو ينتمي إلى الزمن الحاضر، وقد إستعملت بهدف التمييز بين الماضي الروماني والوثني، والحاضر المسيحي الذي لم يكن قد مضى زمن طويل على الإعتراف به رسميا، وقد إزداد إستعمال لفظ حديث في ما بعد للدلالة على الإنفتاح والحرية الفكرية...>>(1).

نفهم من هذا الضبط أن معنى حداثة يرجع إلى معنى كلمة حديث التي هي عكس القديم أو العتيق، فهو إذن شيء جديد لا قبل للبشرية بمزاياه وتفاصيله، وقد ذكر موضوع الماضي الروماني الوثني والحاضر المسيحي ليدلل على الفترات الفاصلة بين هذين التاريخين، من حيث أن العالم الغربي وخصوصا في العهد الروماني عاش مرحلتين حاسمتين في حياته، سادت الأولى وتقادمت، ثم جرى تحديث بأن دخلت المسيحية كدين يدعوا إلى الفهم والإعتناق، في نفس الدولة/الإمبراطورية وبنفس الرقعة الجغرافية، ضد الفكر الوثني الموروث حتى عند اليونان/ الإغريق القدامى.

إذن فهناك حداثة عاشتها هذه المنطقة الحضارة، ألغت قديما كان سائدا بحمولته الثقيلة، أما في اللغة الفرنسية فإننا نجدها تعود إلى لفظ Modernité العائد إلى الجذر Mode بمعنى. << الصفة والشكل، أو ما يبتديء به الشيء، فاللفظ بالعربية يرتبط بما له أكثر من دلالة عما يقع أنه يحدث، ويتثبت بواقعيته وراهنيته>>(2).

وهنا نجد أن الجذر مختلف تماما عن نظيره في اللغة العربية، إذ شتان بين حديث و Mode، مما يجعلنا نفهم أن اللفظ وإن تشارك مع بعضه في المدلول والمعنى، لكن يبقى الإختلاف قائما وبينا بين الجذور اللغوية.

والدليل على ذلك هو ما أدرجه أدونيس حولها بقوله أنها:<< قول ما لم يعرفه موروثنا، أو هي قول المجهول من جهة، وقبول اللانهائية المعرفة من جهة ثانية>>(3).

(1) أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت، باريس، دار عويدات، ط2، 2001، ص822.
(2) مطاع صفدي: نقد العقل الغربي- الحداثة وما بعدها-، بيروت، لبنان، مركز الإنماء القومي، 1990، ص223.
(3) أدونيس: الثابت والمتحول ج1، بيروت، دار العودة، ط7، 1994، ص19.

إذن هي إنتاج جديد للخلف لم يسمع السلف به قبلا، وهو مختلف وغريب تماما عما كان سائدا، وفي العادة فإن هذه التوصيفات عندما تحضر داخل مجتمع من المجتمعات، أو أمة من الأمم، فإنه سيحضر الرفض والإستهجان والإنطواء والإنزواء، لكن إذا ما إستمرت تمظهرات الحداثة هذه بالضغط عليه/عليها، فإنها مع الوقت وبفعل التكرار سوف تستسلم وتخضع لمنطقها وهيمنتها.

وهذه حالة جل البراديغمات الجديدة حين تزور محل معين، وكيف تتقبل بعد مدة مخصصة.

إذن القبول بالحداثة هو قبول بلانهائية المعرفة عند أدونيس أي أنها دائما صانعة ولادة،وفي كل مرة يوجد الجديد العصري.

كل ما تعرضنا له لحد الآن كان على مستوى الدلالة المفاهيمية أما عند الرجوع إلى المستوى التاريخي فنراها تعد <<غربية التصور والتحقق لفعلها صفة الشمول بدءا من أبسط المنتوجات حتى سمات الحساسية، فإن الغرب لم يتوقف منذ اللحظات الأولى يحاكمها ويبدلها >>[1].

إن صاحب هذه المقولة أراد القول أن الملكية الفعلية والحصرية للحداثة مفهوما ومدلولا ومبتغا هي للعالم الغربي، ذلك أنه هو الذي أوجدها ووزعها على مستوى مجالات المعرفة وتخصصات العلم المختلفة، وهو المستفيد الأكبر من ثمارها، وفي ذات الوقت هو المكابد الأكبر لويلاتها وسلبياتها، بوصفها منتوج ذو حدين.

الحداثة غربية لأنها إنتشرت كثيرا في الجانب الإقتصادي وروجت لثقافة إستهلاكية جديدة ومواد إستهلاكية هائلة عصرية، وهي كذلك سياسة أتت بأنظمة وتعديلات سياسية حديثة لم تكن معهودة قبلا، إنها في كل زاوية لكن الأهم من كل هذا أن الحداثة غربية لأنها وفقط المسيطرة على الجانب الفكري، والمولدة له، فهي من إختارت له عيشة ونمط

(1) محمد بنيس: حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، لبنان، المركز الثقافي العربي، ط2، 1998، ص109.

تفكيره، وبعد أن حددها ونحت مقولاتها، بعد أن نصبها حاكما شرعيا ينبؤ بتحضر الإنسان وتطوره.

إن الوقائع الإجتماعية والتاريخية وحتى المعرفية تبين وبجلاء كيف أن العقل الغربي قد عايش فترات خاصة مختلفة وثرية، مدته بتجارب هامة مذهلة، لكن الفترة الحديثة والتي يحددها الغالبية ببداية إختراع وظهور الطابعة إلى غاية موت هيجل عام 1900 هي الفترة الأكثر سرعة وإنتشارا للتطور في الصناعات والحرف والحروب والطب، وحتى الفكر، هذه التقلبات ضغطت كثيرا لكي تخرج مزايا جديدة تلائم ملامح العصر، وتتماشى والترف الجديد والعقلية السائدة.

أما البعض الآخر فيذهب إلى أنه<< في الوقت الذي برز فيه مفهوم الحداثة، الذي بدأ بالتداول حوالي 1850 على يد كل من جيراردي نيرفال Denerval، وشارل بودلير Boudelair، حيث نظر للحداثة بإعتبارها تكثيف لمجموعة من الدلالات العائمة، سواء كانت فلسفية وجمالية أو سياسية، وأصبحت تعني تلك الإرادة الإستفزازية المتمثلة في حب العصر والإحتفال به >>(1).

معنى هذا أن هناك صناعة جديدة للمفاهيم جاءت بها الحداثة إلى العالم وفرضتها بمنطق الضرورة، فأضحى من اللازم الإطلاع عليها ومعرفتها حتى يتسنى لك فهم ما يدور حولك من أحداث ووقائع، وعليه فهي تحمل نزعة جديدة وخطيرة ممجدة للحظة والعصر، ممجدة لتلك الذات التي تعيش ذلك العصر، إنها تجعلها المركز، وتجعل من يحتضن تفاصيلها في المركز، والباقي هامشا.

إن هذا من أهم خصائصها كما ذكرنا سابقا، أي خاصية الإنفصال عن كل ماهو قديم ومعانقة كل وجه جديد ومجهول ومغر، وهو الرأي الذي ذهب إليه فرانسوا شاتولي حينما

(1) نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، هابرماس نموذجا، دار إفريقيا الشرق، ط2، 1998، ص109.

قال:<< إذا كانت هناك حداثة فإنها لا يمكن أن تتحدد إلا كانفصال عن القديم، في حين أن القدامة هي مفهوم شديد الغموض، يستعصي على الإستخدام >>(1).

الحداثة شيء سهل الفهم إذا ما عدت فقط إلى لفظها، لكن الإشكال كله كامن في موضوع القدامة، بمعنى العتاقة إذ هي ما يؤرق الفكر، وتجده يبحث عن محاصرة معناها، وهذا راجع إلى شساعة التاريخ زمنا ومعرفة وجغرافية، بالإضافة إلى الإختلاف والزخم الذي تعيشه الأنثربولوجيا البشرية تجعل من موضوع القدامة شيئا محددا، ويستوجب الكشف عن غموضه، حتى يوظف بالطريقة اللائقة.

إن أكثر من دعم وعزز موضوع الحداثة تاريخيا وفكريا هو الفيلسوف الفرنسي رونيي ديكارت، حينما قال بأهمية العقل ومركزيته، وبفعله هذا مركز الإنسان/الذات البشرية، ووضعها مركز الوجود،وهو سيد الطبيعة ومالكها.

إن<< الفكر الفلسفي في المناخ الكلاسيكي الغربي قد أسس حداثته بمحاولة إعادة الإعتبار للعقل [...] وعلى هذا فالعقل مفتاح الحقيقة والأسطورة المخبوءة، وبالعقل يستطيع المرء أن يسيطر على ما تخفيه الأسطورة >>(2).

إن في الأمر تحد واضح وصريح لقوة العقل وقدرته على مقاومة كل مكافح، وكشف كل مسبور، وفهم كل لغة، حتى وإن كانت لا تنتمي إلى العالم المرئي المحسوس، بل حتى تلك التي لا يعترف أصلا بوجودها كقوة السحر والأسطورة والخرافة، أي ذلك العالم الميتافيزيقي الساحر العجيب الذي يخفي عن الأبصار الشيء الكبير.

لقد راهن فلاسفة الحداثة ومفكروها على نجاعة وفاعلية هذه الملكة كثيرا، وقالوا بثباتها وسيادتها الدائمة والخالدة على الأرض إذ لا جوهر أقوى وأعمق وأمتن من جوهر العقل المميز للإنسان، ضف إلى ذلك أن << ثمرة إنتصار الحداثة هي تحرير الروح وإستقلالية الذات البشرية، وتقابل الإنسان مع نفسه كذات واعية سيدة مريدة وفعالة>>(3).

(1) فرانسوا شاتلي: الحداثة في الفلسفة، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد6، 1989، ص9.
(2) فتحي التريكي و رشيدة التريكي: فلسفة الحداثة، بيروت، لبنان، مركز الإنماء القومي، 1992، ص69.
(3) علي حرب: الماهية والعلاقة، بيروت، لبنان، المركز الثقافي الغربي، ط1، 1998، ص214.

إذن التركيز على موضوع الحرية والتحرر واجب في هذا المقام لأن الوعي الناضج والمتأهب الذي بنى ذاتا خالدة متمركزة ومسيطرة على الطبيعة والكون سوف لن يتأتى له فعل أدنى شيء صائب أم خاطيء- ونحن نركز على الصائب- ما لم يكن مالكا لحريته، متحررا من شتى القيود المعهودة والمعروفة، فالحرية هي الراعي الفعلي للحالة البشرية وهي المحددة للكيفية التي ستكون عليها حاضرا ومستقبلا، ولذا كانت حرية الذات مقولة هامة وأساسية من مقولات الحداثة الغربية.

ويطالعنا تاريخ الفلسفة الغربية أنه منذ ديكارت قد أضحت:<< تحليل للوعي ولملكاته وقواه، فوعي الإنسان لذاته أساس كل فكر [...] وإنطلاقا من الوعي وحده نستطيع أن نحدد ما يجب أن نعتبره موجودا حقا، عندئذ تتطابق الحقيقة مع التمثلات اليقينية، ويومئذ نجد الأنا التي تشكل تمثلاتها وقد أصبحت مناط كل ماهو موجود >>(1).

نحن نتذكر عند قرائتنا لهذه المقولة الكوجيتو الديكارتي القائم على فكرة الوعي بالأنا، فإن كنت واعيا وأنا أفكر بكل وعي، فهذا يعني أنني موجود، أي أنه وضع معيار الوجود، ودليل حضوره وفاعلية الفكر الحر، وأن اللاوعي بذلك لا يقيم للإنسان وزنا، لأن كل ذات بشرية لا واعية هي ذات غير موجودة ولا معنى لها، ومثال ذلك الطفل الصغير، المجنون، النائم، الشخص المريض-الزهايمير- وغيرها الكثير من النماذج التي تبين فاقدي الوجود حسب المعطى الديكارتي.

2/ بين الحداثة والتعقيد-المقام والمآل

ذكرنا سابقا أن المنطق التعقيدي جاء كرد فعل ضد الهجمات الشرسة التي شنتها ولا تزال تشنها المعرفة التبسيطية على المعرفة ككل، أي أنه جاء بالدرجة الأولى مكافحا ضد الفساد السائد بالنقد والتنقيب والكشف، ثم معمرا مستوطنا بالتشييد والبناء والصلاح.

نحن الآن بصدد شهود قيام صرح جديد مختلف تماما، له ترسانته المفاهيمية وحمولته الإبستيمولوجية، وعتاده النقدي، وآلياته في الدفاع عن نفسه وتقوية حدوده

(1) عثمان أمين: ديكارت، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969، ص28.

وأوضاعه، لقد ناهض العقل التركيبي شتى الجواهر الحداثية التي تقومه وتؤكده منها مقولة العقلانية(*)، الفكرة البسيطة البديهية الواضحة، فكرة الفصل والإختزال، الحرية المطلقة، فكرة مركزية الذات، ومطلقية الوعي البشري، تمجيد المنهج الحتمي الميكانيكي الآلي، والمنهج الإستقرائي... وغيرها من المقولات.

كنا قد أشرنا من قبل في الأساس العقلي عن موضوع العقلنة والعقلانية ودلالتيهما، وكيفية الفصل بينها، بإعتبار أن الأولى- عقلنة- ممثلة وبإمتاز للتيار الحداثي بفقهه ورموزه وأدواته، وطموحاته وركائزه، ذلك أنها تحمل صفة اليقين والرضى والوثوقية، إنها على علم صلب وصحيح أن نسقها هو الأفضل، وأن معارفها هي الأجود، وهي تقول هذا لأنها دائما تعتقد أن معيار النظام والتسلسل والتناسق المنطقي ليس هو الناظم دائما.

إن العقلنة تظن نفسها عقلانية إلى حد كبير وبعيد، إنها تمركز نفسها على الأشياء وتتحكم فيها وتفسرها وتحللها طبقا لمنطقها، السائد وكذا لطابعها الخاص لقد أعطت الشرعية لنفسها بأن تتدخل في شؤون الآخرين وتعلق عليهم، وتنقدهم، بينما هي صدت الأبواب على نفسها بحيث لا يتجرأ أي أحد على الإقتراب منها أو التعرض لها، ظنا منها أنها هيبة مشروعة، لكن الحقيقة التي يعلمها الكل أنه تصرف دوغماتي منغلق بائس لا مبرر له ولا تفسير إلا الخوف من الآخر.

نعم إنها تستند إلى العقل وإلى الحرية وإلى مبدأ اليقين والثبات والصحة لذلك فهي لا تعتقد مطلقا بوجود يوم قادم سوف تتلاشى فيه ويحل محلها طرح جديد.

أما العقلانية الممثلة للفكر التعقيدي فهي عكسها تماما، وذلك راجع إلى الأخلاق التي تحقق فوقها وتعول عليها في مسعاها، ذلك أن العقلانية الحميدة هي تلك المنفتحة على الآخر والمتحاورة وإياه في إطار بناء، وهي المتسامحة مع أخطاء المعارف والأفكار

(*) إن العقلانية الحقة مفتوحة بالطبيعة، هي حوار مع الواقع الذي يقاومها، تقوم هذه العقلانية بحركة دؤوبة وغير متوقفة بين الإلحاح المنطقي والإلحاح التجريبي، إنها ثمرة سجال حجامي للأفكار، وليست خصوصية منظومة أفكار، إن الإتجاه العقلاني الذي يجهل الكائنات الذاتية الإنفعالية في الحياة هو إتجاه لا عقلاني، يجب أن تعترف العقلانية بما هو إنفعالي، يتعلق بالحب والتوبة، العقلانية الحقة هي التي تعرف حدودا للمنطق، للحتمية، لما هو ميكانيكي، إنها العقلانية التي تعرف أن الذهن الإنساني لا يكون مشتملا لمعرفة ما يحمله الواقع من أسرار.
أنظر إلى: سعيد عبد الفتاح، نقد العقل العلمي الحداثي عند إدغار موران، مقال على الموقع إلكتروني:
WWW.revieus-Univ.ouargla.dz على الساعة: 11:20 بتاريخ: 25/12/2018

الماضية المتجاوزة لها بوصفها- الخطأ والوهم- ضرورة واقعية لا مهرب منها ولذلك وجب إجتنابها أو تجاوزها.

العقلانية الحقة هي طرح مفيد متعدد الإنتماءات والملامح، إنها تستقبل جميع العقول هادئة بناءة لطيفة، وهي في الوقت ذاته ذكية وناقدة وغيورة على الفكر من الخطأ والوهم والمنزلقات، إنها متعددة الألوان، لكن الأكيد أنها مدركة جيدا أنها نموذج مريح لوقت قصير، لأن السيادة الدائمة في المعرفة ممنوعة وغير موجودة ويجب أن تترك الكرسي لغيرها من المطارحات الجديدة.

إذن فمهمة العقلانية المعقدة جسورة ذلك أنه عليها<< تجاوز منطق الهوية الإستنتاجي بصورة تقريبية نسبية داخل منهج الفكر، لأن العقلانية تستعمل مبادئ الفكر الكلاسيكي ومنطقه، وهو أمر يتجاوزه الفكر التعقيدي تجاوزا غير إقصائي، إنما إحتضاني للمفيد فيه وتجاوز لسلبياته، إن العقلانية المعقدة حامية للفكر من المنطق التقليدي وتتعداه في نفس الوقت لأنه يشوه الفكر نفسه >>(1) .

إن التعرف على كنه العقلنة(*) والعقلانية سيكسبنا الفهم الصحيح إيزاء منطق الحداثة والمنطق التعقيدي الذي يعد ملمحا من ملامح الفكر المابعد حداثي(**).

ومصطلح ما بعد الحداثة الذي طوره الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ليوتار وهو أحد فلاسفة مدرسة فرانكفورت النقدية الشهيرة، حتى يتجاوز به ما أطلق عليه إسم السرديات الكبرى، وكان ذلك عام (1924-1998) والسرديات الكبرى هذه هي عبارة عن أنساق فكرية مغلقة وشاملة تحصر داخلها الدين والفلسفة والآيديولوجيا والجمال والمنطق...

---

(1) Edgar Morin : la methode b, ethique, suil, paris, 2004, p 38.

(*) للعقلنة والعقلانية نفس المنهل، لكن العقلنة تختزل الكون في إطار واحد مجرد تراه جد واقعي، في حين تقوم العقلانية بالتحاور مع اللايقينيات غير القابلة للتنبؤ.

Voire: Edgar Morin, science avec conscience, op cit, p 213.

(**) إن مفهوم مابعد الحداثة فلسفيا وجد بفعل<< نقد العقل، وهو رد فعل ضد التغيرات الطارئة على المجتمع، الأمر الذي ولد إنفجار عظيم للملامح والتوجهات الفردية في الحياة لتجاوز كل ماهو كوني ومعمم على غرار الأخلاق والوعي المتحرر>>.

Voire : Ascel honneth : les limites de liberalisme de lethique au etats aujourd'hui in rue. Discartes paris 5-6 nouvembre edition albir michel
. 1992. p 145.

كما يمكن إضافة فكرة العقل الإنساني من حيث وضعه تحت مجهر المسائلة حول سؤال التقدم الخطي بمسار واحد منظم ومستقيم للمعرفة، وكذا فكرة تقدم العقل الإنساني التي تعد أشهر مقولات الحداثة التي طرحها فلاسفة الأنوار أمثال كانط وروسو وهولز... بالإضافة إلى الحديث عن موضوع الكونية في الفكر المابعد حداثي بطريقة رائعة ومنفتحة ومختلفة جدا عن التي كانت في الفكر الحداثي.

حيث أن مصطلح الحداثة الكونية نسبي متغير لا يقيني، وكل الإحتمالات واردة فيه عكس الكوني الحداثي الذي يعني المنتهي والمآل الأخير، ونهاية العالم والتاريخ.

إن هذه الأفكار التي نحن بصدد تحليلها قد نشأت بفعل قيام<< براديغم التبسيط الذي يتمتع في الوقت نفسه بمبدأ التعميم، مبدأ الإختزال، مبدأ الفصل، وهو البراديغم الذي يوجه المعقولية الخاصة بالمعرفة العلمية الكلاسيكية >>(1).

وبهذه الكيفية سوف نجد أن الحداثة لا تقدم عملا موفقا خال من الأخطاء والعثرات << ومع ذلك فيجب التمسك بها والدفاع عنها، ينبغي أن نتخذ موقفا من الحداثة، وندافع عنها في مجموعها راضيين بما تنطوي عليه من نقائض لا يكون في إستطاعتنا تقديرها بالضبط >>(2).

إنها مبادئ الفكر المركب التي تقوم على الأخذ بالمفيد من الطرف الخاطئ أي أننا لا يمكن أن ننتقد الحداثة فنستبعد كل عنصر من عناصرها، بل بالعكس علينا كأول خطوة أن نعترف بتلك الأخطاء، ونعلنها أمام الملأ بأنها أخطاء حتى لا يكررها أحد، وهو إسقاط لفكرة مالك بن نبي الذي قال علينا إخراج الأفكار المريضة من الظلام إلى النور حتى تيبس وتتوقف عن فعلها المشين داخل ذواتنا من نخر ووسوسة وعلل.

(1) Edgar Morin: science avec consience, op cit. P 306.

(2) رولان بارت: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام عبد العالي، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط3، 1993، ص 94.

ثم نقوم باستبعاد تلك المطبات واحتضان ما تبقى منها لأنه مثلما أفاد يوما ما البشرية في أمورها وشؤونها وكان نافعا ونراه لا يزال يقدم النفع فإنه من الضروري أن يبقى ويدمج في الفكر الجديد حتى تستمر فاعلية عطاءه، ويدوم نفعه وجميله.

<< إن كل منطق يقصي الغموض، ويجتث اللايقين، ويطرد التناقض هو منطق غير مكتمل>>(1).

وهي نفس الفكرة التي نجدها في موضع آخر بأن<< آلية الفكر التبسيطي عند إقصائه زخم المتناقضات تكون من خلال تقطيع الواقع إلى شذرات بسيطة ثم يعزلها>>(2).

إنه لا يكل من نقد العقل التقليدي ونبش مطباته ومساوءه حتى بحذر الناس، إنه يذكر في كل مرة بأن العقل الحداثي قد وقع في فخ الدوغما وهو لم ينتبه إلى المأزق إلى الآن، وأنه لو بقي على حاله هذه فسوف تتأزم الأمور وتتفاقم إلى وضع وحد خطير وذا عائدات سلبية ضخمة على الحياة البشرية.

ومنه علينا أن تستوعب فكرة أن هذا المشروع التعقيدي المناهض للحداثة في أشكالها الناقصة، والمشجع لها والمرحب بتفاصيلها الخادمة هو مشروع يقول أنه من المستحيل إلغاء الحداثة داخل المشروع المابعد حداثي، لأنه جاء حاضنا للأول مصفا ومنق له، ثم مظيفة إلى التيار الثاني الجديد، الذي يحمل أفكار وآمال مركبة متحاورة ومنفتحة متعايشة في إطار السلام بين المختلفات.

فهو أسلوب جديد ومريح ولا يظنن أحد أنه خلط أو لعب على الأوراق فما أسهل أن تمسك العصا من وسطاها ثم تقول أنا منصف لا بالعكس، فموران ليس وسطيا في المسائل بل يحتضن المعرفة داخل رحم الأخرى ويفعلها دون أن يقدر أحد على إقصائها.

إن مفهوم التعقيد إستعمل بغية << إستيعاب التناقضات المندرجة داخل النظام العلمي ما بعد الحداثي>>(1).

(1) Edgar morin, la methode 6, ethique, op cit, p 238.
(2) Edgar morin, la methode 2, la vie de la vie, paris. Suil, 2004, p 387.

والتعقيد حتى ولو بقينا معه لساعات وأيام، سوف لن ننتهي من المعاني والدلالات الكثيرة التي أسندها له إدغار موران، تختلف كل واحدة منها بحسب طبيعة الحاجة والظرف والسياق، فهو بالتالي ليس مفهوم جامدا وجافا وجاهزا صالح كالنموذج الأزياني لكل زمان ومكان، بل بالعكس له في كل مرة ملمحه ومسوغاته ورده، وهو بهاته الكيفية لا يتخلى بالمطلق على مبادئه وأسسه، ولكن يبدل جلده البراني كلما دعت الضرورة لذلك.

ولأن << أهم شروط البديل أن يكون منهجيا مستوعبا ومتجاوزا>>(2) ، ونحن نرى أن هذين الشرطين متحققين في الرؤية التعقيدية كبديل للرؤية التقليدية التبسيطية الفصلية، من حيث كون المنهج مستوعبا للقضية، صامدا في الدفاع عنها متيقنا قبل هذا وتلك في قاعدته، متوافقا وبشدة مع نظريته، وكنا قد تحدثنا سابقا عن موضوع المنهج، وكيف أنه ينبغي أن يكون متميزا عن المناهج الأخرى السائدة في الطرح والمظمون والقوة، متطابقا مع نظريته الأم التي أوجدته من ناحية المنطلق والمآل.

إذن يكون بهذا المنهج التعقيدي مستوعبا لخطورة لعبة الحداثة التي لعبتها مع جملة المعارف الإنسانية وأزمتها بطريقة غير مسبوقة، ومتجاوزا لها من حيث طرده لعناصر المنقصة والمتاعب فيها، وتحسينها بصب محاليل التعقيد الإيجابي المعدل لرؤية العالم أفضل.

يرى العديد من المفكرين والنقاد أننا حاليا << لا نعيش كلية في وضع ما بعد حداثي من الإنفصال الكامل بين النظام والفاعل، ولكننا نعيش على الأقل في مجتمع ما بعد صناعي>>(3).

وهذه للدلالة على أن الإختلاط بين براثن الحداثة، ومقومات ما بعد الحداثة قائم بشدة لدرجة لا يمكن فيها الفصل مطلقا،لذلك فإن أفضل بديل يمكن أن يقدم في هذا السياق هو أن نقسم هذا الوضع بالمجتمع ما بعد صناعي، كناية على المجتمع الصناعي الذي ساد في

(1) hassan abd elhamid : les paradigmes postmodernes et la demarche pluraliste dans la recherche juridique in methodologie du pluralisme juridique edition karthala 2012, p 138.

(2) أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثالثة، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة ج2، لندن، المكتب الدولي للبحوث والدراسات، ط2، 1996، ص 35.

(3) آلات تورين: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، مصر، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص24.

الفترة الحديثة، حيث ظهرت المصانع والآلات والتقنيات، فكانت الصناعة أكثر شيء غالب عليها، محققة بذلك ثورة هائلة وطفرة ووثبة طويلة جدا في عالم التطور.

وللإشارة فإن << العقل التعميمي الكلياني الأداتي بالتعاون مع الرأسمالية والتقنية طغى كلية على الفكر النقدي المتحرر>>(1).

فأضحى بذلك مشمعا مأمورا، مخدرا كلية، وأنه حتى لو حاول أن ينتقد وضعا ما فإنه سيواجه صعوبة كبيرة بفعل التأثير الكبير والخطير للقوة الرأسمالية التي وكما ذكرنا سابقا تشكل أحد محركات المركبة الفضائية الأرض الأربعة، وعلى هذا الأساس فإن مبادئ الرأسمالية القائمة على الربح والكسب ذات أهمية قصوى في حياة الإنسان المعاصر ولا يمكن مطلقا أن يتخلى عنها أو يعيش بدونها.

لقد جعلت التقنية الإنسان يعيش حالة إغتراب حقيقية وهو داخل عائلته وأسرته، لقد سيطرت على عقله بطريقة كاملة فأمسى هو الخادم لها بدل أن يحدث العكس، فتشيء الجميع ومات دفء الروح وحنين المشاعر والعواطف.

وإنه ليعجبني – سأصارحكم- قول مارجريت روز حول الحداثة بأنها <<حالة من فقدان المركزية ومن التشعب،نساق فيها من مكان لآخر، عبر سلسلة متصلة من السطوح العاكسة كالمرايا المتقابلة تجذبنا صرخة الدالة المجنون >>(2) ، إنها تلمح إلى أن كل شيء طارئ وإستثنائي – حديث- لابد من أن يفقد مركزية القديم السائد ببريقه وحيوته وقوته الجديدة وأسلوبه اللامعهود في الإقناع، فتكون بذلك له الأفضلية في السيادة.

أما هابرماس فلا نجده يقول بأنها حالة فقدان المركزية بقدر ماأنها حالة<< وعي عصر ما يحدد نفسه بعلاقاته بما في العصور القديمة، ويفهم ذاته كنتيجة إنتقال من القديم إلى الحديث >>(3).

(1) Horkhoimer et adorno, la dialiqutique de la raisn, edition gallimard 1983, p18.

(2) مارجريت روز: مابعد الحداثة، ترجمة أحمد الشامي، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1994، ص14.

(3) يورغن هابرماس: الحداثة مشروع لم يكتمل بعد، ترجمة بسام بركة، بيروت، مجلة الفكر العربي المعاصر،العدد 39، مركز النماء القومي، 1986، ص42.

لقد كانت مبادئ الحداثة تسعى إلى توفير الخير الكثير والرفاه الجزيل للإنسان، بحيث يعيش حياة فارهة لا ينقصه فيها شيء، يتمتع بكافة الحقوق والواجبات، ويكون سيدا في أسرته ووطنه وعالمه والكون ككل، أي أنه لا يوجد أحد عاقل يتنكر هذه النقاط السياسية ويصفها بتوصيفات سيئة لا تليق بها.

لكن الذي حدث هو كما أعتقد أن الأمور خرجت قليلا عن السيطرة الأمر الذي أحدث الكثير من المشاكل، بحيث تسربت إلى السطح معان ومقولات خاصة أثرت في الحياة الإنسانية، وطالتها بالأذى والفساد، ثم إلى العلم والمعرفة، فأضحى الإنسان فيها محتارا تائها غريبا يناشد حلمه المسطر فلا يجده.

ومن بين التفاسير للوضع ذاك هو أن << الإنسان لا يمكن رده إلى قانون عام، ولا يمكن فهم كل جوانبه، ولا تفسيره تفسيرا كاملا، ولا يمكن رصده بطريقة نمطية إختزالية، بل لا بد أن يظل باب الإجتهاد مفتوحا بالنسبة إليه، إن عالم الإنسان عالم مركب محفوف بالأسرار، أما عالم الطبيعة (الأشياء والمادة فهو عالم أحادي بسيط إذا ما قيس بعالم الإنسان)>>[1].

تعرضنا لهذه النقطة حتى نبين أن العقل العلمي الحداثي حينما قرر تعميم النزعة الحتمية والآلية على الظواهر الجامدة والحية وتطبيق المنهج التجريبي عليها، فلكي يعبر عن قوة ونجاح ثقافة الإختزال المبنية على إختزال المتعدد في الواحد وصب القوانين التي صلحت على الآخر لأنها بالضرورة ستصلح على المقابل وهذا خطأ جسيم وعويص حسب المنطق التعقيدي المسنود إلى المبدأ الحواري الهولوغرامي.

ولذا من الواجب خلق ثقافة يكون فيها الدين كونيا وللإنسانية جمعاء تلك الإنسانية المختلفة والمتلاحمة في آن معا، باعتبار أننا << نؤمن لا بإنسانية واحدة يمكن رصدها كما

(1) عبد الوهاب المسيري: العلمانية والحداثة والعولمة، دمشق، دار الفكر، ط1، 2009، ص25.

ترصد الظواهر وإنما بإنسانية مشتركة، تستند إلى طاقة إنسانية كامنة في كل البشر، تولد منها أشكال حضارية متنوعة تفصل الإنسان عن الطبيعة، وتميز أمة عن أخرى...>>[1].

لقد ضم هذا المبحث قراءة نقدية من طرف إبستيمولوجيا التعقيد للعقل الحداثي/الحداثة، ببعض ما يحمله من مقولات ذات منقصة، أو قل مشبوهة وذات أزمة ، بالإضافة إلى طرح البديل المعول عليه في حل هذه الأزمة بالطريقة السلمية المريحة.

والغاية من هذا النموذج المركب هو إبداع هوية إنسانية تقوم على منطق الكثرة والتعدد، من خلال إرتباط الفرد بمجتمعه وبثقافته، ومن ثم إحساسه بالإنتماء الإنساني الكوني، وهو لن يحصل هذا الشعور إلا من خلال تفعيل مبدأ الإنفتاح على الآخر،الإنسان/العالم، متجاوزا الذات المهيمنة المتمركزة الضيقة، صوب أفق أفسح وأرحب تتلاقح فيه كل المستويات والأبعاد.

رابعا: التطبيقات النقدية على الصعيد العربي و الإسلامي ومآلاته

لأننا قلنا منذ البدء أن التعقيد نظرية تحمل الطابع الكوني، فهي لم تأتي لكي تعالج قضايا العالم الأوروبي أو الغربي فحسب، بل تعدت ذلك لتشمل مشكلات العالم بأسره وعلى هذا الأساس نجد أن أفكار إدغار موران تتجول وبمنتهى الشفافية والطلاقة في العالم العربي والإسلامي.

نحن هنا نتحدث عن أكثر القضايا وضوحا وتأزما وراهنية، والتي يتخبط فيها الحال العربي، وهي مسألة الحراك الشعبي،أو كما يسمى الربيع العربي أو الثورات العربية.

وهو واقع جديد وخاص عاشته بعض الدول العربية على غرار مصر،وتونس، وسوريا، اليمن داعية إلى التحرر من الطغاة التي تحكمها، وإقامة دولة مدنية ديمقراطية تقف على مبادئ العدل والقانون، وهذه السمات غائبة بشكل شبه تام على الساحة الممارستية الفعلية لأوطاننا العربية.

(1) عبد الوهاب المسيري: فقه التحيز، المقدمة، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1995، ص110.

ثم إن زيادة الضغط على الشعوب وإثقال كاهلها بالضرائب وارتفاع في تكاليف المعيشة الذي يقابله مستوى متدن في الرواتب والأجور شكل ضائقة حقيقية ولدت الإنفجار المدوي لهذه الشعوب وترجم في شكل إضرابات ومظاهرات منددة ورافضة للوضع السائد، لكن للأسف لم تسر الأمور كما هو مخطط لها رغم جمالية الموقف، ورقاء الكلمة، ونبل المطلب وشرعية الهدف، وهذا بتدخل أطراف خارجية وبتواطؤ مع جهات داخلية، أجهضت هذه الثورات، فبقيت بذلك الغاية معلقة وغير محققة.

وإدغار موران كما ذكرنا ذو الفكر العالمي والطابع الكوكبي الكوني له قولته في هذا المنحى، وله ردوده وتعابيره كمثقف ، ومتابع ومتفاعل مع أخبار الراهن .

لقد ثمن كثيرا الخرجات السياسية التي قام بها الشباب العربي الواعي في شكل إضرابات وإنتفاضات ومظاهرات، تجلت في كيفيات وتمظهرات شتى، دعت كلها إلى تحقيق الضرورة الأكثر ثقلا ولزوما في الحضور والتفعيل هي الحرية.

الحرية مطلب منشود من قبل هذه الشعوب المحرومة حتى من أدنى شروط الحياة، فالقيام إذن بهذه الثورات لم يكن لأجل المناشدة بإحقاق الترف في الحياة، أو البذخ في المعيشة، إنه قائم للمطالبة وبكل قوة وشرعية بضروريات الحياة التي لا بد منها.

وهذه القيامة الجميلة والرائعة التي رسمها هؤلاء الشباب في مخيلة العالم ككل كان موران من أشد معجبيها، وذلك لاحتفاظها بالطابع السلمي الهادئ والواعي، وكذا بالرزانة العقلية، والجرأة في المواجهة والطرح والتعبير عن الأفكار بمنتهى المرونة و الجدية ، إنها صورة جديدة للعالم، الذي كان يعتقد يوما أن العرب هم شعوب همجية بربرية ولا تحضى بأدنى نسبة من التحضر والثقافة والمدنية في التعامل مع المواقف والأزمات.

* إن الربيع العربي خصوصا في تونس ومصر حركة سلمية شديدة الأهمية، لكن ما أفرزته حاليا من خلال السياق الإنتخابي يعتبر إيجابيا وسلبيا في نفس الوقت، إن أغلب أحزاب اليسار عانت من إضطهاد الأنظمة الديكتاتورية مما أفقدها غالبا التواصل مع الشعب، الإسلاميون حافظو على هذا التواصل، وهذا ماجعل الناس يصوتون لصالحهم، وهذا لا ينقص من أهمية الحدث.
أنظر إلى: إدغار موران: الربيع العربي يقظة ستخصب المستقبل لكن لا أعرف أكيف، مقال إلكتروني على الموقع: htpps://www.oujdacity-net.cdn على الساعة: 17:15 بتاريخ: 12/03/2019

لقد كان موقفه واضحا حول موضوع التسمية، أي إطلاق لفظة ثورة على الحراك العربي كأن تقول ربيع الثورات العربية، فهو بدلا من هذا يستعمل كلمة تحول، وله في هذا مبرراته الخاصة، حيث أن الثورة مقولة لها حمولتها وإرثها التاريخي وكثيرا ما يلتصق بها المعنى الدموي، والعنف والألم، لأن غالبية الثورات في العالم إن لم نقل كلها مبنية على فكرة إستعمال العنف في القضية لكي تربح وتحصل على غايتها، و أن القوة السائدة لا يمكن أن تلغى هيمنتها إلا بالقوة، وبالتالي فدلالة الثورة كانت أقرب إلى السلبية منها إلى المعنى الإيجابي المسالم والمريح.

أما مصطلح التحول فلكي يقرب به الفهم للناس يضرب مثال دودة القز، حيث يرى أنها لكي تتحول وتصير فراشة جميلة زاهية الألوان قوية وقادرة على أن ترفرف عاليا، كان لا بد عليها من أن تتشرنق على ذاتها وتعاني الضيق والظلمة والوحدة، وتبقى على حالها مدة حتى يتحصل مرادها، وهكذا هو حال إنتفاضات الشعوب العربية إنها تكابد وتعاني حتى تتحول إلى وضعية لائقة وترفرف في عالم الحضارة و الديمقراطية عاليا.

ولهذا <<يجب أن نتغير عن المسار الجديد، لقد بلورت فكرة التحول لأقول بأنه وفي العمق يجب أن يتغير كل شيء، إن دولا في أمريكا اللاتينية كالإكوادور وبوليفيا بلورت سياسية العيش المرفه إنها فكرة تستحق الإهتمام، إن الرفاه كلمة جميلة جدا تدهور معناها كلية >>[1].

والرفاه الجميل كمطلب شرعي وبليغ لشعوب العالم لا يتحقق عند بلوغ مستوى معين من القدرة على إقتناء جميع التجهيزات المادية كالسيارة والثلاجة والتلفاز والهاتف، والمنزل الفخم المؤثث وغيرها، هذا مهم خاصة وفق المنطق السائد في زمن العولمة، لكن الأهم لبلوغ معنى الرفاه هو أن يتأسس الإزدهار الفردي ضمن حلقة الإزدهار الجماعي، بمعنى أننا لا نريد رؤية تلك الفروقات القائمة في الدول، والتي تجعل أفرادا يتمتعون بالرفاه المادي وتملك كل شيء بينما يشاهد في ذات الوقت أفراد من نفس المجتمع لا

(1) إدغار موران: الربيع العربي يقظة ستخصب المستقبل لكن لا أعرف أكيف مصدر سابق .

يملكون أقل الشروط، أين الرفاه هنا؟، وأين الإزدهار مادام البعض من الأفراد يعرفونه، بينما يجهله البقية من المجتمع الواحد؟.

وبالقدر الذي شجع فيه موران الشباب العربي على هذا الأساس النبيل، بالقدر الذي جعله يتخوف من مصيرهم، خاصة وأن هناك حالات تهور وتدافع كبيرين داخل الحراك نفسه بسبب الحماس الزائد، أو بسبب نقص الفهم عند البعض، وهو وضع مقلق، ويؤثر على السيرورة السلمية للطرح، ولهذا ف <<إن هناك غيوما تتجمع في ربيع الثورات العربية وتهدد بمقاومة التغيير الذي أحدثته>>(1).

وهذه الغيوم أي المخاطر تواجه تهديدات قوية بإفشال الخطة الموضوعة، وبالتالي إجهاض الحراك قبل أن يخرج للعلن منتصرا، وتماما وكما تنبأ موران، حدث الذي كان يخشاه، لأنه لا أحد من الظلام أو الفاسدين من كان/ولازال يريد الخير لهذه الشعوب، كما لا يريد للصحوة أن تحدث، ويستفيق من غفوته وغفلته، ويبنوا بثرواتهم التي تنهب كل يوم حضارتهم الخاصة، وفق مبادئ قوية وثابتة.

كما<< أن المفاهيم السياسية السائدة في العالم العربي سواء كانت بوليسية أمنية علمانية أو دينية فهي تواجه رياح التغيير>>(2)، هذا التغيير منبثق من حالة الوعي الشديدة التي يعايشها الشباب الثائر، والذي علم وبمنتهى العمق أن ماهو سائد وله وجه براق يحمل الكثير من الزيف والنفاق وهو في جوهره على عكس مظهره تماما، ولذا وجب الثوران ضده حتى يتحقق التوازن والتطابق.

ثم إن هذا التغيير نفسه كان سيدا على قراراته ومبادئه،غير مدعوم من أي طرف خارجي، أو توجه بعيد عن جغرافية وحدود روحه ومسلكيته، أي أن <<موجة الديمقراطية في العالم العربي ليست مدينة للديمقراطيات الغربية بشيء، بل على العكس من ذلك، فهذه الديمقراطيات دعمت الإستبداد في العالم العربي>>(3).

---

(1) غيوم في ربيع الثورات العربية، مقال إلكتروني على الموقع: www.aljazeera.net على الساعة: 14:10 بتاريخ: 10/10/2019

(2) المصدر نفسه.

(3) غيوم في ربيع الثورات العربية، المصدر الاسابق.

فلا داعي لكي تأتي أي قوة وتتحدث باسم السلام والحق في التدخل وأن نواياها طيبة وبريئة، وبأنها تسعى لنشر الخير في بلد الحراك وإحقاق الأمان والسكينة، إذ التاريخ يدون دائما، أنه لا يوجد طرف من الأطراف قد تدخل في شؤون دولة ما وهي في حالة حرب، أو إعلان للطوارئ، أو في وضعية إضراب ساخن إلا وقد زاد الوضع سوءا وحدة، باعتبار هذا التدخل لا يمت للبراءة والنقاء بأي صلة، وأن كل مساعيه هي الإصطياد في المياه الضحلة، وخدمة مصالحه، ونهب ثروات ذلك البلد، بينما يكون الجميع منشغلا بالنزاعات والخلافات والمشاحنات.

إذن فإن الديمقراطية المنشودة والمقصودة هي ديمقراطية ذات صناعة ذاتية محلية، ومنتوج صافي داخلي نقي، ولذلك لولا تدخل بؤر الفساد والحرب في القضية لنجحت في الإعتلاء على العرش والسيادة بكل سهولة.

كنا قد أشرنا إلى أن الإخفاقات التي عرفها الحراك العربي كانت نتيجة لحضور عدة أسباب، وموران هنا يوضح الموضوع فيجد أن <<إخفاق الربيع العربي يرجع إلى غياب رؤية للمستقبل-أي مستقبل تلك الثورات- موضحا أن تلك النوايا الحسنة وحدها ليست كافية لصناعة المستقبل، بل قد تؤدي تلك النوايا إلى تبعات غير متوقعة، وهذا ما حدث في سوريا ومن قبلها ليبيا >>[1].

إذن فعملية إستشراف المستقبل هامة وضرورية وواجبة حتى تستمر الثورات بالتحرك في إطار منظم ومدروس، وحتى لا تدخل في أفق العشوائية الهدامة، التي تسمح في غالب الوقت بانحراف المسار لصالح الطرف الخصم، وهذا الإستشراف غائب تماما، بل إنه لم يحسب له أي حساب، ولم يوضع بتاتا في قائمة الحضور، وهذا أمر شكل أزمة حقيقية، تولد عنها خسارة فادحة لمعركة راهن على نجاحها الكثيرين.

إن <<الثورة في كل من مصر وتونس بدأت بطموح الشباب الساعي للعدالة وعالم أفضل ضد الديكتاتورية المروعة، إلا أننا رأينا أن النوايا الحسنة قد تؤدي لتبعات غير

(1) طارق رمضان: من يعتقد أن أمريكا كانت ستدعم الربيع العربي "ساذج"، مقال إلكتروني على الموقع www.kathima.com على الساعة: 18:10 بتاريخ: 10/10/2019

متوقعة، كما حدث في سوريا، ولكن سيذكر التاريخ الرسالة الأصلية لثورات الربيع العربي>>[1].

بمعنى أنه رغم الإخفاق، ورغم ألم الفشل الذي عانى منه صناع الحراك، ورغم تدخلات المزيفين والمشوهين للحقائق النبيلة، من إعلام عالمي وتصريحات رسمية كاذبة ووثائق وبيانات حوله مزورة، رغم تواطء ذوي القرابة من الناطقين بالعربية أو المدينين للدين الإسلامي، أو الذين أعلنوا التحيز وهم يكذبون، كلهم سوف يقول التاريخ قولته فيهم في النهاية، وسوف يعلن في كتبه وفي جميع مصادره المختلفة، أن هذا المسعى شريف ونزيه ونبيل وأؤكد على كلمة النبالة وقد تقصدت تكرارها لعلمي حقيقة معناها، وأن هذه الخصائص الزائفة التي يحملها كانت فيه وقد ناضل لأجله الأحرار والشرفاء حتى النهاية.

إنه يرى أن << الناس محبطون لا مبالون وبدون أمل ،هذا صحيح لكن هذا وقبل كل شيء يعود إلى أنهم لا يجدون شيئا صادقا أمامهم >>[2].

نحن نراه لا يزال يشرح ويحلل الأسباب التي بمقتضاها خرج الناس إلى الشارع للتظاهر والإنتفاض، الأمر ليس يسيرا ولا هينا البتة، إن قوات الإعلام وشبكات التواصل الإجتماعي تبين للشعوب العربية الفرق بين عيشتها وعيشة الإنسان الغربي، بل حتى الأصدقاء والأهل الذين زاروا العالم الغربي، أو من ذهب من الشعب المنتفض إلى هناك سائحا أو زائرا أو قاضيا لحاجة ما، يجد روحه تتألم وتنزف، إنه يلاحظ الفرق والبون الشاسع، ويطرح على نفسه عشرات الأسئلة على شاكلة: هل هم أحياء ونحن أموات؟ يا إلاهي أنا لم أرى شيئا في حياتي، بعد أن رأيت هذا المستوى من العيش الكريم والحياة الهنية .

لماذا يعيشون بكل هذه الديمقراطية والرفاه والمادة، بينما نحن نحرم منها وقد درست في المدارس منذ الصغر فعلمونا فيها أن دولتنا غنية بالثروات الطبيعية المختلفة، وكذا لدينا وفرة اليد العاملة البشرية لماذا؟ ... والعديد العديد من الإستفهامات المحيرة.

(1) طارق رمضان: من يعتقد أن أمريكا كانت ستدعم الربيع العربي "ساذج، مرجع سابق
(2) بلاغ عبد الكبير الميناوي: بلاغة الربيع العربي بدلا من خطابات النخب الأدبية والفكرية والسياسية، مقال إلكتروني على الموقع: على الساعة: 14:10 بتاريخ: 13/07/2019 www.m_aawsat.com

وعلى ذكر وسائل التواصل الإجتماعي في سياق الموضوع، فإنها قد لعبت الدور البليغ في حراك الربيع العربي من حيث: <<نقل عدوى الإحتجاجات بشكل أكد حسب تعبير موران القوة التمريرية التي تتميز بها الأنترنت من جهة أنه كان وسيلة للتواصل سمحت للشباب والجماهير بالتحرك فورا ،ومن جهة أخرى كونه فتح الباب أمام حرية المعرفة والمقاومة والتمرد والصراع ضد الإستبداد>>(1).

إذن فالإنترنت في الحراك ذات نفعين الأول وهو أداة للإخبار والمعرفة قصد التحرك والفعل، والثاني لأجل تعلم دروس المقاومة، وكيفية الكفاح ومواجهة شتى ملامح الإستبداد من رؤوس الحكم والفساد.

أما فيما يخص نظرة العالم ككل للإنسان العربي، المليئة بالعنصرية والكراهية، وذلك بإلصاق تهمة الإرهاب فيه تسمية وشكلا وفعلا، وفي هذا ظلم وبلاء كبيرين، وهي صورة تسويقية مشوهة عملت القوة الأمريكية الصهيونية بمساعدة حلفائها على نشرها وتكرارها وإقناع العالم بحقيقتها وواقعها، وذلك حين نراهم يختلقون في كل مرة تصرفا مشينا ومرعبا في أحد المدن الغربية، وينسبونه للمسلمين، مثل تفجير الأماكن العامة في أوروبا، أوقتل مجموعة مدنيين أبرياء عزل أثناء الإحتفالات المختلفة كرأس السنة الميلادية وغيرها، وأكثر الأمثلة هولا وثقلا، كان تفجير برج التجارة العالمي بتاريخ الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، ونسبه إلى تنظيم القاعدة الإسلامي، بينما نحن نعلم علم اليقين أنها سياسة مدبرة من طرف القوة المهيمنة على العالم- أمريكا وحلفاؤها- ليجدوها كذريعة قوية يحتلون بها البلدان العربية، ويستنزفون ثرواتها بعد أن يقوموا بتصفية حكامها المعارضون لسياستهم، وعلى رأسها العراق.

لذا نجد موران في هذا المقام يناهض بشدة فكرة العرب الإرهاب إذ << لا أحد يولد إرهابيا، واعتبر أن أسبابا كثيرة وراء هذا القول، وهي أسباب قائمة في الدول العربية والأوروبية، وهي تبدأ من الظروف الإجتماعية، وانعدام العدالة والظلم والإحساس

(1) أحمد عدة محمد: عفوا إدغار موران، مقال إلكتروني على الموقع: www.malyaoum24.com على الساعة: 08:10 بتاريخ: 10/08/2018

بالإهانة، وعدم الإحساس بالإندماج في المجتمعات التي ينتمون لها >>[1]، وبهذا نجد أن اجتماع مجموعة هذه العوامل ستخرج نموذجا إرهابيا في أي مكان من العالم شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، ولا علاقة للفطرة،أو التوريث، أو أن العرب تكون بالأساس أقواما إرهابية لذلك وجب الخوف والحذر منها.

كما يضيف قائلا: <<عندما يغيب الحوار وينطفئ نور الحكمة، فإننا نصل حتما إلى الهذيان [...]،التعليم سلاح أساسي وهو أعدل الأسلحة المطلوبة للتصدي للإرهاب [...] الشرط الثاني المطلوب في مواجهة الإرهاب موجود في كل مواطن، وهو بالتأكيد التضامن المطلوب في مواجهة البربرية، هناك حاجة اليوم لتطويق كل الأسباب التي تغذي هذا الشر >>[2].

إذن فلكي نكافح معا ظاهرة الإرهاب المفزعة، نعم مفزعة لأنها كالشبح الذي يهدد أمن المجتمعات، لابد من حضور أمرين إثنين وهما التعليم والتضامن، فأما الأول فهو ذاك الذي يربي على الطريقة الصحيحة في التفكير وفي تصنيف القرارات بالكيفية الصحيحة وليس رميها هكذا جزافا، وأما التضامن ، فإن التصفيق بيد واحدة لايتم، ويجب حضور كليهما لتنجح العملية، وكذلك هي المسألة هنا، وجب محاربة الإرهاب عن طريق التآزر والتعاون بين الجميع دون إستثناء، حتى تجد هذه الظاهرة الخطيرة نفسها محاصرة فيكون أمامها بالتالي حلين إما أن تنتحر ونفتك من شرها وإما أن تستلم وتسلم نفسها كلية ومن ثم لا تقوم لها قائمة.

و بهذا يكون قد حسن ولو بالقدر اليسير من سمعة الإنسان العربي على المستوى العالمي سواء ذلك العربي المسلم المقيم في جغرافية بلده، أو المهاجر المقيم في الدول الغربية الأخرى.

(1) آسيا العتروس: عندما يؤكد إدغار موران لا أحد يولد إرهابيا، مقال إلكتروني على الموقع: www.meadle_east.online.com على الساعة: 14:10 بتاريخ: 01/06/2018

(2) المرجع نفسه .

ونبقى دائما في جو الثورات والإضرابات والتحركات، وهذه المرة سننتقل إلى فرنسا، ونستحضر موضوع السترات الصفراء الذي أثار جدلا كبيرا وواسعا، سواء على الساحة الإعلامية الفرنسية والعالمية أو على المستوى الواقع .

ولأنه المفكر الذي<< ناضل ضد معاداة السامية، وأيد إستقلال الجزائر، وكان من القلائل الذين ناصروا القضية الفلسطينية وتعاطفوا معها >>(1)، فإنه من المؤكد أن يكون له قوله في شأن قضية السترات الصفرات سواء بتفويض من هيئات عليا ورسمية كلفته بذلك، أو بتعبير خاص وقرار شخصي يبين فيه موقفه كمثقف له آراء وإلتزامات شرعية تستوجب عليه في ذات المقام التحدث عن الموضوع.

وموقفه من السترات الصفراء أوضحه في مقال له في جريدة لوموند الفرنسية بتاريخ الرابع من ديسمبر من عام 2018، مقترحا عنوانا للمقال<< النار والرماد >> لكن الجريدة إختارت عنوان << عندما تفتقر حركة السترات الصفراء إلى الفكر المرشد >>، وهو عنوان فهمه المحتجين بالمعنى السلبي الذي لا يخدم مصلحة الفعل مطلقا، وبأنه ضرب لحركتهم وتحيز للسلطة الحاكمة، أين إعتبره اليساريون مثقف تراجع عن مبادئه، وبأن ما قاله في المقال يعد سقطة مؤسفة لمفكر كبير.

<<ذلك حينما وضع الحركة في سياق الأزمات المتراكمة للمجتمع الفرنسي ووضح أن الصفراء المقصود مرض اليرقان، دلالة على وجود أزمة في الكبد، والسترات

(1) نجوى بركات: إدغار موران، آخر الفلاسفة الحكماء، مقال إلكتروني على الموقع : www.ALaraby.com على الساعة: 10:10 بتاريخ: 02/04/2019

* المفكر الفرنسي إدغار موران يشخص الحالة الفرنسية بأن << السترات الصفراء تشير إلى وجود أزمة إيمان في الدولة، المؤسسات، الأحزاب، الديمقراطية، وفيما تسميه الأحزاب بالنظام الذي يشكل الكل جزء منه، لكن كل المتابعين يتذكرون إن إنتخاب ماكرون بنسبة كبيرة من الأصوات جاء ما يسميه موران بأزمة إيمان بالنظام، وماكرون خارج المنظومة القائمة على الأقل للأحزاب، حصل تقريبا على أصوات قطاع لا بأس به من أصحاب السترات الصفراء الذين وكأنهم إستيقظوا فجأة بأنهم أدلوا بأصواتهم في الصندوق الخطأ >>.

أنظر إلى: أحمد الفيتوري: عالم سترته صفراء، مقال إلكتروني على الموقع: www.indepentarabia.com على الساعة: 16:10 بتاريخ: 10/05/2019

الصفراء دليل على أزمة في العقيدة، أزمة إيمان بالدولة والمؤسسات والأحزاب الديمقراطية، أي فيما يدعوه الأطراف بالنظام وهم في الوقت نفسه جزء منه >>[1].

ومن هنا شدد على ضرورة تأطير هذه الحركة بطريقة ممنهجة تضفي عليها قوة دافعة حتى تصل إلى أهدافها المنسجمة والمرجوة، ورغم تشجيعه طيلة الوقت على الإحتفاظ بالسلمية والتحلي بالأخلاق، وهو يشدد في كل مناسبة على حضور الأخلاق وتفعيلها خاصة وقت الأزمات لأنها المفتاح الوحيد الضامن لأقل الأضرار الممكنة الحصول إذا ما وقع المحضور والأسوء، ولكن مع ذلك أسيء فهمه كثيرا، وقد رد على الموضوع بطريقة كلها تركيب وانفتاح وحوارية قائلا: <<من عجيب المفارقات أن الحركة التي لم تعارض إلا الضريبة المساندة للبيئة من بين كل ماهو أكثر وحشية، وجدت نفسها تعارض بشكل أعمى كل ما يشكل الخلاص، النضال من أجل تجديد المحيط الحيوي ومكافحة التلوث وتنشيط الأراضي عبر زراعة عضوية وبيئية، ومع ذلك يبدو لي أنه لو كانت الحكومة تريد تخريب القصة البيئية ما كانت لتحقق ذلك بشكل أفضل >>[2].

إنه يريد أن يقول أنه بالرغم من أنني دافعت عن موضوع البيئة في المقال كما دافعت عنه سابقا منذ عشرات السنين في مؤلفات بوصفه موضوعا في غاية الخطورة والتعقيد ويستوجب تكاثف جميع الجهود من أجل كوكبنا الأم من مخاطر التلوث والضياع، وإذ أنني شرحت القضية معرفيا وبيئيا فهذا لا يعني مطلقا أنني إختزلتها وفقط في هذا المنحى دون أن أسلط الضوء على الأسباب الحقيقية الأخرى، بل إن الحفاظ على سلامتها لازم وأكيد، وينبغي الضغط على مسبباتها للقضاء عليها أما إحتجاج الحقوق فهو حق شرعي،

---

(1) ديمة الشكر: المفكر الفرنسي إدغار موران، تحت مجهر السترات الصفراء، مقال إلكتروني على الرابط :
https ://www.alfaisalmag.com/?another=1296 على الساعة: 14:10 بتاريخ: 22/09/2018

* المقالات التي ردت على الفيلسوف تجاهلت فعلا ما كتبه عن أنها أزمة حضارة ضخمة، وأزمة إنسانية ضخمة تسببها العولمة الجامحة، بل إتهم موران بالتهمة نفسها التي تلاحق إيمانويل ماكرون، أي بالتعالي على العامة، وأنه فوت على نفسه فرصة تاريخية لأن يكون مفكرا سياسيا، والأمر جدير بالتفكير حقا، إذ هو طرح السؤال الذي شغل عقول أهم مفكري القرن العشرين عن المثقف الملتزم ودوره وعلاقته بالسلطة، لكن هذا السؤال الشهير الذي لا يكف عن التواتر في مراحل إنكفاء العامة عن صنع الحديث يتعرض لإمتحان معناه في كل مرة يبدي فيها المثقف موقفه من حراك أو إحتجاج لما تظهر مآلاته بعد.

أنظر إلى: المرجع نفسه.

(2) ديمة الشكر: المرجع السابق.

وكان من الأولى أن تنتفضوا منذ وقت طويل على أسباب أخرى لها وزن أثقل وأهمية أكبر.

بقي لي فقط أن أبين في هذا الصدد لماذا دمجت موضوع السترات الصفراء المتعلق بالقضايا الفرنسية المنتمية إلى العالم الغربي، مع موضوع الحراك العربي ومبرري في ذلك أن حركة السترات الصفراء صحيح أنها وضع قائم داخل الجغرافية الفرنسية، والإنتفاض ضد قرار فرنسي، لكن لا يخفى على أحد أن صناع الحراك لم يكونوا جميعا فرنسيين، بل إن الفرنسيين الحقيقيين منهم قلة قليلة تكاد تعد على الأصابع وقد أكدت العديد من القنوات الفضائية حسب إحصائيات عالمية من مواقع ذات سمعة موضوعية معروفة أن نسبة الأفراد في هذا الحراك المنتمين إلى العرب تعدت الضعفين من العدد الإجمالي له، ما يؤكد أن الفرد العربي سواء على مستوى دولته الأم، أو الدولة المقيم بها قد إكتسب وعيا تحرريا جعله غير قادر على تحمل المزيد من الذل السياسي والإجتماعي والنفسي والعاطفي والإقتصادي...، وهؤلاء العرب هم في الغالب من دول شمال إفريقيا كالجزائر وتونس والمغرب ومصر...إلخ.

وعلى هذا الأساس أعطيت لنفسي شرعية أن أضيف هذا العنصر تحت هذا المبرر، وتسليط الضوء على آخر أعمال موران الفكرية في معالجة قضايا الراهن كمثقف نشيد ومواكب لمتغيرات العصر المختلفة، ثم إن هناك عشرات بل الآلاف من المؤلفات والمقالات التي تتحدث عن الحراك العربي، والتي في الحقيقة لم التفت منها، إلا إلى ما له علاقة وطيدة بتدخل أو قول موران بطريقة مباشرة فيه، فعلت هذا تفاديا للدخول في دهاليز الموضوع وتشعباته فيضيع مني المقصد الأصلي.

وكحوصلة ختامية للفصل الرابع والأخير نقول أن الرؤية التعقيدية تحتكم إلى منطق خاص يميزها عن غيرها من الرؤى، ويجعلها تقف في مواجهة تحديات العالم والمعرفة المختلفة، سواء من جهاز إصطلاحي/مفاهيمي، أو من منهج خاص قائم على الطابع المركب الذي يجعله بمثابة القنديل الذي يهتدي به الفكر التعقيدي في طريقه الوعر والمظلم إلى مبتغى الحقيقة المنشودة.

رغم كل الكثافة الظلامية التي عايشها الفكر المركب في محاولاته الدؤوبة للوصول إلى مبتغاه، لكنه إستطاع تحقيق ولو جزء يسير من الفهم والإفهام، وبرهن على مشروعية أفكاره كرؤية جديدة لها جرأتها في الحضور.

أما التعقيد في قضايا العالم العربي فقد كان حاضرا وبقوة، خاصة فيما يخص الإعترافات الساخنة لموران بمستقبل العالم العربي في ظل التغيرات السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي تشهدها المنطقة، والتي يحاول أن يبرهن شعبها فيها أنه ينوي إحقاق التغيير المفيد الإيجابي البناء بالطرق السلمية وبحضور أخلاقي كثيف، وهو ما عزز نظرية الفكر المركب المبنية على البصمة الكوكبية الكونية البعيدة عن المحدودية والإنغلاقية.

أنوه إلى أنه يمكن توظيف وإستثمار المشروع التعقيدي في الواقع السياسي الجزائري وذلك لفهم ما يحدث بشكل جيد وأعمق، يجب وفق هذا الفكر أن نستحضر كل مسببات الأزمة السياسية دون إختزالها في فكرة أو جهة أو طرف، وهذا لأن تفاقم الوضع الوطني وبروز الحراك الشعبي منذ 22 فيفري من هذا العام يدل على وجود خلل في المعطيات الموجودة التي كان ينبغي أن تسير مع بعضها جنبا إلى جنب وبتفاعل وتحاور وإنفتاح أكبر رغم الإختلاف الذي يجمعها، لكن واضح أن أحد الأطراف قد طغى على الآخر، نقصد هنا الطرف الحاكم الظالم بالطبع على الجانب الحقوقي للرعية ولفترة ليست بوجيزة مطلقا، الأمر الذي ولد حالة حرج خانقة أدخلت البلاد في مأزق-إما أن تكون أولا تكون-، وعليه من الضروري إستحضار الوعي التجميعي والعمل على إقامة توازن بين المتصارعات حتى يستقيم العدل وهذا لعلمنا أنه ضرب لنواميس الكون حين نلغي الطرف الخطر أو الشرير أو الفاسد من الحياة بمختلف مجالاتها ونبقي فقط على كل ماهو خير، لأن صراع النور والظلمة موجود وسيبقى إلى الأبد، ولكن فقط سنقوي من حظوظ الطرف ذو القضية الشرعية والعادلة لكي يحضر ويسود نسبيا.

في جعبتي أسئلة كثيرة محيرة حول مآل الرؤية التعقيدية أو نظرية الفكر المركب، هذا المآل المستقبلي الذي أعتقده غامضا ومقلقا، البعض من هذه الاسئلة حورته كالتالي:

هل يمكن للمشروع التعقيدي مجابهة كل التحديات التي يفرضها الواقع، خاصة وأنها في تشكل يومي، وفي تمظهر مختلف ومستمر؟.

هل يعقل أن تصل فكرة التعقيد إلى الواقع العملي وتطبق على صعيد الممارسة تماما مثلما نظر لها في الحيز الرؤيوي التنظيري؟

أيعقل أن تتغبر بغبار ومخلفات الما بعد حداثية وينجم عنها صيغة جديدة مشوهة ومختلفة كلية عن تلك المأمول الوصول إليها؟

مالذي يمكن إنتظاره من هذه الرؤية براغماتيا، وهل هناك إجماع حول نجاعتها في الوقت الراهن، أم أن هناك تخوفات منها يلوح في الأفق؟

هل سيكون موران المناظل الوحيد في هذا الزمن لأجل إحقاق هذا الطرح-التعقيد- وسيادته،أم أن هناك أفكار ومساعي أخرى منادية هي الأخرى بتطبيق تشبه المنتوج الفكري التعقيدي؟

ماذا بعد التعقيد؟ بمعنى أي مآل ستساق إليه البشربة بعد سواد هذا الفكر؟

ثم أخيرا وليس آخرا، هل كان فعلا مشروع التعقيد كونيا كما أعلن عن ذلك وادعى، بحيث حقق للإنسانية قدرا ولو يسيرا من الإنفراج الأزماتي، أم أنه لم يعدو كونه مسعا فرنسيا أوروبيا غربي التأسيس، لكن بصورة منمقة ومنافقة؟

خـــاتـــمـــة

خاتمة

وفي خاتمة هذا البحث، يمكن إستخلاص مجموعة إستنتاجات تحوصل ما تم التعرض له منذ بداية أول مبحث من الفصل الأول، وما يمكن قوله في هذا السياق هو:

لقد إستند إدغار موران في مشروعه الفكري إلى مجموعة معولات ذات مناهل متعددة تاريخية وسياسية وحضارية، إبستيمولوجية، وتقنوعلمية، وهي تمثل في مجملها حزمة المنطلقات بأبعادها التي أثرت على فكره، من حيث التطور والنضج، ومهدت لظهور نظرية الفكر المركب، أو إبستيمولوجيا التعقيد.

حيث مثل البعد التاريخي الحلقة الحساسة من ناحية حضور الدرس الفلسفي في جل المحطات التي عرفها الفكر البشري، فالتاريخ معلم كبير، منه تستقى المواعظ والعبر، وبه تكبر الأفكار ويشتد عودها وتتوازن، وعلى هذا الأساس فإن جملة الأحداث التاريخية سواء على الصعيد العام، أي تاريخ البشرية العام منذ اللحظة الأولى لميلادها إلى غاية يوم كتابة هذه الكلمات، قد عايشت تغيرات وتطورات مختلفة أسهمت في إنتقالها من مرحلة محددة غلى أخرى متجددة، هذا الوضع بالذات جعل موران يتوصل إلى فكرة أن لاشيء ثابت دوما على الإطلاق، وأن كل ماهناك هو المتغير واللايقيني وهذا لا يعني الإستبعاد الكلي للثبات، ولكن حضوره في المتن المركب لا يعني سواده لوحده، أما على الصعيد الداخلي، فقد منحته حياته الطويلة التي عايشها زخما فكريا خاصا منذ اللحظة التي عايش فيها فراق والديه على فترات متباينة وشهادته للحرب العالمية الثانية، وإعتناقه للإشتراكية ثم تخليه عنها لاحقا، وغيرها من الأحداث التاريخية التي صنعت شخصية ثرية ومتنوعة، ألمت بكل الأضداد والمتناقضات.

أما فيما يخص البعد الإبستيمولوجي فهو حصيلة ثقافة طويلة وكثيفة، وإطلاع كبير للمصادر وأمهات الكتب، إن إدغار موران عقل موسوعي نتيجة المناهل العلمية والمعرفية الكثيرة التي يتعرض لها ويغرف منها، فهو مطلع بالتقريب على كافة الحقول العلمية، من فيزياء وبيولوجيا ورياضيات، وطب وفلك... وغيرها الكثير، وفي ذات الوقت له إلتفاتات محترمة على عالم الأدب والشعر والموسيقى والفن والسنما، وهو ملم

بحقول الفلسفة وعلم الإجتماع والعلوم الإنسانية وعلم النفس وعلوم اللغة... إلخ، كما أن له في الرياضة والصحافة والنقد وأهم مايمكن ذكره في تقديري في هذا المقام أنه عالم تربوي من الطراز الرفيع، إذ نظر وبجرأة ومتانة لهذا الموضوع ودعى إليه .

إذن فمسألة المنطلقات تعتبر لازمة الذكر والحضور في أي بحث حتى يتأتى له إفهام القارئ المتناول للموضوع بالدراسة أن هناك عناصر خفية قد لا تبدو ظاهرة ولا واضحة في واجهة فكر الفيلسوف، لكنها ثاوية وموجودة ضمنيا، وتؤثر عليه التأثير البالغ، وأنه لولاها ربما لم يكن ليوجد ويتعرف عليه أبدا.

أما الأسس فتلك مسالة أخرى وهذا لاعتبارنا أن أية رؤية أو نظرية مشروطة بوجود ركيزة أو دعامة تقف على وجهها مقواة واثقة، وهذا ما نقصده بالأسس هنا، أي أن موران له قواعد خاصة أرسى عليها مشروعه، وقد نظرت فوجدتها كثيرة، وعند الإمعان مطولا، علمت أنه يمكن ردها إلى أربعة أساسية، وكل واحدة منها تتضمن في رحمها جملة من الاسس الأخرى، التي تكون أكثر قربا وارتباطا من حيث العلاقة إليها، وهذه الأربع هي: الأساس العقلي ثم الأيديولوجي ثم الأخلاقي ثم الثقافي، فأما الجانب العقلي فلأن موران يوليه أهمية قصوى، ولا يفهم من كلامي هذا أن العقل عنده مقولة أساسية تماما كما في المفهوم الديكارتي أو الكانطي أو الأنواري بصفة عامة، بل أقصد به أن العقل ملكة حرة مستقلة فاعلة ومنشئة ومميزة لصاحبها.

العقل هو الوحدة الفاصلة بين البشر وما عداه من كائنات على الكوكب الحديدي، ولأنه هكذا فمن اللازم إقامة نوع من الشرح والتحليل حول مزاياه، منهجه، مخططاته ومآلاته، وبهذا الفعل نتوصل إلى حقيقة الكائن المتعددة الأبعاد والمتداخل فيها كل تفصيل وكل العناصر.

وأما الوضع الآيديولوجي الذي يؤكد موران من خلاله أنها نقطة من نقاط القوة عند البشر، من حيث قوة الطرح والقدرة على التأثير، فالآيديولوجيا هي البؤرة التي تدعم إختلاف الإنسان عن الإنسان الآخر، وهذا الإختلاف المفرق له جزئيا في مسائل ونقاط

معينة يجعله متمسكا بإنتماءاته وسماته وعاداته وتوجهاته، وهو وضع أو حالة ثرية ودسمة تغذي العقل المركب بشكل جيد وتمنح له متنفسا حرا وواسعا ليعبر عن تنوعه وتعدده وثرائه.

وأما الأخلاقي، فهو الذي به تبنى الأمم، وتقام الصروح، وتظهر الحضارات ومن دونه تسقط، وهو في هذا الشأن أساس لازم لأن هناك دعوات صريحة وواضحة من موران بتبني الأخلاق والتشديد عليها لعلمه أنها الحل الفوري والضروري لمعظم الأزمات التي تعايشها البشرية.

وأما الثقافة فهي عنده الهرمون الركائزي للفكر المركب، باعتبار الإنسان كائنا ثقافيا بامتياز لا يمكنه التنازل عنها والعيش من دونها، فهو الكائن الذي تصنعه الثقافة، ليقوم بصنعها هو الآخر فيما بعد، ولأن الإنسانية أيضا هي دين قائم على المبدأ الثقافي الذي يجمع في إطار الحوار ويفرق في إطار الإختلاف الثقافي.

وبالإنتقال للحديث عن موضوع المشروع أي مشروع إدغار موران الفكري، فإنني أؤكد في هذا الصدد أن الرؤية التعقيدية كمشروع واضح المعالم، ومكتمل الشروط نعته بهذه الصفة -على الأقل معرفيا ومنهجيا- قد كانت الرحلة فيها وإليها طويلة وممتعة وشيقة وشاقة معا، إنها مغامرة تدعو إلى الدوار والرضى، ذلك أنه من أدبيات التنقل من حقل معرفي لآخر، ومن مستوى دلالي لثان فقهي لثالث منهجي لرابع إبستيمولوجي... والقائمة طويلة ولا يمكن أن تنتهي، إنه يدعو إلى الأمل وإلى التجدد وإلى الهدوء في التعامل مع إضافة موجات من الصخب إذا ماإقتضت الضرورة ذلك، كما أنني أدعوه دائما المشروع المسالم والمؤدب، الذي يطرح نفسه ببدلة رسمية جادة وجسورة، دون أن يهاب إنتقاد الطرف المصغي إليه، الذي يكون في الغالب هو السيد القديم السائد ذو الشعبية والجماهيرية، ومع هذا فأنت تراه يقدم ما أمكن من المطارحات والتوجيهات للحد من نقائصه ومنزلقاته، حيث أعطى الفكر المركب لنظيره التقليدي التبسيطي الإختزالي دروسا في أعطاب الحداثة على مستوى النظرة الأحادية والمنهج الواحد الإختزالي،

وثقافة الدوغما والإنطواء، وسواد النرجسية والتمركز حول الذات/الأنا، وتمجيد الإنسان، وغيرها من المحطات الكثير.

إن المشروع التعقيدي جاء كخاصية جوهرية ماهوية لمشروع من مشاريع ما بعد الحداثة لكي يؤكد أن لا شيء دائم وخالد وشامل وعذري وصدفوي ونهائي، أي أن كل المقولات الجاهزة والكاملة يجب أن تحذف وتعوض بأخرى أكثر نسبية وإحتمالية وشكية وتعقيدية/تركيبية، والأهم من كل هذا أكثر إنفتاحا وحوارية، ذلك أن مبادئ الفكر المركب التي يتكئ عليها هي جملة من الصيغ الفضفاضة كالحوار والإنفتاح والهولوغرام والإرتداد، والتعقيد، والتداخل والتنوع...إلخ.

وبهذا لا شيء مضمون على الإطلاق، فهو إذن توجه نقدي للنقائص السائدة المتعامل بها والتي يظنها الجميع بأنها سليمة وصحيحة، ثم بناء تركيبي جديد، لطرح لا يدعي أنه يحمل الصدق والحقيقة والجواب النهائي، بل لأنه يقول بأن الفكر المركب وحده القادر على تمثل تعقيد الإنسان والعالم الذي هو موجود منذ البدء، لكن الرؤى التبسيطية الإختزالية هي التي فرضت عقلا أعمى ناقصا لا يرى إلا ما رسمت له إن يراه، ولا يخرج عن المبادئ المسطرة له لقراءة الكون كالحتمية والإستقراء واليقين والصدق النهائي، والقوانين الثابتة، والنتيجة المضبوطة الكاملة...إلخ.

ثم إن المنطق الذي يحكم هذه الرؤية التعقيدية من جهاز مفاهيمي جديد ومتميز يؤكد أصالة المشروع وكذا المنهج المعرفي الذي يوجه الرؤية ويعمل على إرساء توازنها، وهو المنهج التعقيدي، أو المنهج المركب، الذي يقوم على السندات النقدية والبنائية المركبة قد خلق له هيبة ووزن على الساحة الفكرية المعرفية وخاصة في عالم الإبستيمولوجيا.

من هذا المنطلق يكون للعقل المركب أسباب ضرورية واقعية هامة أدت إلى ظهوره، بل إن الوضع المعرفي القائم قد آل إلى حالة ومسار ذي إعوجاج واضح جعل التدخل لحله أمرا حتميا وعلى جناح السرعة، وهو سواد النزعة التبسيطية التجزيئية التذريرية التي لزم عنها ظهور نزعات أخرى كالتشيئية والآلية الحتمية، وكذا النزعة

الدوغمائية و الفردانية والذاتية... إلخ، وبموجب هذا فهو جديد الطرح على مستوى الزمن/التاريخ، والمحتوى المعرفي، و المنهج المعالج ، وكذا الرؤية الناقدة والبناءة على السواء فيكون بذلك أصيلا على الصعيدين الداخلي والخارجي، وليس بتكرار لفكرة ماضية في حلة جديدة، وأصالته مبنية على جميع أسس المشروع ومزاياه السابقة الذكر.

فحق لموران بهذا أن يكون فيلسوفا ذا مشروع فكري إصلاحي تاريخي، أريد به خدمة الإنسانية في مستوياتها المتعددة وبطرائق قددة، وفي ختام هذه الرسالة يمكنني أن أطرح مجموعة إستفهامات يمكن أن تكون تباشير لرؤى ودراسات قادمة تتناول بالبحث والدراسة وهي:

ماهي إمكانية أن يصمد المشروع معرفيا / منهجيا / زمانيا في ظل عصر كثرت فيه المتغيرات، وتسارع فيه ظهور الآراء والمطارحات؟ إلى أي مدى يمكن القول أن موران وفق لحد بعيد فيما ذهب إليه؟ وهل هناك من سوف يأتي مستقبلا ويسأل: لقد كان مجهود الرجل سهلا عندما مزج بين المسائل كلها وقام باحتوائها واحتضانها؟

إلى أي حد كان المشروع متعبا، وهل هناك ملمح جاهز ولو بالتقريب لنرى صورة قريبة عن شكله المتطور والمستحدث في الستقبل من طرف المورانيين الجدد، على وزن الكانطيين الجدد، والهيجليين الجدد...؟.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: مصادر إدغار موران

1/ باللغة الأجنبية

1. Morin Edgar: l'esprit du temps, paris edition grasset fasquelle, 1962.

2. Morin Edgar et Nai Sami, Une Politique de civilisation, édition paris arléa, 1997.

3. Morin Edgar: Les Sept Savoirs Nécessaires à l'education du futur, organisation des nations unies pour l'education, la sience et la culture (UNESCO) 1999.

4. Morin Edgar - Jeans Luis le moigne, l'intelligence de la compexité,edition l'harmattan, paris,edition numérique 1999.

5. Morin Edgar, la methode 2, la vie de la vie, paris. suil, 2004.

6. Morin Edgar: la methode b, ethique, suil, paris, 2004.

7. Morin Edgar, introduction à la pensée complexe, paris edition du seuil 2005.

8. Morin Edgar, introduction in Nsonsissa Auguste trausdisa plinarité et transeversalité epitémologique chez edgar morin paris edition L'harmattan, 2010.

9. Morin Edgar/ Ramadan Tariqu: L'ethique Aujourd'hui entre theories et pratique youtube 29/10/2013.

2/ باللغة العربية

1. موران إدغار: روح الزمان: النخر، ترجمة أنطون حمصي، دمشق، سوريا، منشورات وزارة الثقافة، 1995.

2. موران إدغار: روح الزمان، العصاب، ترجمة أنطون حمصي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط3، 1995 .

3. موران إدغار وبودريار شارل: عنف العالم، ترجمة عزيز توما، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2000.

4. موران إدغار: تحديات القرن الحادي والعشرين- تواصل المعارف العلمية-، ترجمة وتعليق: حسين شريف، مصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب،2001.

5. موران إدغار: المنهج، معرفة المعرفة- أنثربولوجيا المعرفة-، ترجمة جمال شحيد، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2002.

6. موران إدغار: تربية المستقبل- المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل- ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوجي، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 2002.

7. موران إدغار: الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصوار ومنير الحجوبي،الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط 1، 2004 .

8. موران إدغار: ثقافة أوروبا وبربريتها، ترجمة محمد الهلالي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر والتوزيع، 2005.

9. موران إدغار: إلى أين يسير العالم، ترجمة أحمد العلمي، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009.

10. موران إدغار: النهج: إنسانية البشرية ، الهوية البشرية : ترجمة هناء صبحي ، أبو ظبي ، هيأة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط 1، 2009.

11. موران إدغار: نحو سياسة حضارية: ترجمة أحمد العلمي، بيروت، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010.

12. موران إدغار: هل نسير إلى الهاوية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، المغرب، دار إفريقيا الشرق، 2012.

13. موران إدغار: المنهج: الأفكار، ترجمة جمال شحيد، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012.

14. موران إدغار: أزمة المعرفة، عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، مجلة الإستغراب، العدد(1)، السنة الأولى، 2015.

مواقع إلكترونية حول إدغار موران:

1. حوار مع الفيلسوف وعالم الإجتماع الفرنسي، موران إدغار على الموقع الإلكتروني: www.aMP-dW.com

2. موران إدغار وجان ميشال بلانكير: كيف نغير المدرسة؟ ترجمة سعيد بوخليط، مقال إلكتروني على الموقع: HEKMAH.org.http://www

3. موران إدغار: الربيع العربي يقظة ستخصب المستقبل لكن لا أعرف أكيف، مقال إلكتروني على الموقع: https://www.oujdacity-net.cdn

4. موران إدغار: حوار لمجلة علوم إنسانية الفرنسية، ترجمة عمر بيشو، مجلة فكر ونقد الإلكترونية على الرابط

http://www.Aljabriabed.net/h89-09bichou-htm

ثانيا: المراجع

1/ باللغة العربية

1. أحمد سليم سعيدان، مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، سلسلة عالم المعرفة131، 1998.
2. أدونيس: الثابت والمتحول ج1، بيروت، دار العودة، ط7، 1994.
3. الأعرجي علاء الدين: أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي بين العقل الفاعل والعقل المنفعل، لندن، مطبوعات- إي- كتب- ط2، 2005.
4. أغروس روبرت وستانسيو جورج: العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال فلايلي، سلسلة عالم المعرفة، رقم134 ، 1990.
5. أفاية نور الدين: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، هابرماس نموذجا، دار إفريقيا الشرق، ط2، 1998.
6. أمين عثمان: ديكارت، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1969.
7. أنجرس موريس: منهجية البحث العلمي، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر، دار القصبة، 2004.
8. بارت رولان: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام عبد العالي، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط3، 1993.
9. باشلار غاستون: الفكر العلمي الجديد، ترجمة عادل العوا، مراجعة عبد الله الدايم، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 ، 1983.

10. بلعقروز عبد الرزاق: الفلسفة وسؤال المستقبل- أعمال مؤتمر- الجزائر، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، 2014.

11. بنيس محمد: حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، لبنان، المركز الثقافي العربي، ط2، 1998.

12. بوبر كارل: منطق البحث العلمي، ترجمة محمد البغدادي، فرنسا، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007.

13. بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، 2001.

14. بوشنسكي إ . م: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، رقم 165، 1978 .

15. بونكلجهولم جون: ما وراء العلم، ترجمة علي يوسف علي، مصر، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المشروع القومي للترجمة، 1998.

16. بيروتز ماكس: ضرورة العلم، ترجمة وائل أتاسي وبسام معصراني، عالم المعرفة، رقم 245، سنة 1978.

17. بيلسي كاترين: الثقافة والواقع، ترجمة باسل المسالمة، دمشق، سوريا، منشورات الهيأة العامة السورية للكتاب، 2017.

18. التريكي فتحي و التريكي رشيدة: فلسفة الحداثة، بيروت، لبنان، مركز الإنماء القومي، 1992.

19. تشيزهولم ردوك: نظرية المعرفة، ترجمة نجيب الحصادي، مصر، الدار الدولية للنشر والتوزيع.

20. تورين آلان: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، مصر، المجلس الأعلى للثقافة، 1997.

21. جورنه نيكولا: بين الكوني والخصوصي، ترجمة إياس حسن، دمشق، سوريا، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2014.

22. حاج حمد أبو القاسم: العالمية الإسلامية الثالثة، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة ج2، لندن، المكتب الدولي للبحوث والدراسات، ط2، 1996.

23. حرب علي: الماهية والعلاقة، بيروت، لبنان، المركز الثقافي الغربي، ط1، 1998.

24. حسن أحمد عيسى: الإبداع في النفس والعلم، سلسلة عالم المعرفةٍ رقم 24، ديسمبر1979.

25. حمود كمال: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1990.

26. د. جون- ب- ديكسون: العلم والمشتغلين بالبحث العلمي في المجتمع الحديث، ترجمة: شعبة الترجمة باليونيسكو، عالم المعرفة، رقم 112 ، 1978.

27. دواق الحاج أوحمنة: الإبستيمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي- قراءة في مشروع محمد أبو القاسم- حاج حمد، عمان، الأردن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2015.

28. دورتي جون فرانسوا: فلسفات عصرنا، ترجمة إبراهيم صحراوي، منشورات دار الإختلاف، ط1، 2009.

29. دوكاسييه بيير: الفلسفات الكبرى، ترجمة جورج يونس، بيروت، لبنان، منشورات عويدات، ط3، 1983.

30. دولوز جيل: نتشه، ترجمة أسامة الحاج، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1998.

31. راسل برتراند: أمال جديدة، ترجمة عبد الكريم أحمد، القاهرة، آفاق للنشر والتوزيع، ط1، 2018.

32. راكيثوف: أسس الفلسفة، ترجمة موفق الدليمي، موسكو، دار التقدم، ط1، 1989.

33. راينرفونك: الأنا والنحن، ترجمة حميد لشهب، بيروت، لبنان، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، ط1، 2016.

34. روز مارجريت: مابعد الحداثة، ترجمة أحمد الشامي، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1994.

35. ريكور بول: محاضرات في الآيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة فلاح رحيم، ليبيا، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2001.

36. سويل توم: ديكارت – مقدمة قصيرة جدا- ترجمة محمد الروبي مصر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2014.

37. سيد أحمد محمد: الأخلاق عند هيوم، مصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1992.

38. شالمرز- ف- آلان: ماهو العلم، ترجمة لطيفة ديب عرنوق، سوريا، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط1، 1997.

39. شريعتي علي: منهج التعرف على الإسلام، ترجمة عادل كاظم، بيروت، دار الأمير، ط1، 2006.

40. صالحي أمير عباس: إيمانويل كانط الجزء الثالث- فلسفة الأخلاق- الحداثة، إيران، العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط1، 2019 .

41. صفدي مطاع: نقد العقل الغربي- الحداثة وما بعدها-، بيروت، لبنان، مركز الإنماء القومي، 1990.

42. طريف الخولي يمنى: فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، رقم 264، سنة 2000.

43. العروي عبدالله: مفهوم الآيدولوجيا، بيروت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط7، 2003.

44. العمر عبدالله: ظاهرة العلم الحديث، سلسلة عالم المعرفة، رقم 69، سنة 1983.

45. عوض رمسيس: برتراند راسل المفكر السياسي، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر، 1966.

46. غوديل مارك: الإستسلام للمثالية، ترجمة هناء خليف غني، منشورات الإختلاف، ط1، 2015.

47. فان دالين ديوبولد ب: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفلو وآخرون، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 2008.

48. فهيم حسين: قصة الأنثربولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة ، رقم98، 1978.

49. فوكو ميشال: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع الصفدي وسالم يافوت وآخرون، بيروت، لبنان، مركز النماء القومي، 1990 .

50. كارنيدس مايكل: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ ـ الثقافات البشرية نشأتها وتنوعاتها، ترجمة شوقي جلال، القاهرة، عالم المعرفة، رقم 299،2001 .

51. كانط إيمانويل: مشروع السلام الدائم، ترجمة عثمان أمين، القاهرة،مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1952.

52. كوبر آدم: الثقافة : التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة تراجي فتحي، عالم المعرفة 349، 2008.

53. كوزلوفسكي يوري: الفلسفة اليابانية المعاصرة، ترجمة خلف محمد الجراد، بيروت، لبنان،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1995 .

54. كولر جوني: الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة،رقم 199، 1978.

55. كون توماس: بنية الثورات العلمية: ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة رقم168، 1978.

56. كونغيلام جورج: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، ترجمة محمد بن ساسي، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2007.

57. كيفان جيروم: الثقافات الثلاث، ترجمة صديق محمد جوهر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014.

58. لايكوف جورج و جونسون مارك: الفلسفة في الجسد، ترجمة عبد المجيد جحفة،لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2016.

59. ليشته جون: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ترجمة فاتن البستاني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2008.

60. ماكوري جون: الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، الكويت عالم المعرفة رقم 58، أكتوبر1982.

61. مبارك زكي: الأخلاق عند الغزالي، بيروت، لبنان، دار الجيل، ط1، 1988.

62. المسيري عبد الوهاب: العلمانية والحداثة والعولمة، دمشق، دار الفكر، ط1، 2009.

63. المسيري عبد الوهاب: فقه التحيز، المقدمة، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1995.

64. مصطفى عليان ربحي وآخرون، مناهج وأساليب البحث العلمي، النظرية والتطبيق، عمان، دار صفاء، ط1، 2000.

65. مكدونيل ديان: مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عز الدين إسماعيل، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ط1، 2001.

66. المنجرة المهدي: الحرب الحضارية الأولى: مصر، مكتبة الشروق، البورصة الجديدة، قصر النيل، ط1، 1995.

67. مؤنس حسن: التاريخ والمؤرخون: القاهرة، دار المعارف، 1984.

68. ناصف مصطفى: اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، رقم193، 1978.

69. نتشه فريدريك: عدو المسيح، ترجمة جورج ميخائيل ديب.

70. نتشه فريدريك: هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، ط2، 2006.

71. نتشه فريديريتش: ما وراء الخير والشر، ترجمة جيزيلا فالور حجار، بيروت، لبنان، دار الفرابي 1886، ط1، 2003.

72. النشار مصطفى: من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

73. نصار كريستين: الإنسان والتاريخ، لبنان، طرابلس، ط1، 1991.

74. نيشيف، ك - وفولتشنكو: أخلاقيات السعادة، ترجة يوسف إبراهيم الجهماني، دمشق، سوريا، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998.

75. هف توبي أ: فجر العلم الحديث، الإسلام والصين والغرب، ترجمة محمد عصفور، سلسلة دار المعرفة، رقم 219، 1998.

76. وايزمان فريدريك، رامزي فرانك وآخرون: كيف يرى الوضعيون الفلسفة؟ ترجمة وتقديم نجيب الحصادي، مصر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، دار الآفاق الجديدة.

77. ووكلر روبرت: روسو، مقدمة قصيرة جدا، ترجمة أحمد محمد الروبي، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2015.

78. ويدجري.ج. ألبان: التاريخ وكيف يفسرونه، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب، 1996.

79. يازجي بولس ، دور الأديان في مستقبل الحضارات أي دين وأي دور، متروبوليت حلب، إحتفالية حلب عاصمة للثقافة الإسلامية 2006 .

2/ باللغة الأجنبية

1. Abd elhamid hassan: les paradigmes postmodernes et la demarche pluraliste dans la recherche juridique in methodologie du pluralisme juridique edition karthala, 2012.

2. Elisabeth clément et autres: La philosophie AZ, paris, edit Hatier, octobre, 1994.

3. Gorden Petry Marce. François guid, l'alaboration d'un projet de boeck université, presses de l'université de laval 3eme edition, 2000.

4. Honneth Ascel: les limites de liberalisme de lethique au etats aujourd'hui in rue. Discartes paris 5- 6 nouvembre edition albir michel, 1992.

5. Horkhoimer et adorno, la dialiqutique de la raisn, edition gallimard, 1983.

6. Nsonsissa Augeste. Trandisciplinarité et transvarsalité épistémologique chez Edgar Morin, paris edition l'harmattan 2010.

ثالثا: القواميس والموسوعات

1/ باللغة العربية

1. لالاند أندري: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت، باريس، دار عويدات، ط2، 2001.

2. صليبا جميل: المعجم الفلسفي، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1982.

3. مذكور إبراهيم: المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983.

4. إبن منظور جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب، الجزء2، تحقيق عامر أحمد حيدر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003.

2/ باللغة الأجنبية

1.Encyclopédie, encarta, Ideologie, microso Ft 1998.

2.La Rousse: dictionnaire de Français, la presente edition, 2008.

3.Sous la direction l'andré Akoun et pierre Ansart Dictionnaire de sociologie, le robert /swil, 1999.

رابعا: المجلات والدوريات

1.تيس يوسف: نحو براديغم جديد للطبيعة، مجلة رؤى تربوية، العدد29، مؤسسة عبد المحسن القطان .

2. شاتلي فرانسوا: الحداثة في الفلسفة، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد6، 1989.

3. عفط محمد: التحولات العلمية والفكرية، الإنفتاح والتركيب وتجليات النقد المتجدد، مجلة فكر ونقد (نسخة إلكترونية) ، العدد 69 على الرابط:

http://www.Aljabriabed.net/n69.02 afat.htm

4. مسرحي فارح: النقد في كتابات، عبد الرحمان بوقاف، مجلة دراسات فلسفية، الجزائر، العدد 05، نوفمبر 2015.

5. هابرماس يورغن: الحداثة مشروع لم يكتمل بعد، ترجمة بسام بركة، بيروت، مجلة الفكر العربي المعاصر،العدد 39، مركز النماء القومي، 1986.

خامسا: الرسائل والأطاريح

1. خليفة داود : إبستيمولوجيا التعقيد – دراسة لبراديغم التعقيد والفكر المركب لدى إدغار موران- أطروحة دكتوراه، جامعة وهران2، الموسم الجامعي 2015-2016.

سادسا: المواقع الإلكترونية

1. أحمد الفيتوري: عالم سترته صفراء www.indepentarabia.com
2. أحمد عدة محمد: عفوا إدغار موران www.malyaoum24.com
3. آسيا العتروس: عندما يؤكد إدغار موران لا أحد يولد إرهابيا www.meadle_east.online.com
4. بسراب نيكولسكو، العبرمناهجية والثالث المشمول- تعددية معقدة ضمن وحدة مفتوحة- ترجمة مها أحمد www.maaber.org
5. بلاغ عبد الكبير الميناوي: بلاغة الربيع العربي بدلا من خطابات النخب الأدبية والفكرية والسياسية www.kathima.com
6. داود خليفة: خطاب الغيرية، من الفكر الإختزالي المركب http://www.hwamsh.net
7. ديمة الشكر: المفكر الفرنسي إدغار موران، تحت مجهر السترات الصفراء https://www.alfaisalmag.com/?another=1296
8. سعيد عبد الفتاح، نقد العقل العلمي الحداثي عند إدغار موران www.revieus-univ.ouargla.dz
9. طارق رمضان: من يعتقد أن أمريكا كانت ستدعم الربيع العربي "ساذج" www.kathima.com
10. غيوم في ربيع الثورات العربية www.aljazeera.net
11. المثالية الألمانية: Alidiplomacy1@hotmail.com
12. معين روميه: مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش

http://www.Maaber.50megs.com

13. نجوى بركات: إدغار موران، آخر الفلاسفة الحكماء www.alaraby.com

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: في المنطلقات الأساسية لفكر إدغار موران	14
أولا: في الأفق التاريخي وممشاه	15
ثانيا: الوجهة السياسية ومرماها	30
ثالثا: تأثيرات التقنو-علمي	41
رابعا: المنطلق الإبستيمولوجي وتفريعاته	54
الفصل الثاني: الأسس المعرفية للرؤية التعقيدية	84
أولا: الركيزة العقلية وتطبيقاتها	84
ثانيا: قوة الآيديولوجيا وحدودها	94
ثالثا: في توطين الأخلاق المركبة	101
رابعا: نحو ثقافة قاعدية كوكبية	113
الفصل الثالث: المشروع الفكري لإدغار موران	128
أولا: مواجهة العقل الأعمى ونقده	129
ثانيا: من منطق التبسيط إلى إرساء نموذج التعقيد	135
ثالثا: هندسة الإنسان المركب	142
رابعا: كوكبة الإنسانية والعالم	150
الفصل الرابع: المنطق الإبستيمولوجي لبراديغم التعقيد ومآلاته	160
أولا: الجهاز الإصطلاحي للمشروع التعقيدي	162
ثانيا: في المنهج المركب للرؤية التعقيدية	170
ثالثا: جدل الحداثة والتعقيد	179
رابعا:التطبيقات النقدية للتعقيد على الصعيد العربي والإسلامي ومآلاته	192
خاتمة	205

قائمة المصادر والمراجع.....	211
فهرس الموضوعات.....	227

الملخص:

إن نظرية الفكر المركب أو ابستيمولوجيا التعقيد التي جاء بها إدغار موران كطرح قائم على مبدأ التعدد والحوار والانفتاح، كان كرد فعل جاد لمناهضة تمظهرات الحداثة الغربية والعقل الكلاسيكي المرتكز على بنى التبسيط والفصل والاختزال في المعرفة، ومنه عجزه عن تمثل حالة التعقيد التي تلف العالم، فيكون بهذا المشروع التعقيدي هدما وانتقادا لمكامن النقص والخطأ والوهم في المعرفة، وتصويبها وفق منهجية جديدة قادرة على احتضان الوحدة والتعدد، وكذا الدعوة بإلحاح إلى حوارية المتناقضات المتصارعة بجعلها متعايشة ومنفتحة على مزايا بعضها كبناء مركب وثري وزخم، لا يلغي أدنى طرف بل يهذبه في إطار تواشجي تفاعلي ارتدادي مع غيره من الأطراف المتنوعة المؤسسة للمعرفة البشرية والمساهمة في تشييد معنى العالم.

Résumé

La théorie de la pensé complexe ou épistémologie de la complexité présenter par Edgar Morin, il repose sur les principes de pluralité de dialogue et d'ouverture, en réaction contre les formes de la modernité occidental et l'esprit classique qui baser sur les substrats de la séparation de la simplification et de la réduction de connaissance il était incapable de comprendre la complexité du monde, donc le projet complexe est destructeur et critiqué pour son manque d'illusion de connaissance, et créer une nouvelle méthodologie capable de contenir l'unité et la pluralité, et aussi le dialogue de contradiction contradictoire en les faisant coexister et s'ouvrir les unes aux autre a une construction d'un complexe et riche n'annule aucune fête ou composant, dans un cadre interactif harmonieux qui renforce la connaissance humaine et contribue a construire le sens du monde.